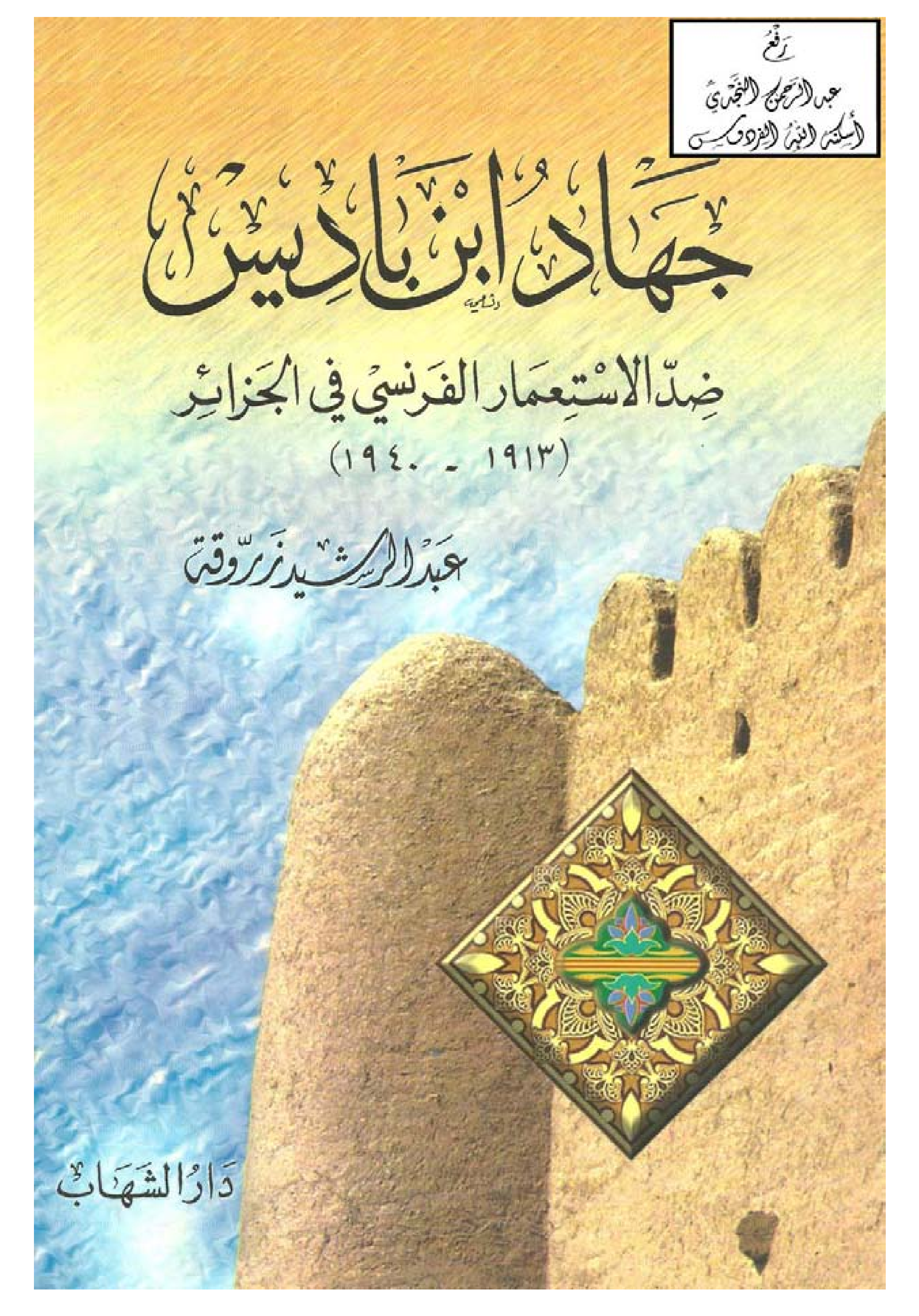


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
جهاد ابن باديس
ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر
(١٩١٣ - ١٩٤٠)
عبد الرشيد زروقة
دار الشهاب

جهاد ابن باديس

ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر
(١٩١٣ - ١٩٤٠)

عبد الرشيد زروقة

دار الشهاب

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

دار الشهاب

بيروت - لبنان - هاتف: ٣٨٩٧٣٠ / ٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله وحدَهُ

والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ لا نبيَّ بعدَهُ

الإهداء

إلى روح الإمام المجدد المجاهد عبد الحميد بن باديس؛

وفاء له

إلى الرجال ورثة الإمام؛ الذين يريدون رفع الغبن الحضاري عن أمتنا؛

تقديراً لهم

إلى الوالدين الكريمين؛ براً بهما.

إلى الزوجة الطيبة وفلذات كبدي : إنصاف وتقوى ومعاذ؛

رحمةً بهم

إليهم جميعاً، أهدي هذا البحث.

مُقدّمَة البَحْث

إن تاريخ الجزائر القديم منه، والحديث والمعاصر، ما يزال أرضاً بكراً، وفي حاجة ماسة إلى دراسات تاريخية أكاديمية، تكشف الجوانب الخفية والبعيدة والعميقة والمظلمة ـ منه ـ وما يزال ينتظر جهوداً مؤسساتية متظافرة ومتكاملة، تتجاوز الجهود الفردية، والاجتهادات الخاصة، التي تبذل هنا وهناك، بين الحين والآخر، بشكل متفرق غير منتظم في خطة عامة، ومشاريع منهجية، تتبناها وتقوم بإنجازها، مؤسسات وفرق بحث؛ سواء على المستوى النظري والتنظيري، أو على مستوى الإنجاز والتطبيق.

ومن بين جوانب تاريخنا الوطني، التي ما زالت على هذه الصورة والشاكلة، إضافة إلى الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية، جانب التاريخ الثقافي والحضاري للجزائر؛ سواء القديم منه، أو الحديث والمعاصر، وذلك انطلاقاً من قاعدة أن تاريخ الأمم كل متكامل، في وحدته الكلية المشكلة للذاتية والانتماء والهوية، لكل أمة من الأمم. ونقصد بالتاريخ الثقافي والحضاري للجزائر، هو ذلك الرصد والتتبع والدراسة، التي تتناول هذا التاريخ وتكشفه، سواء على مستوى المجتمع، أو على مستوى مؤسساته التي تمثله، أو على مستوىً دور الحركات الجهادية الثقافية الفردية والجمعوية، في المحافظة على ذاتية الأمة، وتميزها الحضاري والثقافي، وإبقائها متحصنة بانتمائها وخصوصيتها ـ الخاصة أو العامة ـ الثقافية والحضارية، على مر العصور، وتقلباتها وعوارضها؛ سواء فيما قبل الاحتلال الفرنسي، أو بعده. وكيف أن هذا الجانب الحيوي من تاريخنا العام كأمة ومجتمع ودولة، هو ما شكل البناء الفكري، والعالم الثقافي، الذي حفظ كيان الجزائر أفراداً ومجتمعاً ودولة، وأبقاه متميزاً، ومتمايزاً من غيره من المجتمعات والدول، التي ليست على امتداد خط الانتماء الحضاري والتاريخي، والذي محوره طنجة جاكرتا.

ومن هنا تأتي ضرورة وأهمية قيام مشروع مؤسساتي، محدد الخطط، واضح الأبعاد، بَيِّن المنطلقات والمراحل والأهداف، لكتابة ودراسة تاريخنا الثقافي، سواء القديم منه، أو الحديث والمعاصر. ولعلَّ ما حاول الدكتور أبو القاسم سعد الله ـ كفرد ـ القيام به؛ من خلال كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، هو نقطة من بحر، وبداية تحتاج إلى تقوية وعضد وتكميل، من طرف مؤسسات ومجامع، وفرق بحث مختصة؛ نظراً لطبيعة هذا الميدان من الدراسات وخصائصه، التي تميزه عن غيره من مجالات الدراسة، وميادين البحث.

ولقد كان من رواد تاريخنا الثقافي في العصر الحديث، وأئمة التجديد الثقافي والفكري فيه، الإمام عبد الحميد بن باديس، وما قام به وأنجزه ـ كفرد أولا، ثم من خلال مؤسسة جمعية العلماء ثانياً ـ في هذا المعقد الحيوي، من معاقد انتماء وبقاء الأمة الجزائرية.

هذه الشخصية الفذّة في خصائصها ووظيفتها المتعددة الجوانب والأبعاد، والمتفردة في دورها الحضاري والثقافي المتميز، والتي برغم أن دراسات كثيرة، وأبحاثاً مختلفة،وكتابات متعددة؛ سواء الأكاديمية منها، أو غير الأكاديمية، تناولته بالبحث والدراسة من منطلقات متباينة، وتخصصات علمية كثيرة؛ قصد كشف جوانبها الغامضة ـ وما أكثرها ـ وإبرازها بمزيد من تسليط أضواء البحث والدراسة عليها، إلا أنها تناولت ابن باديس ضمن دراستها لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أو بحكم أنه مفسر للقرآن الكريم، وصاحب منهج متميز في دراسته، وتفسير آيه وسوره. والبعض الآخر تناوله بصفته مصلحاً إجتماعياً، أو مربياً، كانت له جهود معتبرة في التربية والتعليم. ومع ذلك، ورغم أهمية هذه الدراسات التي أنجزت، والنتائج المختلفة والهامة التي توصلت إليها، بقي ابن باديس السياسي، وابن باديس المشروع الثقافي والحضاري، وابن باديس المجاهد ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر الحديثة، وغير هذا مما بقي ينتظر دراسات، انطلاقاً من التخصصات العلمية، وميادين البحث والدراسة، التي تتناسب وطبيعة هذه الشخصية، وجهودها التي بذلتها، ودورها الوظيفي والتاريخي، المتعدد الأبعاد الذي أدته.

وانطلاقاً من هذه الأبعاد، ومساهمة منا في تسليط بعض أضواء البحث والدراسة التاريخية، على بعض الجوانب الخفية والغامضة والعميقة لشخصية الإمام عبد الحميد بن باديس، ودورها التاريخي، والحضاري والوطني، جاء اختيار موضوع هذه الرسالة؛ وذلك نظراً لما يكتسيه من أهمية تاريخية وحضارية تتجلى في محاولة كشف وإبراز الوظيفة الثقافية المصيرية، التي قام بها ابن باديس، والمهمة الرسالية الجسيمة التي سعى لإنجازها، في مرحلة خطيرة وحاسمة، من مراحل تاريخ الجهاد الثقافي للمجتمع الجزائري، ضد المشروع الحضاري والثقافي الذي غزانا به الاحتلال الفرنسي، وحاول استعمارنا به. ولتقديم ملامح صورة هذه الوظيفة الكبرى، التي حمّلها ابن باديس نفسه، قبل أن يُحمِّله إياها غيره من أفراد ومجموع الأمة، من خلال جهاده الثقافي العام، وجهوده الإصلاحية التغييرية الشاملة والعميقة، والمتعددة الأبعاد، والمختلفة المراحل والأهداف، والنتائج.

يُضاف إلى هذا الدافع التاريخي والحضاري والثقافي، دافع موضوعي آخر، لا يقل في درجة أهميته، وقوة دفعه لنا للبحث والتقصي عن الدافع السابق، ألا وهو، ما يثار من شبهات، وانتحالات وتحريفات وتأويلات، هنا وهناك، بين الفينة والأخرى، إما قصداً وإما جهلاً - حول ابن باديس الشخصية، وابن باديس المشروع والفكرة؛ خصوصاً فيما يتعلق بموقفه من الاستعمار الفرنسي، وموقفه من المشروع الاستعماري التغريبي، الذي أرادت فرنسا فرضه بقوة الحديد والنار، في عمق المجتمع الجزائري؛ في جوانب وأبعاد حياته المختلفة الخاصة والعامة؛ سواءً على مستوى المجتمع، أو على مستوى الدولة، هذا الموقف الذي يتطلب الكشف والتوضيح اللازمين؛ لنفي تلك الشبهات، ودحضها عنه.

كل هذا وغيره، وَلَّد في النفس رغبة جامحة، ودافعاً مبدئياً قوياً للبحث في هذا الموضوع، وتقصي - ما أمكن من جهد، وأتيح من إمكانات بحث، وتوفرت حقائقه ومعطياته، للوصول - منهجياً - من خلال الدراسة والاستقراء والتحليل، إلى بلورة دراسة علمية كاشفة - إلى حد ما - لرؤية ابن باديس للاستعمار الفرنسي في الجزائر، ومواقفه منه، وموقع قضية جهاده ضده، والتصدي لمشروعه

الاستكباري، ضمن الخطة العامة لحركة ابن باديس الإصلاحية الجهادية.

وقد قسمت هذا البحث ـ بحسب ما توافر من مادة علمية، وما تناسب وطبيعة وخصائص موضوع البحث، ودراسته إلى تمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة.

خصصت تمهيد البحث لعرض مجمل للوضع العام، الذي كانت تعيشه الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر، وإلى غاية عشرينيات القرن العشرين؛ أي قبيل ظهور ابن باديس، وشروعه في عمله الإصلاحي الجهادي الشامل.

فتناولت فيه الدوافع العقائدية، والخلفية الفكرية، التي دفعت فرنسا لاحتلال الجزائر، والاستيطان بها، والسياسات المختلفة التي اتخذتها لبسط نفوذها الحضاري العام، وهيمنتها الثقافية والعسكرية على الشعب الجزائري؛ مجتمعاً ودولة. والنتائج الطبيعية التي ترتبت عن هذه السياسات، التي كانت قوة الحديد والنار، وخيل ورجل الأجناد، وكذا إصدار القوانين التعسفية، من أهم وسائلها.

وأوضحت كيف أن الشعب الجزائري أفراداً ومؤسسات، وقف بقوة، وبتسخير ـ كل ما أمكن ـ لمواجهة محاولات فرنسا الهادفة إلى تخريب كل من عالم أشخاصه، وعالم أشيائه، وعالم أفكاره، سواء من خلال حركاته الجهادية العسكرية، أو السياسية، أو الثقافية، والتي عرضت لبعض منها، والتي ظهرت مع أواخر القرن الماضي، ومطلع القرن الحالي.

ثم كان الفصل الأول، والذي خصص لتقديم صورة عامة ومركزة عن حياة ابن باديس، ونشأته العلمية، والأطوار التي مر بها تكوين شخصيته، إلى أن استقر به المقام في نهاية الأمر بقسنطينة، وانتصب فيها للعمل الإصلاحي الجهادي. مع تحديد أهم المؤثرات العامة والخاصة، القريبة والبعيدة، التي أثرت في صياغة شخصيته.

أما الفصل الثاني، فركزت فيه عرض جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي، ومواقفه منه، والمراحل التي مر بها هذا الجهاد؛ وذلك انطلاقاً من تمايز مرحلتي عمل ابن باديس الإصلاحي الجهادي، من المرحلة الفردية، إلى

المرحلة الجماعية المؤسساتية، من خلال تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مع غيره من العلماء؛ وعلى الأخص محمَّد البشير الإبراهيمي شقيقه في الجهاد، وذلك في أيار من سنة ١٩٣١م. وبينت ـ من خلال هذا العرض والفصل ـ خصوصية معرفة ودراسة مواقف ابن باديس من الاستعمار الفرنسي ومنطلقات ذلك، وأبعاده الظاهرة والخفية، وأسباب ذلك، والأطوار التي مرت بها هذه المواقف، وتعليلها.

لأصل في نهاية هذا الفصل، إلى تخصيص لمسألة رؤية ابن باديس، وموقفه من المسألة الجوهرية والقضية المفصلية والمصيرية للشعب الجزائري، ألا وهي مسألة الاستقلال، واسترجاع السيادة الوطنية المسلوبة.

والتفصيل المطلوب واللازم لهذه القضايا الحساسة والجوانب الهامة من حركة ابن باديس الإصلاحية الجهادية، والتي تم عرضها في الفصل الثاني من البحث، استوجب إكماله بعرض أهم الوسائل والأساليب، التي اتخذها الإمام في جهاده ضد الاستعمار الفرنسي، وأهمية ونتائج هذه الوسائل والأساليب، التي أتاحتها الظروف والأحوال آنذاك. ولعرض هذا، تم تخصيص الفصل الثالث من البحث لها.

ثم بالضرورة المنهجية، وبعد عرض هذا، كان من الواجب ـ الذي اقتضته طبيعة البحث ومادته، ومن خلال ما توافر من معطيات ومادة علمية ـ إبراز موقف الاستعمار الفرنسي من جهاد ابن باديس ضده، وكيف قابلت الإدارة الاستعمارية حركة ابن باديس الإصلاحية الجهادية، سواء في مرحلة الجهاد الفردي منها، أو لما انتقلت هذه الحركة إلى المرحلة الثانية من مسارها؛ مرحلة الجهاد الجماعي المؤسساتي.

وحاولت إبراز التباين الذي طبع رد فعل الإدارة الاستعمارية من حركة ابن باديس؛ سواء عند بداية انطلاقها، أو بعد تطورها، واتضاح طبيعة مسارها، وانكشاف بعض أهدافها، خصوصاً الاستراتيجية منها، وخطورة ذلك على مشروعها الحضاري على المديين القريب والبعيد. وكيف أن هذه الإدارة سخرت مختلف الوسائل، واستعملت شتى الأساليب للتصدي بقوة لحركة ابن باديس،

حفاظاً على بقائها ومصالحها ومكتسباتها، التي حققتها في الجزائر، وحفاظاً على هيمنتها الثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية، على المجتمع الجزائري.

وهذا الموقف من الإدارة الاستعمارية، خصصت لعرضه الفصل الرابع والأخير من البحث.

ثم كانت الخاتمة، والتي تضمنت خلاصة البحث، وأهم النتائج التي توصل إلى كشفها، وحاول إبرازها، من خلال التتبع والدراسة والتحليل، والتي قامت في منهجها وخطواتها، على جمع واستقراء وتحليل ما توافر من مادة علمية، تناسبت وطبيعة الموضوع المدروس، وفصوله المكونة له.

هذه المادة العلمية، التي وفرتها بالدرجة الأولى، مصادر تلك الفترة التاريخية من تاريخ الجزائر الحديث والتي تتمثل أساساً في الجرائد والمجلات التي أصدرها ابن باديس، أو أصدرتها جمعية العلماء بعد تأسيسها، وكذا ما كتبه الشيخ محمَّد خير الدين في مذكراته؛ خصوصاً الجزء الأول منها، والتي طبعت طبعتها الأولى مؤخراً.

ثم بالدرجة الثانية، ما وفرته ـ من مادة علمية ـ المراجع التاريخية المختلفة، والكتابات التي لها صلة وثيقة بموضوع البحث؛ سواء من قريب أو من بعيد.

ورغم هذا الرجوع، إلى ما أمكن، وما توفر من مصادر ومراجع مختلفة، تتناسب وطبيعة موضوع البحث المدروس في هذه الرسالة، إلا أنه يجب الإقرار بالتقصير الكبير، في البحث والرجوع إلى مضامين التقارير الأمنية التي كانت تعدها يومياً الأجهزة الأمنية الفرنسية؛ والتي كانت ترصد فيها من خلال عيونها وتتبع المختصين في هذا المجال مختلف الأنشطة، والحركات الفردية والجمعوية، التي كانت تموج بها الساحة الوطنية آنذاك، والتي كان ـ من ضمن ما ترصده وتتبعه وتسجله أنشطة وحركة، وتنقلات ابن باديس المختلفة.

ولعل من الأسباب التي حالت دون الوصول إلى هذا النوع من المصادر الهامة لموضوع هذا البحث، وربما غيرها مما لم نطلع عليه، ولم نتعرف إليه، ولم نحقق الاستفادة الأساسية به، ما عشناه ـ وما زلنا نعيشه ـ من وضع أمني

قاهر وعصيب، مسنا من قريب، ومن بعيد، وانعكس بالسلب الكبير على نفسيتنا وتفكيرنا، وتنقلنا للبحث، وإجراء بعض اللقاءات والاتصالات الضرورية مع بعض أساتذة وشيوخ جمعية العلماء الذين ما زالوا ـ إلى يومنا هذا ـ على قيد الحياة. وكذا عدم تلقينا لبعض منها، أو لبعض الشهادات الحية، والمعطيات والمعلومات التاريخية الجوهرية، عن طريق رجال حركة ابن باديس ـ أساتذة، وتلامذة ـ الذين عاشوا معه، وكانوا من أقرب الناس إليه، وألصقهم به، وأعرفهم بحقيقة وأبعاد ما جرى وحدث آنذاك في فترة حركة ابن باديس الإصلاحية الجهادية.

هؤلاء الأساتذة والمشايخ، الذين اتصلنا ببعضهم شخصياً وبصعوبة كبيرة، أو راسلناهم وكاتبناهم، أو كلمناهم بالهاتف، وكل ذلك مراراً وتكراراً، ولكن ـ وبكل أسف عميق ـ دون أن نتلقى منهم ما سألناهم عنه، أو طلبناه منهم، فيما يخدم موضوع البحث، ويزيد جوانبه كشفاً وإيضاحاً وتعميقاً؛ سواء على مستوى التصور، أو على مستوى التحليل والدراسة؛ خصوصاً الجوانب القلقة منه؛ وذلك نظراً لما يمتلكونه بحوزتهم من معارف، ومعلومات جد هامة وأساسية، عن تلك المرحلة التاريخية عامة، أو عن ابن باديس خاصة.

هذا وقد خلص هذا البحث، من خلال ما توفر من مادة علمية، ومن خلال ما بذل فيه من جهد واجتهاد، يتناسب وطبيعة المنهج الذي التزمناه في إعداده، إلى جملة من النتائج، التي نراها هامة، ونعتبرها من أهم إنجازات هذا البحث؛ وذلك نظراً لجدتها ـ كما يبدو لنا ـ من جهة، ومن جهة ثانية نظراً لأننا نعتبرها ـ في الوقت نفسه، نقاطاً ومشكلات أثارها هذا البحث أمام الدارسين والباحثين، وهو يستثير هممهم واهتماماتهم ـ خصوصاً المتخصصين منهم في الميدان الذي ينتمي إليه البحث ـ، لمواصلة البحث فيها، وتعميق تحليلها ببحوث تاريخية أخرى.

ومن النتائج التي وصل إليها هذا البحث، ويُعتبر كاشفاً لها؛ ما يلي:

أولاً: أن حركة ابن باديس ـ في حقيقتها كما بين البحث ذلك ـ عملة ذات وجهين، وجهها الأول إصلاحي تربوي تعليمي، تغييري بصورة جذرية لأوضاع

المجتمع الجزائري المختلفة؛ العقلية والنفسية والسلوكية؛ من خلال إعادة بناء الإنسان الجزائري، وصياغة شخصيته من جديد وفق إسلام ذاتي، يرقى به إلى مستوى إسلامه أولاً. ويؤهله ثانياً لمواجهة ورد العدوان الجاثم فوق صدره. وهذا هو الوجه الثاني لحركة ابن باديس، والمتمثل في البعد الجهادي ضد الاستعمار الفرنسي.

ثانياً: أن هذه الحركة الإصلاحية الجهادية لابن باديس، لم تبدأ مع تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ٥ أيار ١٩٣١م، وإنما كان لها قبل ذلك عمر جهادي آخر، امتد على مدى ثماني عشرة سنة، ابتداء من سنة ١٩١٣م، سنة استقرار ابن باديس بقسنطينة، وانتصابه للتعليم بمساجدها المختلفة. وكيف أن هذه المرحلة الفردية من حركة ابن باديس الإصلاحية الجهادية، كانت بمثابة الأساس الذي قام عليه تأسيس مؤسسة جمعية العلماء فيما بعد. ولولاه لاستحال التأسيس؛ انطلاقاً من لا شيء سابق.

ثالثاً: أن حركة ابن باديس الإصلاحية الجهادية، ومن خلال تصريح ابن باديس بذلك، وتأكيده عليه لإخوانه العلماء، وتلامذته الطلبة مراراً وتكراراً، كانت بمثابة جهد منظم مخطط منهجي؛ يسعى إلى إنجاز مشروع حضاري جليل، يتمثل في إعادة بناء أمة؛ بناءً متكامل المنطلقات والأبعاد، والمراحل والأهداف. وإن تصور ابن باديس لحركته الجهادية كان من هذا المنطلق، ووفق هذه الخطة الاستراتيجية البعيدة المدى، والعميقة الأبعاد.

هذا المشروع كان يرى ابن باديس أن هدفيه الأساسيين هما:

أولاً: المساهمة في إخراج الشعب الجزائري ـ خاصة ـ من وهدة التخلف الحضاري.

وثانياً: تأهيل الشعب الجزائري، لاسترجاع سيادته الوطنية، كاملة غير منقوصة.

ولا يسعني في الأخير، إلا أن أتقدم ببالغ التشكرات، وأسمى آيات العرفان بالجميل لكل من ساعد، ومد يد العون من قريب أو من بعيد؛ لإنجاز هذا البحث وإكماله، في أي مرحلة من مراحل إعداده، وإخراجه في صورته النهائية

هذه؛ ابتداء بأفراد الأسرة، وانتهاء بالأخوة الأفاضل؛ الذين أشرفوا على طبعه وإخراجه النهائي.

كما أخص بجزيل التقدير الأستاذين الفاضلين، اللذين أشرفا على هذا البحث منذ أن كان فكرة، إلى أن صار كتاباً؛ وأقصد بذلك: أولهما الدكتور محمَّد الخاروف. الذي كان له الفضل الأول في وضع خطة هذا البحث، وتشجيعي على البحث فيه، وجمع مادته. وأرشدني إلى ما يجب الانتباه إليه في هذه المراحل الأولى من إعداد البحث العلمي عامة، وهذا البحث خاصة.

وثانيهما الدكتور عبد الرَّحمن عمر الماحي؛ الذي تفضل مشكوراً ببالغ الشكر على قبول الإشراف الثاني على البحث، وهو في مرحلة الصياغة الأولى؛ فرعاه بملاحظاته القيمة، وعدله بتوجيهاته الدقيقة العميقة، حتى كان في نهاية مطاف البحث، وبعد إجراء المراجعات والتعديلات اللازمة، على هذه الصورة، التي خرج بها للمناقشة.

وبتوفيق من الله، وتيسير منه، يطبع اليوم هذا البحث وينشر في طبعته الأولى، حتى يقف القراء والباحثون على المهمتين الجليلتين والجسيمتن اللتين نذر الإمام عبد الحميد بن باديس حياته للقيام بهما وهما :

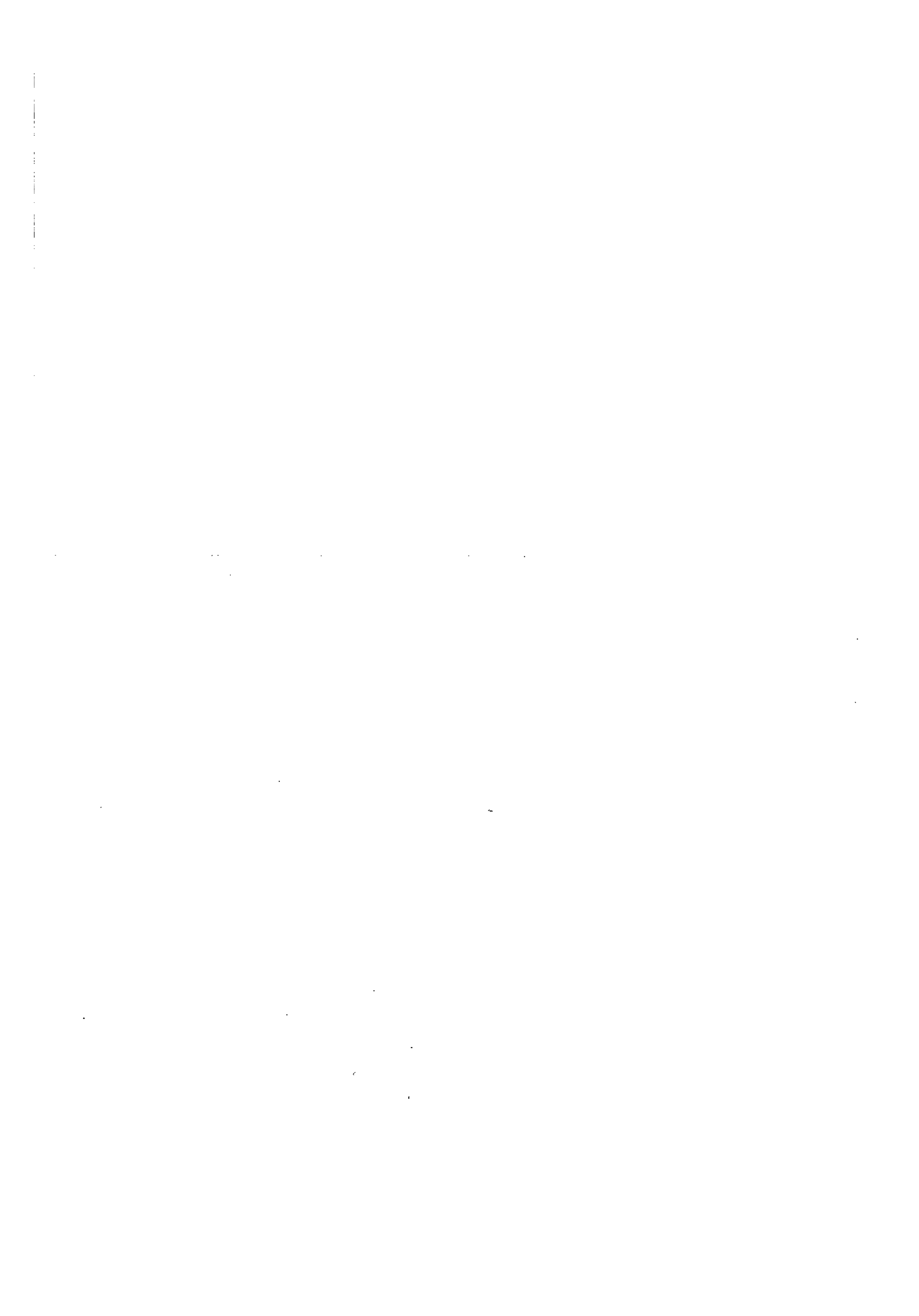
أولاً : ضرورة تقديم أقصى الجهد للمحافظة على مقومات الشخصية الإسلامية والوطنية للشعب الجزائري من خطر التذويب والطمس الفرنسي التغريبي لهما .

ثانياً : وجوب إعادة الأمة الجزائرية إلى حلبة التاريخ، وإعدادها لمواجهة العدوان؛ حتى تسترجع سيادتها الوطنية السلبية .

فالله أسأل أن يحقق النفع به ، ويهدينا صراطه المستقيم في كل أعمالنا ، إنه هو السميع .

دمشق: ١ربيع الأول ١٤٠٢

١٤ حزيران ١٩٩٩



التمهيد:

الوضع في الجزائر قبيل جهاد ابن باديس

افتعلت فرنسا لاحتلالها الجزائر، مبرر الرد على إهانة الداي لقنصلها دوفال، وأنزلت جيوشها بسيدي فرج، بعد حصار بحري استغرق ثلاث سنوات، لترغم بذلك المقاومة العثمانية والجزائرية على قبول الهزيمة، والتقهقر نحو الداخل. وليمضي فيما بعد الداي حسين اتفاقية الاستسلام والتسليم؛ التي يتعهد فيها المريشال «دوبورمون» قائد القوات المحتلة بأن «إقامة الشعائر الدينية المحمدية تكون حرة، ولا يقع أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات، ولا بدينهم ولا بأملاكهم، ولا بتجارتهم وصناعتهم، وتحترم نساؤهم. والقائد العام يتعهد بذلك عهد الشرف»(١).

وتظاهر الاحتلال الفرنسي بشعارات براقة، خادعة للرأي العام في الجزائر وخارجها، يشير في مضمونها العام بأنهم ما جاؤوا للجزائر إلا من أجل تحرير الجزائريين من الاستعمار العثماني وتحضيرهم. ليخفوا بذلك أهدافهم الاستراتيجية الحقيقية، التي يعتبرون بموجبها الجزائر أرض شعب متخلف، يجب أن تخضع لسلطان جبار متحضر. وفي هذا يقول أحد قادتهم: «نحن الإفرنسيين مقيمون في ديارنا بالجزائر، فقد أصبحنا سادة هذه البلاد بالقوة؛ لأن الغزو لا يتحقق إلا بالقوة، التي تفرض وجود طرفين غالب ومغلوب. وقد أمكن تنظيم البلاد عندما تم قهر المغلوبين. وهذا التنظيم يفرض مرة أخرى فكرة تفوق

(١) أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص: ٤٨.

الغالب على المغلوب، وتفوق الإنسان المتحضر على الإنسان المتخلف. فنحن إذن أصحاب البلاد الشرعيين»[1].

ورؤيتهم هذه للجزائر، مبنية على اعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية ليس إلا، يفصلها عنهم نهر لا بحر، شأنها في ذلك شأن مقاطعة لابروطاني والألزاس وكورسيكا. ونصوا على هذا في دستور الجمهورية الثانية الفرنسية في المادة ١٠٩ منه، والذي صدر في ٤ تشرين الثاني ١٩٤٨م؛ بأن الجزائر أرض فرنسية.

وتمثلت أهداف احتلالهم الاستراتيجية للجزائر، في العودة إلى هذه البلاد التي كانوا في يوم من الأيام، محتلين لها بقوة الحديد والنار طيلة قرون. يصرح بذلك أحد قساوستهم فيقول: «إن الحجارة الصامتة في قرطاجنة وتيمفاد وجميلة وتيبازة تستغيث بنا اليوم، ورغم الموت الذي يهددها فإنها تصلي للإله بصمتها ذلك قائلة: إلى متى يا رب؟! وما وجودنا نحن المبشرين هنا على هذه الأرض إلا لنجعل من هذه الصلاة عملاً مرئياً»[2]. فهو حنين قوي لمواصلة مسيرة أجدادهم الرومان المحتلين، اختلق أسباباً مواتية، واستغل ظروفاً سياسية واقتصادية واجتماعية، كانت تمر بها فرنسا قبيل شنها للغزو، لتوظف كل ذلك في استراتيجية محكمة تهدف على المدى البعيد، تحقيق هدف تغريب شعب وأرض، كما يقول مؤرخهم السيد (فونتيي) مصرحاً بالرؤيا البعيدة لاحتلالهم «حاولنا في الجزائر أن نجعل من أرض شرقية أرضاً غربية»[3]. ويشرح الأستاذ فرحات عبّاس هذه الشهادة التاريخية الهامة «بأن أوروبا حاولت في الجزائر أن ترجع قطعة من العالم العربي أوروبية»[4]. وفي حالة الفشل التام في تحقيق هذا الهدف الكبير البعيد المدى، فعلى الأقل العمل على خلق مجتمع جديد خليط؛ لا هو مسلم عربي، ولا هو فرنسي أوربي، يستأصل من الانتماء للأول ولا

---

(١) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، ص: ٦٣ ـ ٦٤ وانظر أيضاً: عبد الرّحمن بن إبراهيم بن العفون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، ج١، ص:٣٣٣.

(٢) د. محمّد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، ج١، ص: ١٣٩.

(٣) فرحات عبّاس: ليل الاستعمار، ص: ٢٤.

(٤) فرحات عبّاس: المرجع نفسه، ص: ٢٤.

يلحق بالثاني، مجتمع بلا انتماء لغوي أو ثقافي أو ديني، أو تاريخي حضاري.

وعلى هذا الأساس «كان الفرد الجزائري حين يقول إنه جزائري، يجيبه القضاة الفرنسيون والمسؤولون الفرنسيون بـ: لا، إنك فرنسي. ولكن حينما يطالب بحقوق المواطن الفرنسي يجيبه نفس القضاة والمسؤولين بـ: لا، إنك عربي»[١]؛ وذلك لأن هذا الجزائري في رؤيتهم الاحتلالية، ليس إلا إنساناً يعيش في وطن ملحق بوطنهم الأصلي، ويجب أن يتبع الفرع لأصله في جميع الأمور والشؤون «فالأرض الجزائرية تشكل جزءاً مكملاً لفرنسا، ويجب عليها أن تعيش نفس نمط الحياة التي تعيشها . . . المبادرة في الجزائر، والقرار في باريس. التنفيذ في الجزائر، والمراقبة في باريس.»[٢]. هذه الرؤية الحضارية لطبيعة العلاقة والصراع، الذي دارت رحاه في الجزائر بعد دخولهم إليها محتلين، كانت تتوارثه أجيالهم جيلاً بعد جيل، على مدى فترة احتلالهم كله وبعدها. وفي هذا نجد لويس لافي؛ وهو من الجيل الرابع من المستوطنين الفرنسيين بالجزائر، يقول في كتابه (المأساة الإفريقية): «يجب أن يفهم كل فرنسي، أن هذا الكفاح الذي يخوضه إخوانه في الجزائر، لا يستهدف إلا الدفاع عن الوطن الأب المشترك، وحماية الحضارة المسيحية على أوسع نطاق ومعنى لهذه الكلمة على تربة إفريقيا.»[٣].

ونجد هذه الرؤيا الحضارية لاحتلالهم واضحة وبادية في تصريحات وشهادات كبار مسؤوليهم السياسيين، والقائمين على المؤسسات الدينية والثقافية والعلمية والفكرية. فيعبر مثلاً وزير الخارجية الفرنسي السيد بيدو عن مضمون الرؤية قائلاً: «إنني لن أترك الهلال ينتصر على الصليب»[٤]، وكأنه أراد أن يقول بمفهوم العبارة: «يجب أن نوقف الإسلام عند حده»[٥].

---

(١) مجلة الثقافة: س ٤، ع ٨١، ص: ٢٠٠.

(٢) Colette et Francis Jeansan: Lalgerie hors la loi, P: 60.

(٣) جوان جيليسبي: الجزائر الثائرة، تعريب خيري حماد، ص: ٢٤.

(٤) مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص: ٥٦.

(٥) مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص: ٥٦.

وظهرت بشكل مكشوف من خلال تصريحاتهم، أهدافهم الكبرى من احتلال الجزائر، في الاحتفال المئوي الضخم، الذي أقاموه بمناسبة مرور مائة سنة على احتلالهم.

فيقول الكاردينال «لافيجري»: «إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى الأبد». ويقول آخر: «إن احتفالنا اليوم ليس احتفالاً بمرور مائة سنة على احتلالنا الجزائر، ولكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام»[١].

ويعتبر كبير الأساقفة الفرنسيين بالجزائر الاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال «احتفالاً بدخول المسيحية من جديد إلى إفريقيا الشمالية»[٢].

هذا الدخول الذي حمل في عمقه بعداً حضارياً، وبعداً ثقافياً، بحكم أنهم أعلنوا منذ دخولهم محتلين «أنهم قد افتتحوا الجزائر عنوة، وأنهم افتكوها من الحضارة الإسلامية، وأعادوها إلى الحضارة الرومانية، التي ينتسبون إليها»[٣].

وهكذا، ووفق هذه المنطلقات، وصوب تحقيق هذه الأهداف الكبرى لمشروعهم الحضاري الصليبي، وصوب تحقيق أهداف ثانوية ارتبطت بها، واستغلت أحسن استغلال لتحقيق هذا المشروع الكبير، والتي تمثلت في التخلص من تبعة الديون وربقتها المستحقة للجزائر عليهم، والتخفيف من حدة الأزمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخانقة التي كانت تمر بها بلادهم، عشية إقدامهم على احتلال الجزائر، ومن أجل تدمير دولة «كل وجودها مصدر إحراج لأوربا خلال ثلاثة قرون»[٤].

من أجل كل هذا جاء الاستنفار العام لكل فرنسي وأوربي، يريد أن يصير معمراً ومستوطناً بالجزائر، والذي وجهه الجنرال «بوجو» في مجلس النواب

---

(١) محمَّد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية من ١٨٣٠إلى ١٩٥٤، ص: ١٠٩.

(٢) محمَّد خير الدين: مذكرات، ج ١، ص: ١١٠ ـ ١١١.

(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج ٢، ص: ٣٢٤.

(٤) فرحات عبَّاس: ليل الاستعمار، ص: ٧٦ ـ ٧٧.

الفرنسي بتاريخ ١٦ كانون الثاني ١٨٤٠، والذي قال فيه: «إننا في حاجة إلى جحافل دهماء من المعمرين الفرنسيين والأوروبيين. ولكي تجلبوهم من اللازم عليكم أن تعطوهم أراضي خصبة لا يطير غرابها، أينما وجدتم مياها متدفقة، وأراضٍ ومراعٍ، فأنزلوا بها المعمرين، ولا يهمكم أمر أربابها. يجب توزيع هذه الأراضي للأوروبيين، حتى يصبحوا أصحابها وأربابها، ويصير أربابها الأولون نسياً منسياً»[١].

حتى وهو يعلن عن الأهداف الظاهرية لغزوهم، لا ينسى التذكير والكشف عن الهدف البعيد والعميق لهذا الاحتلال فيقول: «وأخيراً يجب علينا أن نجعل نصب أعيننا هدفاً متيناً محكماً، أن ننشىء إقليماً فرنسياً. ولذا فإننا في أمس الحاجة إلى غزو واسع النطاق، يشبه غزوات (القوط)[٢]. وإن لم نفعل هكذا، تكون نتيجتنا أهوى من نسيج العنكبوت»[٣].

ونشير هنا أنه لم يكن يهمهم - إطلاقاً - في سبيل تحقيق أهدافهم، ما ينتج ويترتب من نتائج سلبية مأسوية على الجزائريين، وأرضهم وأملاكهم ودينهم ولغتهم. ويكفينا تدليلاً على ذلك ما صرح به الجنرال «روفيفو» أحد قواد جيش الاحتلال، عندما قال: «ما بأيدينا إلا إقصاؤهم في الفيافي والقفار، واستبعادهم كما تستبعد الوحوش من الأماكن الآهلة، ويتحتم عليهم حينذاك أمام اتساع رقعة استيطاننا وتعميرنا، إلا التقهقر نحو الصحاري والمغاور»[٤].

ولقد صور تقرير اللجنة الإفريقية سنة ١٨٣٣م، الذي رفع إلى الحكومة الفرنسية، التي كانت قد كلفت اللجنة في التحقيق فيما يشكو منه الجزائريون، ما ارتكبه جنود وقادة الاحتلال. وسجل ما تعرضوا له من اعتداءات على قيمهم وأشخاصهم وأشيائهم وممتلكاتهم، فجاء فيه «. . .لقد اغتصبنا ممتلكات

---

(١) فرحات عبّاس: المرجع نفسه، ص: ٧٦ - ٧٧.

(٢) القوط: «هم شعب رئيسي من الشعوب الجرمانية القديمة، زحفوا على جنوب بلاد الغال وشمال إسبانيا سنة ٤١٠م، ووسعوا ممتلكاتهم الإسبانية على حساب الوندال» محمّد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، ج٢، ص: ١٤٠٨.

(٣) فرحات عبّاس: ليل الاستعمار، ص: ٧٦ - ٧٧.

(٤) فرحات عبّاس: المرجع نفسه، ص: ٧٧.

الأحباس، وحجزنا ممتلكات سكان، كنا أخذنا العهد على أنفسنا بأن نحترمها. اغتصبنا ممتلكات شخصية بدون أي تعويض، بل سولت لنا أنفسنا أكثر من ذلك، فأرغمنا أرباب الأملاك التي انتزعناها منهم نزعاً، أن يؤدوا بأنفسهم مصاريف هدم منازلهم، وحتى مصاريف هدم مسجد من مساجدهم. قد قتلنا أناساً كانوا يحملون رخص التجول، وذبحنا سكان مدن وقرى مشكوك فيهم، وظهر فيما بعد أنهم كانوا أبرياء. فحاكمنا رجالاً مشهورين في البلاد بورعهم وتقواهم، ورجالاً محترمين، لا ذنب لهم إلا أنهم تشفعوا لدينا دفاعاً عن أبناء جلدتهم، وتعرضوا لبطشنا وباؤوا بغضبنا، ووجدنا منا رجالاً حكموا عليهم، ورجالاً نفذوا فيهم الحكم بالإعدام»[1].

أولاً: وسائل وأساليب الاستعمار الفرنسي في الجزائر:

اعتمد الاحتلال الفرنسي سياسة التوسع الجزئي والتدريجي داخل الجزائر، وسياسة المرحلية، في سبيل تحقيق أهداف مشروعه الحضاري الصليبي.

وانتهج في سبيل ذلك وسائل وأساليب متنوعة ومختلفة، تتناسب والوصول إلى أهدافه، وتتلائم وطبيعة المجتمع الجزائري، وخصوصية التعامل معه. ويمكن تحديد مجموعة من الوسائل، وجملة من الأساليب التي اعتمدها الاحتلال الفرنسي، في محاولاته لبسط نفوذه وهيمنته الحضارية والعسكرية والثقافية، والتي نستطيع تركيزها في النقاط التالية.

١ ـ تهجير الفرنسيين والأوربيين للاستيطان بالجزائر:

فبعد أن يتم الاستيلاء على الأرض أولاً بالجيش والقوة، ويتم دحر كل

---

(١) د.أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج ٢، ص: ١٨، وانظر: عبد الرّحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج ٤، ص: ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
وللتفصيل أكثر حول اللجنة الإفريقية، انظر د.سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ص: ٩٧ ـ ١٣٢.
وانظر جرائم الاحتلال البشعة مرفوقة بشهادات واعترافات رجال الاحتلال أنفسهم عند فرحات عبَّاس، مرجع سابق من ص: ٦٨ إلى ص: ٩٣. وعند روجيه غارودي: حوار الحضارات، ترجمة د. عادل العوا، من ص: ٦٧ إلى ص: ٧٨.

مقاومة وجدت في الطريق. يبدأ العمل والإعداد لتوطين المهجّرين من أوربا عامة وفرنسا خاصة، في هذه الأراضي التي اغتصبت من أصحابها عنوة.

وبالفعل فقد هاجرت جحافل كبيرة من المهجّرين للاستيطان بالجزائر، في خيرة وأخصب الأراضي والمواقع. فنجد ارتفاعاً مذهلاً ومروعاً في نسبة هذه الهجرة وحجمها؛ إذ ارتفع عدد القائمين بها «من ١١٩٠٠٠ نسمة في عام ١٨٧١م، إلى نحو ٢٠٠٠٠٠ في عام ١٩٠٠م»[١].

ورغم هذا العدد الهائل من المعمرين الذي جلب للاستيطان بالأراضي المحتلة، فإن الإدارة الاستعمارية لم يكفها ذلك، فعمدت في ٢٤ تشرين الأول ١٨٧٠م إلى إصدار قانون تجنيس اليهود بالجنسية الفرنسية، والذي عرف فيما بعد باسم قانون وزير العدل اليهودي الأصل (كريميو). وبموجب هذا القانون، منحت فرنسا يهود الجزائر صفة المواطن الفرنسي، مما مكن من تجنيس حوالي ٣٠٠٠٠ يهودياً[٢].

ولم تفتح فرنسا باب الهجرة إلى الجزائر أمام الفرنسيين فقط، وإنما أمام كل أوربي يرغب في الهجرة والاستيطان. وحتى لا يحصل تفوق لحاملي الجنسيات الأخرى على حسابهم؛ أصدروا قانوناً في ١٨٨٩م يفرض التجنس بالجنسية الفرنسية على جميع أبناء الأجانب الذين لا يرفضونها. وبهذا الشكل أحرزت الجنسية الفرنسية تفوقاً عددياً؛ ففي عام ١٨٨٦م كان عدد الفرنسيين ٢١٩٠٠٠، وعدد الأجانب ٢١١٠٠٠. وفي عام ١٨٩٦ كان عدد الفرنسيين ٣١٨٠٠٠ منهم ٥٠٠٠٠ متجنساً، وعدد الأجانب ٢١٢٠٠٠.

وكان عدد الفرنسيين في عام ١٩٠١م ٣٦٤٠٠٠ منهم ٧٢٠٠٠ متجنساً، وعدد الأجانب ١٨٩٠٠٠»[٣]. وتتواصل عملية الهجرة والاستيطان بشكل مريع؛ ليصل العدد حسب إحصاء ١٩١١م إلى ما يلي: «٧٥٢٠٠٠ فرنسياً ومتجنساً وأجنبياً.

---

(١) شال روبير آجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ص: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) د. محمّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٣٦٧.

(٣) شارل روبير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ص: ٩٣.

ويصل في سنة ١٩٣٦م إلى ٨١٩٠٠٠ فرنسياً ومتجنساً، و ١٢٧٠٠٠ أجنبي»[١].

أي أنه بعد مرور قرن من الاحتلال والاستيطان «بلغ عدد هؤلاء المعمرين مليوناً من الأفراد، يمثلون عشر سكان الجزائر»[٢]. كل هذا العدد الضخم من المعمرين، تم إسكانهم ومنحهم أحسن وأخصب الأراضي التي يملكها الجزائريون، بما فيها أراضي الأوقاف الإسلامية؛ وذلك عن طريق الاستيلاء عليها قوة وعنوة، وإخراج وإبعاد أصحابها وأربابها منها. وبالفعل فقد «تمكنت الإدارة الاستعمارية فيما بين ١٨٨٧م و ١٨٨٩م من الاستيلاء على ٩٥٧ ألف هكتار بصفة مجانية، كانت ملكاً لأكثر من ٢٢٤ قبيلة ... وتم تسليم ١٢٠٠٩٧ هكتاراً إلى مهاجرين أوربيين فيما بين ١٨٩١م و١٩٠٠م. وبذلك وصل مجموع ما سلم للمهاجرين الأوربيين خلال ثلاثين عاماً ٦٨٧ ألف هكتار؛ أي ما بين ١٨٧١م - ١٩٠٠م»[٣] «ليصل ما يملكونه في عام ١٩٣٠م إلى ٢٣٥٠٠٠٠ هكتار و ٢٤٦٢٥٣٧ هكتار في عام ١٩٣٤م»[٤].

ولم يتوقف عمل المعمرين على حيازة الأراضي، واستغلالها واستغلال من فيها خَدَماً لصالحهم فحسب، بل تعدى ذلك إلى العمل على التحكم في كل أمر داخلي وخارجي يخص الجزائر؛ ليبسطوا نفوذهم وهيمنتهم عليه «وليس هناك من ينكر أن الكولون المعمرين، هم الذين يشرفون على كل وسائل الإنتاج ورأس المال والتجارة الخارجية والداخلية. كما كانوا يشرفون على الميزانية؛ لأنهم كانوا يملكون أغلبية الأصوات في المجالس المحلية»[٥]. ليحصلوا في نهاية المطاف، وفي سنة ١٩٠٠م على استقلالهم المالي كخطوة أولى نحو الحصول - المستقبلي - على الاستقلال السياسي.

---

(١) فرحات عبَّاس: ليل الاستعمار، ص: ٩٦ - ٩٧.

(٢) محمَّد خير الدين: مذكرات، ص: ٣٢٤.

(٣) د.يحيى بو عزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠ - ١٩٥٤، ص: ٣٤ - ٣٥ وشارل روبير أجيرون: مرجع سابق. ص: ٨٧.

(٤) شارل روبير أجيرون: مرجع سابق، ص: ٩١.

(٥) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج ٢، ص: ٩٥ - ٩٦.

وتجاوزوا ذلك، إلى اعتبار أنفسهم أصحاب الحكم الحقيقيين في الجزائر، فتغلغلوا بصورة مباشرة وغير مباشرة في جميع أجهزة الإدارة وتحكموا فيها، «وسيطروا على الميادين الإدارية والسياسية، وأصبحت مصالحهم تراعى قبل مصالح الدولة الفرنسية، وتوصلوا إلى وضع يدهم على شؤون العدلية والأمن العام والصحافة، ورؤساء الأقسام وكبار الموظفين في الولاية العامة. ومن ثم أصبحوا يتحكمون في اتجاه الوالي العام نفسه»[1].

وعمدوا إلى أسلوب لإحكام قبضتهم على الوالي العام. الذي ترسله الحكومة الفرنسية إلى الجزائر حاكماً عاماً فيها. «فعندما يعين والي عام جديد، تنطلق صحافتهم الاستعمارية في إغراقه بالمدح والترحيب، ويشعرونه في الوقت نفسه بقوتهم؛ حتى يصبح الوالي سجين فكرة ثابتة؛ وهي: أنه إذا حاول أن يعارض هذه القوة أو يقف في وجهها، فإنه هو الذي سيتحطم على صخرتها»[2].

وخير دليل على ذلك «مساعيهم الحثيثة ضد الوالي العام موريس فيوليت ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧م، حتى أبعدوه عن الولاية العامة، ونصبوا مكانه معمراً حاقداً، يدعى بياربورد ١٩٢٧م ـ ١٩٣١م»[3].

وهكذا تحول الاستيطان الفرنسي خاصة، والأوربي عامة في الجزائر، إلى حكومة ودولة تسعى للاستقلال عن الدولة الفرنسية الأم، بل وتقف فيما بعد في وجه منح الاستقلال للشعب الجزائري، وترفض الخروج من الجزائر ومغادرتها، وترك ما حققته واستحوذت عليه فيها طيلة قرن وربع قرن، وأصبحوا «بعد مرور عدة أجيال ينظرون إلى الجزائر، على أنها وطنهم الأصيل»[4]. تحكمه برجوازية متضخمة، تملك ما تشاء، وتفعل ما تشاء. «فهذا هنري بورغو الذي يلقب بملك

---

(١) د. عبد الله شريط، محمَّد مبارك الميلي: مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي، ص: ٢٧٥.

(٢) د. عبد الله شريط، محمَّد مبارك الميلي: المرجع نفسه، ص: ٢٧٥.

(٣) د. محمَّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٢٩٥.

(٤) صلاح العقاد ـ الجزائر المعاصرة ـ ص: ٩.

الخمور في الجزائر، بالنسبة إلى سعة ما يملكه من كروم، أو جورج بلاشيت ملك الحلفاء؛ الذي يملك مئات الأفدنة من الأراضي، التي تزرع فيها حشائش الحلفاء»[1].

وتنظر إلى الشعب الجزائري بعين الاحتقار والازدراء، وتعتبره عبيداً وخدماً طيعين لها ولمصالحها الاستعمارية، ولبسط نفوذها وهيمنتها، وإحكام سيطرتها. ويعتبرونه جنساً بشرياً «منحطاً لا يصلح إلا للأعمال الشاقة بدون أجرة. وهذا الاعتقاد منهم، هو الذي جعلهم يثورون على فتح المدارس للأهالي. إنهم يعتبرون الأهالي غير جديرين إلا بالإرهاق والقهر»[2].

٢ ـ إرهاق الشعب الجزائري بالضرائب:

لقد عمدت إدارة الاحتلال الفرنسي إلى فرض غرامات وإتاوات كثيرة وكبيرة، من غير مبرر ولا سبب، على مجموع الشعب الجزائري وممتلكاته وأراضيه، ونتيجة لهذا كان لزاماً على الجزائريين «أن يدفعوا ١٤ مليوناً من الضرائب العربية، و ٢٣ مليوناً من الضرائب إجمالاً في عام ١٨٧٠م. ودفعوا في أعوام ١٨٨٥م ـ ١٨٩٠م: ٤٠٨٠٠٠ فرنكاً وسطياً في السنة؛ منها ١٩ مليوناً فرنكاً في باب الضرائب العربية. ورغم ازدياد السكان، ومن جراء افتقار المسلمين، لم يكن بلوغ هذه المعدلات قبل أعوام ١٩٠٧م ـ ١٩١٤م ممكناً، و ٤٥ مليون فرنك في عام ١٩١٢م. وفي مطلع القرن العشرين كان الجزائريون «يدفعون من الضرائب المباشرة ضعف ما يدفعه الأوربيون؛ يدفعون ٤٦٪ من الضرائب التي تجبى في الجزائر»[3]، وهذه الجباية الضخمة من الضرائب والأتاوات التي تحصل عليها إدارة الاحتلال، كانت تشمل كل شيء يملكه الجزائري، أو يصدر عنه «كالتلفظ بعبارات معادية لفرنسا، ورفض السخرة أو العمل في المزارع الأوربية أثناء الحصاد، أو إحداث أي نوع من أنواع الشغب، أو مخالفة التقاليد المهذبة كالبصق في الطريق العام، وبعض المخالفات الأخرى؛

(١) جوان جيليسبي: الجزائر الثائرة، ص: ٢٢.
(٢) د. عبد الله شريط ومحمَّد الميلي، مختصر تاريخ الجزائر، ص: ٢٧٣.
(٣) شارل روبير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ص: ١٠٩ ـ ١١٠.

مثل عدم الإذعان لأوامر القواد (العمد)، والتأخر في دفع الضرائب، وعدم تسجيل المواليد والوفيات، وفتح المدارس الدينية بدون إذن...»[1].

٣ ـ قانون الأهالي «الأنديجينا»:

ويتضمن سلسلة من القوانين التعسفية التي أصدرتها الإدارة الاستعمارية ابتداء من سنة ١٨٧٤م، أي بعد القضاء على ثورة المقراني عام ١٨٧١م، ودعمت ووسعت مرتين الأولى سنة ١٨٩٠م، والثانية عام ١٨٩٧م.

وهي قوانين جاءت كمحاولة من الاستعمار «لقتل المقاومة عند الشعب، وإخضاعه عن طريق تمكين القانون الفرنسي من تسليط العقوبات، التي يراها مناسبة»[2]؛ من سجن أو مصادرة للأملاك، أو ضرب وشتم، أو تغريم من غير محاكمة، أو حكم قضائي يستوجب ذلك؛ لأن المسؤولين الإداريين وسلطة الوالي ورجال القضاء والشرطة، لهم الصلاحيات المطلقة في ممارسة ذلك وتطبيقه.

ومن المخالفات التي يعاقب فاعلها، ومرتكبها بشتى أنواع العقوبات، والتي تضمنتها سلسلة قانون الأهالي ما يلي:

- التلفظ بعبارات معادية لفرنسا.
- رفض العمل في المزارع الأوروبية.
- السكن خارج القرية، أو الدوار بلا إذن خاص.
- التنقل من غير رخصة.
- فتح مدرسة لتعليم القرآن أو اللغة العربية، أو أي مقر لذلك.
- عدم الانصياع لأوامر القواد والجند.
- رفض إعطاء أي معلومات، تطلبها الإدارة الاستعمارية[3].

---

(١) د. صلاح العقاد: الجزائر المعاصرة، ص: ١٥.
(٢) محمَّد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: ٤٠ ـ ٤١.
(٣) للتفصيل انظر: أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص: ٣٢٥.

وعموماً كانت قوانيناً «ضيقت الخناق على هذه الأمة، وأخمدت أنفاسها، وجعلتها تعيش في جو مظلم وحالة ضغط يصعب تصورها، وقلما يستطيع العقل تصديقها»[1]. وقد تم إلغاء بعضها تدريجياً؛ ابتداء من سنة ١٩١٤م ثم ١٩٢٧م، ثم ١٩٣١م وأخيراً في ١٩٤٤م.

٤ ـ مصادرة أملاك الأوقاف والاستيلاء عليها:

كان الاحتلال الفرنسي يعلم مسبقاً عمق وشدة تمسك الشعب الجزائري بحصنه الحصين، ودرعه المتين الواقي له من كل اعتداء وعدوان، الإسلام. وتأكد له ذلك بعد دخوله غازياً قاتلاً مدمراً، من خلال استماتة الشعب في رد العدوان، والحفاظ على هويته وإسلامه، خصوصاً وأن كل حركة، وكل ثورة، وكل انتفاضة، وكل موقف باسل، كان وقودها ومحركها في النفوس الإسلام ومؤسساته، «ولكي يتفادى الفرنسيون الانتفاضات والثورات والمعارضة السياسية والمعنوية، عمدوا إلى السيطرة على كل المؤسسات الدينية»[2].

وكانت أولى المؤسسات الإسلامية الاجتماعية الخيرية، التي سعى الاستعمار للسيطرة عليها ـ بعد مؤسسة المسجد ـ مؤسسة الأوقاف وأملاكها، والتي كانت مصدر خير كبير ونفع عظيم، على مجموع الأمة وعلمائها، وطلبة العلم.

وأول خطوة اتخذها في هذا المجال إصداره لقرار ٨ أيلول ١٨٣٠م؛ والذي بمقتضاه تم الاستيلاء على جميع أملاك الأوقاف الإسلامية في المناطق التي احتلوها، رغم وعودهم الكاذبة بعدم المساس بمقدسات الأمة ورموزها؛ من مساجد وأوقاف وعلماء، وكتاتيب قرآنية وزوايا.

وواصل تدميره لمؤسسة الأوقاف الإسلامية، بإصداره في ٧ كانون الأول ١٨٣٠م لقرار آخر، أعطى من خلاله الحق والشرعية لنفسه في أن يتصرف في أملاكها بالتأجير والكراء، والمصادرة والتمليك وغير ذلك. ونتيجة لذلك «لم يبق

---

(١) مجلة الثقافة: س ٤، ع ٢١، ص: ١٢.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث، ج ٢، ص: ١١٢.

بالعاصمة وحدها سوى أربعة مساجد من بين ١٦٠ مسجداً وزاوية، حولت كلها إلى كنائس ومراكز للشرطة، وإصطبلات لخيول الحرس المتجول»[١]. ويصرح (دي توكفيل) مبيناً فعلهم الشنيع في حق الأوقاف، فيقول: «لقد وضعنا أيدينا في كل مكان على هذه الأملاك (الأوقاف)، ثم وجهناها غير الوجهة التي كانت تستعمل فيها في الماضي، لقد عطلنا المؤسسات الخيرية، وهكذا تركنا المدارس تموت، والندوات العلمية تندثر»[٢].

وأحكموا قبضتهم على المساجد وأئمتها، حتى لا تبقى مراكز إشعاع، وجمع لشمل الأمة وتوجيه لها، ودفع لها لجهاد الكفار المعتدين. وتحقيقاً لذلك «أسندت إدارة التصرف في المساجد والمكاتب، إلى أفراد بارعين في الكيد والدس»[٣].

ولم يكن في ـ الغالب ـ يحصل إمام أو مدرس، أو خطيب على القيام بشؤون مسجد، وإمامة الناس فيه، وتعليمهم الإسلام ولغته، إلا إذا أظهر ولاءً كبيراً، أو طاعة عمياء للإدارة الاستعمارية. يقول مدير مكتب الشؤون الإسلامية في الجزائر: «لقد أذللنا الدين الإسلامي، وبلغ الأمر أن لا يعين إمام أو فقيه؛ إلا إذا شارك في أعمال الجاسوسية الإفرنسية، ثم عليه كي يرتقي في الدرجة، أن يثبت قدراً كبيراً من الحماسة والإخلاص، للإدارة الفرنسية»[٤].

٥ ـ محاصرة اللغة العربية:

لقد كانت واضحة الأهداف الاستراتيجية للمشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر، فهو لم يأت ـ فقط ـ لتحقيق هدف اقتصادي موقوت، وإنما ليزيل أمة من الوجود، بمحو هويتها ومقومات شخصيتها، ويضرب عليها جداراً حديدياً يعزلها داخلياً عن ذاتيتها وأصالتها، وتراثها ودينها ولغتها. ويعزلها خارجياً عن محيطها الإسلامي والعربي. ولذلك، وبمجرد دخوله الجزائر، اعتبر اللغة العربية

---

(١) د. يحيى بو عزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠ ـ ١٩٥٤، ص: ٧٣.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج ٢، ص: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) أحمد الخطيب: الثورة الجزائرية، ص: ١٢٩.

(٤) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس، ص: ٦٥.

«لغة أجنبية وميتة؛ لأن اللغة الفرنسية كانت قد أصبحت لغة الجزائر الرسمية، منذ قرار الإلحاق سنة ١٨٣٤م، ما دام هذا القرار في حد ذاته، كان يعني أن الجزائر نفسها قد أصبحت فرنسية وميتة؛ لا لأن مصيرها قد انتهى كمصير اللاتينية والإغريقية فقط، ولكن أيضاً لأنها لن تكون قادرة على أن تصبح لغة حضارة»[١].

وكان يمنع فتح مدرسة عربية تعلم اللغة العربية، وأكد ذلك في القرار الذي أصدره في ١٨ تشرين الأول ١٨٩٢م، وكذا القانون الذي أصدره في ٢٤ كانون الأول ١٩٠٤م والذي ينص على «عدم السماح لأي معلم مسلم، أن يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية، بدون رخصة يمنحه إياها عامل العمالة، أو قائد الفيلق العسكري. ويعد فتح مكتب بدون رخصة، اعتداء على حدود القوانين الخاصة بالأهالي»[٢]. وبقي العمل بمضمون هذين القانونين ساري المفعول، إلى أن جاء القانون المشؤوم في ٨ آذار من عام ١٩٣٨م، الذي ضرب الجزائر في معقد البقاء منها، وفي أعز عزيز عليها، والذي أصدره شوطان وزير المعارف الفرنسي، وينص على اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، ويمنع ـ تبعاً لذلك ـ تعليمها في المدارس وحتى في البيوت.

ويذكر الدكتور يحيى بوعزيز حادثة تاريخية، تبين كيف أن الشرطة الاستعمارية، كانت تراقب وتلاحق كل من يعلم اللغة العربية حتى في بيته، فيقول: «وما زلت أذكر حتى اليوم، عندما داهمت الشرطة الاستعمارية منزلنا في مدينة برج بوعريريج عام ١٩٣٨م؛ للبحث عن السبورة التي اشتراها لنا الوالد؛ ليعلمنا بواسطتها بعض قواعد لغتنا العربية. وكان أحد الأذناب قد وشى بنا للشرطة، فاغتنمت غياب الوالد من المنزل وداهمته، وأخذت تسأل وتفتش بجنون عن تلك السبورة. ولكن الوالد كان محتاطاً للأمر، فأخفاها قبل خروجه في مكان لا يمكن التعرف عليه»[٣]، بل ظل يتابع ويمنع حتى وجود السبورة في

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج ٢، ص: ٦٣.
(٢) د. أحمد الخطيب: الثورة الجزائرية، ص: ١٢٩.
(٣) د. يحيى بوعزيز: ساسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣١ ـ ١٩٥٤، ص: ٦٨.

المنازل، ويغرم ويسجن ويُنفى من وجدت بحوزته؛ «لأن وجود السبورة في منزل جزائري، يؤدي إلى انتشار الوعي الفكري الوطني في عموم الأسرة، ثم في القرية، ثم في المنطقة كلها»[1].

وكان من نتيجة هذه السياسة التي أصدرت هذه القوانين الجائرة في حق تعلم أو تعليم، أو اكتساب وسيلة لتعليم اللغة العربية، أو فتح مدرسة لها أن «أصبحت نسبة الأميين من الجزائريين ٩٢,٢٪ بين من تتراوح أعمارهم من ٥ إلى ١٨ سنة، و ٩٠٪ بين من تجاوزت أعمارهم ثمانين عاماً. وتشرد أكثر من مليون ونصف مليون طفل جزائري في الشوارع، وهم في سن الدراسة؛ لأنهم لم يجدوا المكان ولا من ينفق عليهم.»[2].

٦ ـ محاصرة القضاء الإسلامي:

كان العمل بالتشريع الإسلامي في مجال القضاء ساري المفعول عند القضاة الجزائريين، وفي المحاكم الجزائرية قبل دخول الاحتلال الفرنسي. وكان لكل من القضاة والقضاة الشرعيين منزلتهما وهيبتهما، يحكمون ويفصلون في كل القضايا والمسائل على اختلاف أنواعها ومجالاتها؛ سواء ما تعلق منها بالأحوال الشخصية والإرث، أو ما تعلق بالدعاوى الجنائية والمدنية والتجارية.

لكن الحال تغير بعد دخول الاحتلال الفرنسي مباشرة، وبالضبط في نيسان ١٨٣٤م؛ عندما أصدر أول قرار له، يأمر بموجبه القاضي المسلم أن يستأنف الأحكام أمام مجلس الاستئناف الفرنسي. ويصدر بعد ذلك قرار ٢٨ شباط ١٨٤١م الذي يحصر عمل القضاء الإسلامي، وإصدار أحكامه في الدعاوى المتعلقة بالأحوال الشخصية والإرث، أما قضايا الجنايات والجنح فجعلت من اختصاص المحاكم المدنية الفرنسية.

ولم تمس محاصرتهم وتضييقهم اختصاص المحاكم. الشرعية الإسلامية فحسب، بل تعداه إلى العمل على تقليص عدد هذه المحاكم، وبالفعل فقد

---

(١) د. يحيى بوعزيز: المرجع نفسه، ص: ٦٨.

(٢) د. يحيى بوعزيز: المرجع نفسه، ص: ٨٩.

قلص من ١٨٤ محكمة إسلامية، إلى ٦١ محكمة فقط سنة ١٨٩٠م؛ أي بعد ستين سنة تم إلغاء وحل ١٢٣ محكمة. وهذا أمر طبيعي؛ إذا وجدنا الأميرال دوفايدون نفسه يقول: يجب أن يمحى القاضي المسلم أمام القاضي الفرنسي، فنحن الفاتحون. فلنعرف كيف نفرض إرادتنا»[١]. ووجدنا الإدارة الاستعمارية تصدر أمراً في ٢٨ آب ١٨٧٤م، توجب بمقتضاه استبدال الحكم بالعرف والعادات بمنطقة القبائل، بدل الحكم والاحتكام إلى أحكام الشريعة الإسلامية. وسعت لإسناد «وظائف القضاء الإسلامي إلى عملاء لها عديمي الثقافة والمعرفة، بل وحتى الأخلاق الحسنة»[٢].

٧ ـ محاربة التعليم العربي:

بالرغم من طابع التخلف العام والشامل، الذي كان مهيمنا على المجتمع الجزائري كبقية المجتمع الإسلامي عامة، فإن الوضع الثقافي والتعليمي، كان مقبولاً وأحسن بكثير مما آل إليه بعد الاحتلال؛ حيث كان يوجد في العاصمة وحدها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ عام ١٨٣٠ اثنتا عشرة مدرسة ثانوية، وكان عدد الزوايا التعليمية ٣٤٩ زاوية»[٣]. هذا الاحتلال السياسي والعسكري والثقافي، كانت سياسته التخريبية لمؤسسات تعليم وتثقيف وتربية الشعب واضحة منذ بداية احتلاله؛ حيث «أغلق نحواً من ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية، كانت قائمة في البلاد قبل بدء الاحتلال. . . يؤمها نحو مائة وخمسين ألف طالب»[٤].

كما اتبعت سياسة المراقبة الشديدة والصارمة لما تبقى من مؤسسات تعليمية وتثقيفية، ولرجالها ولما يدرسونه للطلبة؛ حتى تكون كل حركة في هذا المجال على مرأى ومسمع منها، وبالتالي تأمن على حاضرها ومستقبلها في الجزائر؛ سواء أثناء وجودها أو بعد خروجها على الأمد البعيد. وكانت تتحكم في الاستعمار نظرة استعلاء لنفسه واحتقار وإهانة للشعب الجزائري، حتى أنه عندما

(١) شارل روبير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ص: ١٠٥.

(٢) د. يحيى بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري، ص: ٤٤.

(٣) أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص: ٦٢.

(٤) أساتذة: نوابغ العرب ـ عبد الحميد بن باديس، ص: ٣٨.

يحدث ويتقدم فرد أو مجموعة بطلب لفتح مدرسة، يكون جواب الإدارة الاستعمارية ـ كما يقول الأستاذ فرحات عبَّاس: «إننا لسنا أهلاً لها؛ لأننا قوم لا نقبل التربية ولا العلم»[1].

ومن القرارات التي أصدرت تعسفاً في حق وواجب تعلم الشعب الجزائري لدينه ولغته وعلومهما، مرسوم ٨ تشرين الأول ١٨٩٢م ؛ والذي يقضي بمنع أي جزائري كان من فتح مدرسة، إلا بعد الحصول على رخصة من الإدارة. وجُدد هذا المرسوم في ٢٤ كانون الأول من عام ١٩٠٤م، محدداً مصادر الحصول على الرخصة وشروطها، في أن يمنحها عامل العمالة، أو الضباط العسكريون في المناطق الخاضعة للحكم العسكري وفق الشروط التالية:

١ ـ اقتصار التعليم على تعليم القرآن، لا أكثر.

٢ ـ عدم التعرض بأي وجه كان إلى تفسير القرآن، خاصة تلك التي تحض على الجهاد في سبيل الله، وتدعو إلى محاربة الظلم والاستبداد.

٣ ـ استبعاد تدريس تاريخ الجزائر، وتاريخ العرب والمسلمين، وجغرافية الجزائر، والبلاد العربية والإسلامية.

٤ ـ استبعاد تدريس الأدب العربي، واللغة العربية بجميع علومها.

٥ ـ الابتعاد عن تعليم المواد العلمية والرياضية.

٦ ـ أن يُظهِر المعلم، والذي يتولى التدريس إخلاصاً وولاء للإدارة الاستعمارية، ويخضع لأوامرها مهما كان شأنها.

٧ ـ يمنع على المدارس التي يرخص بفتحها، أن تستقبل الأولاد الذين هم في سن الدراسة النظامية، أثناء ساعات التعليم في المدارس الفرنسية، حتى ولو كان ذلك في القرى التي تبعد عنها بأكثر من ثلاث كيلومترات.

كما ينص القانون على أنه «يجوز لنفس السلطة أن تسحب رخصة التعليم لأجل معين، أو نهائياً، من المعلمين الذين يرتكبون أي عمل من شأنه أن يمس

---

(١) فرحات عبَّاس: ليل الاستعمار، ص: ٣٤.

بحسن السلوك أو الأخلاق. كما يجوز لها أن تأمر بإغلاق أبواب هذه المكاتب بصورة تأديبية»[1].

أما فيما يخص عدد ونسب انتظام الأبناء الجزائريين في المدارس الابتدائية والثانوية والجامعية الفرنسية، فكانت ضعيفة جداً؛ «حيث لم تصل النسبة المئوية سنة ١٩١٤ إلا إلى ٥٪ ، وذلك بالتحاق٤٧٢٦٣ تلميذاً بالمدارس من أصل ٨٥٠٠٠٠ تلميذ في سن الدراسة الابتدائية. وفي عام ١٩٢٩ م كان عدد التلاميذ في المدارس ٦٠٦٤٤ من مجموع ٩٠٠٠٠٠ أي بنسبة ٦٪»[2].

وفي المدارس الثانوية، نجد الطلبة الجزائريين «يمثلون طالباً واحداً لكل ١٧ ألف شخص؛ في حين نجد نسبة الطلبة الأوربيين واحداً لكل ٢٠٠شخص»[3].

ولم يكن مجموع ما يقبل من الطلبة الجزائريين، الذين يقبلون في التعليم الثانوي في المدارس الفرنسية يتجاوز سنوياً «٨٤ تلميذاً قبل عام ١٩٠٠م، و ١٥٠ تلميذاً قبل عام ١٩١٤م»[4].

وفي التعليم الجامعي «كان الجزائريون يمثلون طالباً واحداً في الجامعة عن كل ١٥٣٤٢ شخصاً، مقابل طالب واحد أوربي عن كل ٢٢٧ شخصاً»[5].

ومن هنا كانت النتيجة الحتمية لهذه السياسة الاستعمارية، في مجال حق الجزائريين في العلم والتعليم والثقافة، أن «ظل تسعة أعشار أبناء الجزائريين لا يجدون مكاناً لهم في المدارس. بل كأنما أرادت فرنسا أن تنشئهم على التشرد والبطالة؛ لكي تُعدَّهم للهجرة إلى فرنسا، من أجل العمل في مصانعها كأيدي عاملة رخيصة»[6].

---

(١) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس، ص :٥١، ومحمود قاسم: الإمام عبد الحميد ابن باديس، ص: ٨٠ ود. يحيى بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري، ص: ٦٦.

(٢) شارل روبير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ص: ١١٣ ـ ١١٤.

(٣) د. يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص: ٧١.

(٤) شارل روبير أجيرون، المرجع السابق، ص: ١١٤.

(٥) د. يحيى بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري، ص: ٧١.

(٦) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ٩.

كما نتج عن ذلك، ازدياد نسبة الأمية في الجزائريين، والتي تجاوزت نسبتها في عشرينيات هذا القرن أكثر من ٩٢٪.

هذا في مجال التعليم، أما في مجال المهن والتكوين المهني، فإن الطالب الجزائري عامة يُوجَّه «إلى قسم صناعة الخشب على وجه الخصوص؛ أي صناعة غير مربحة؛ لأن السوق مكتظ بمن سيشتغل فيها. بينما يوجه الطالب الأوروبي إلى الصناعات الميكانيكية التي لها رواج ومستقبل»[١]. وحتى مجال العمل للعامل الجزائري، فإنه محدد من قبل الإدارة الاستعمارية «في الأعمال الشاقة اليدوية؛ مثل الحفر والشحن، ونقل الأتربة، وجر العربات في المناجم والمباني والطرقات وغيرها. وهذه الظاهرة عامة على العامل الجزائري؛ سواء كان في فرنسا أو الجزائر»[٢].

٨ ـ تفكيك بنية المجتمع الجزائري وتخريب شبكة علاقاته الاجتماعية:

إن الاستعمار الفرنسي الذي كان يهدف إلى الاستيطان الطويل المدى بالجزائر، ومن أجل تحقيق أهدافه الخاصة، وضمنه يحقق المعمرون أهدافهم الخاصة بهم، والتي برزت وتعاظمت مع الوقت، والجميع في النهاية يحقق أهداف المشروع الاستكباري العالمي الحديث الذي خطط للأمة الإسلامية كلها، ومن ضمنها الشعب الجزائري. كان يعلم جيداً أنه لا يمكنه تحقيق شيء من ذلك، من غير أن تكون له دراسة واعية لبنية وتركيبة وطبيعة وخصائص المجتمع الجزائري من جميع جوانبها؛ حتى يتمكن من إحداث تمزيق وتخريب في شبكة علاقاته الاجتماعية المتينة، التي شد وثاقها الإسلام، وقواها ومتن عراها التاريخ الطويل الذي عاشه المجتمع الجزائري، والذي تركه ينغلق على ذاته ويعض بنواجذه على بنيته الاجتماعية والأسرية، والعلاقات المختلفة التي تشد وتربط أبناءه وأفراده.

ولكي يحصل الاستعمار على استقرار له في أرض الجزائر، ويتمكن من

(١) مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص: ٣٦.

(٢) د. يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص: ٥٨.

نهب الأرض من أصحابها، وإبعادهم عنها وعن أملاكهم ومصادر أرزاقهم وعيشهم. ومن أجل تحقيق استيطان قار وممتد زماناً ومكاناً؛ يُمكّنه فيما بعد من بسط نفوذه وسيادته العسكرية والسياسية والثقافية والحضارية؛ عمل على تفكيك بنية المجتمع الجزائري وتخريب شبكة علاقاته الاجتماعية، بالعمل على تمزيق وحدة المجتمع القائمة على أساس الدين الواحد، واللغة الواحدة، والتاريخ الواحد، والمصير الواحد، والوطن الواحد.

فكان من أساليبه في ذلك طرد أصحاب الأملاك من أملاكهم، وإلجاؤهم بالقوة ـ مشردين ـ إلى المناطق النائية الجبلية والصحراوية، وخلق نماذج اجتماعية جديدة في المجتمع، لم يكن له عهد بها؛ من أمثال القواد، والباشاآغات ،والعمل على زرع الأجسام الأوربية الغربية، بكل ما تحمل من تمايز أخلاقي وثقافي وفكري وحضاري، في جسد المجتمع الجزائري المسلم.

كما عمل «بمقتضى المبدأ الروماني الذائع (فرق تسد)، فدحرت البنائيات الاستعمارية الفرد، وألجأته إلى الحياة من أجل ذاته، بل وقد بلغ الأمر ببعض الأفراد أن نما لديهم (خلاع الاحتكاك) بالآخرين؛ حتى جعلهم يقضون على أنفسهم بالانعزال والانزواء، الأمر الذي حملهم أحياناً على الانقطاع الاجتماعي التام في نفس كنف أسرتهم»[1]، وسعى سعياً جاداً لإحداث شروخ وفجوات بين أبناء الوطن الواحد والجسد الواحد؛ بالتفريق بين الناطقين باللسان العربي والناطقين باللسان الأمازيغي، وأسسوا لذلك بالمغرب معهد البحوث العليا المغربية للدراسات البربرية. واستُنفِر له متخصصون في اللغويات والتاريخ والأنثروبولوجيا والاجتماع، وركزوا على منطقة القبائل خصوصاً بإرسالياتهم التبشيرية وبناء المدارس، وعرقلة التعليم العربي، ومحاصرة القضاء الإسلامي، وإبعادهم عن الاحتكام إلى أحكام الشريعة الإسلامية، إلى الاحتكام إلى الجماعة التي تحكم وفق عرف وعادات وتقاليد المنطقة.

كما نجد من ضمن الأساليب التي اعتمدوها في هذا المجال؛ إصدارهم

---

(١) مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص: ١٩٥.

لقانون حق تجنس الجزائري بالجنسية الفرنسية، في سبيل خلق فئة اجتماعية لا هي مسلمة، ولا يمكن أن تصير فرنسية. وإنما تساهم في إحداث الشروخ والفوضى والصراع داخل المجتمع. ورغم التسهيلات التي أدخلت على القانون سنة ١٩١٩ فإنَّ عدد الذين انساقوا إلى التجنس، وانزلقوا في منزلقه قليل جداً؛ حيث «ارتضته هذه الأقلية لقضاء حاجات مادية، والحصول على بعض الامتيازات السياسية؛ مثل بعض المعلمين في المدارس الرسمية، والعسكريين الذين يعملون في الجند الفرنسي»[(١)].

وتشير الإحصائيات إلى أنه «لم يتقدم لطلب التجنيس غير ١١٣١ شخصاً في مدة تمتد من ١٨٦٥م حتى ١٨٩٩م وحوالي ٣٦٠ شخصاً ما بين سنة ١٩٢٠م - ١٩٣٠م»[(٢)].

وهذا العدد القليل جداً إذا قيس بعدد السكان الجزائريين، وبما قامت به الإدارة الاستعمارية من دعاية، وما قدمته من تسهيلات وإغراءات؛ لإغراء البعض لقبول التجنس وحمل الجنسية الفرنسية، والمتجنس الجزائري لم يجد ولم يحظ بالحقوق نفسها التي كان يتمتع بها الفرنسيون أو الأوربيون، وحتى اليهود المتجنسون. ولم يلق الاحترام والمعاملة نفسيهما.

ولم يستثن الاستعمار أي جانب من جوانب المجتمع إلا وبث فيها سمومه، وبذل كل ما في وسعه من أجل الحط من قيمه الأخلاقية؛ «لأن الجزائريين على حد منطق الاستعمار، لا يحكمون بموجب قوانين إنسانية وما هم - بحسب منطقه أيضاً - سوى رعاع يجب أن يمتثلوا لأوامر أسيادهم الاستغلاليين»[(٣)]. والواحد منهم يعتبرونه - في نظرهم - «ينتمي إلى جنس غير قابل للتصحيح والتثقيف»[(٤)].

فنجده يمنح - بسخاء - الجزائريين رخص فتح المقاهي، ويمنعها عليهم عند

---

(١) د. محمَّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٣٦٢.
(٢) د. محمَّد ناصر: المرجع نفسه، ص: ٣٦٢.
(٣) أحمد الخطيب: الثورة الجزائرية، ص: ١٤٨.
(٤) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٦٤.

طلبها لفتح مدرسة، أو ممارسة التعليم. وحتى هذا المنح مشروط «بأن يكون المقهى ميداناً لكل ما يخالف الأخلاق من قمار، ولكل عمل مشبوه فيه، وإلا ... فإنه يغلق بأمر من السلطات الاستعمارية عند أول فرصة»[1].

كما نجده في سبيل نشر رذائله الأخلاقية، وسط جسم المجتمع الجزائري المسلم، يشجع فتح بيوت الفساد وممارسة البغاء، ويصدر في ذلك قوانين تبيح ذلك وتحفظه من كل رد فعل اجتماعي. «أما الدعارة فقد نشرتها كالوباء في كل حي دون مراعاة لحرمة الأوساط العائلية الشريفة، والاحترام لقدسية الأماكن الطاهرة؛ حتى بات جامع سيدي رمضان بالعاصمة، تحيط به بيوت العاهرات إحاطة السوار بالمعصم، ومثله الجامع الأعظم بمستغانم»[2].

ومن القوانين التي سنتها أن «للمسلمة أن تتخذ بيتاً للبغاء أمام بيت أهلها وذويها، ولا يقدر أحد أن يُغِير عليها. ومن مسها بسوء يعد جانياً، ويحاكم أمام المجالس العدلية ويحكم عليه؛ لأنه اعتداء على الحرية الفردية»[3].

ولم يُخرِّب الاستعمار مناعة الجسد الاجتماعي المعنوي للشعب الجزائري فحسب، بل تعداها إلى تخريب مناعة أجساد أفراده؛ وذلك بخلق أجواء وظروف صحية جد متدهورة. «فالجزائر لم تكن تعرف قبيل الاحتلال الاستعماري شيئاً عن أمراض السل والسرطان. ولم يأت بهذه الأمراض القتَّالة سوى جنود الحملة الفرنسية المكونين من السجناء واللقطاء والمرتزقة. إن الحملة الاستعمارية صاحبتها حملة أوبئة مخيفة، صدرت كلها عن حمأة المجتمع الفرنسي القذر»[4].

والنتيجة اللازمة التي ترتبت عما جلبته فرنسا معها في غزوهم من أمراض قاتلة وفتاكة، أن أصبحت «الجزائر بسكانها التسعة ملايين نسمة تضم من

---

(١) مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص: ٤٤.
(٢) د. محمَّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(٣) د. محمَّد ناصر: المرجع نفسه، ص: ٢٠٦.
(٤) أحمد الخطيب: الثورة الجزائرية، ص: ١٤٦.

المسلولين، بقدر ما تضم فرنسا التي يبلغ عدد سكانها ٤٠ مليوناً»[١]، كما صرح بذلك الطبيب الفرنسي ليفي فالسني.

٩ - تجنيد الجزائريين للدفاع عن مصالحهم:

لقد أحدث الاستعمار شروخاً جسيمة في بنية المجتمع الجزائري؛ ليخلق بذلك أجواء تحفظ مصالحه العليا الداخلية والخارجية، وتطيل مدة بقائه جاثماً على صدر الجزائر «فالأمية والبطالة والبؤس ،كل هذه الأمراض التي تجعل شعوب شمال إفريقيا الثلاثة تعيش دون كفاف الحياة، وحيث يريد الاستعمار أن يبقيها فيه؛ لأنه يرى في ذلك الطريقة الوحيدة لبقائه»[٢]، واستمرارية هيمنته.

وأمام إرغام الشباب الجزائري على البطالة؛ بغلق أبواب التعليم والعمل في وجهه. فتح لهم باب التجنيد الإجباري في الجندية الفرنسية، وذلك بسنه لقانون التجنيد سنة ١٨٩٠م، والذي نال موافقة المجلس الوطني الفرنسي سنة ١٩١٢م. «ويفرض على الأهلي أن يعمل في الجندية ثلاث سنوات، مقابل دراهم معدودات»[٣]. وقد أحدث صدور هذا القانون وتزكيته من طرف البرلمان الفرنسي، رد فعل عنيف في أوساط الشعب الجزائري؛ حيث فجَّر «مضاعفات فكرية ونفسية وأبعاداً سياسية في المجندين المسوقين إلى الحرب عنوة، وفي المُوَدِّعين لفلذات أكبادهم، يرمى بها في الجحيم»[٤].

واضطربت الجزائر كلها، وقدمت عرائض ووسائل ولوائح تستنكر وتحتج لصدور هذا القانون التعسفي الإجباري، والذي جندت به فرنسا جحافل كبيرة من الجزائريين؛ للدفاع عنها في الحرب العالمية الأولى ضد قوات الحلف الثلاثي، مقابل وعود زائفة لَوَّحت بها؛ بأنها تمنحهم استقلالهم وحقوقهم إذا ما انتصروا

---

(١) أحمد الخطيب: المرجع نفسه، ص: ١٤٦.

(٢) مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص: ٥٤.

(٣) د. محمَّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٣٣١.

(٤) مجلة الثقافة: س ٤، ع ٦، ص: ١٢.

في هذه الحرب «فجندت ثمانين ألفاً للعمل في المصانع والمناجم بدلاً من العمال الفرنسيين المجندين»[1].

وخاض الجزائريون مجبرين الحرب العالمية الأولى مع فرنسا دفاعاً عنها، وعن مصالحها ومصالح الحلفاء، التي لا تعنيهم في مجملها لا من قريب ولا من بعيد. وكانت النتيجة أن «قدمت الحكومة الفرنسية للمدافع الألمانية ١٧٣ ألفاً من الجزائريين منهم ٥٦ ألفاً قتيلاً؛ أي ٣١ ٪ من مجموع الخسائر الفرنسية، في حين لم يخسر الفرنسيون في هذه الحرب إلا ١٩٪»[2] فقط.

١٠ ـ تمكين اليهود في المجتمع الجزائري:

لقد فسح الاحتلال الفرنسي المجال واسعاً أمام الهجرة اليهودية المختلفة نحو الجزائر للاستيطان بها، وكسب مختلف الأملاك التي تمكنهم ـ مع الزمن ـ من بسط نفوذهم وتغلغل وجودهم، داخل بنية المجتمع الجزائري[3]. زيادة على ما كان عليه قبل دخول فرنسا للجزائر مستعمراً.

وعمل الاحتلال كل ما في وسعه لاستخدام اليهود كوسيلة أساسية وفعالة له في سبيل تحقيق أهداف مشروعه الاستعماري؛ فنجده يمنح لأكثر من ٣٠ ألفاً منهم الجنسية الفرنسية، ويمكنهم من إحكام قبضتهم على السوق والتجارة، وكثير من المناصب الهامة في إدارته ومؤسساته؛ مثلما كان الحال بالنسبة لوزير العدل كريميو[4]، وغيره من رجال السياسة والاقتصاد والإعلام.

ولتمكين اليهود من بسط نفوذهم وتقوية شوكتهم، عمدوا إلى وسائلهم

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير، ج ٣، ص: ٢١٢ .٢١٣.

(٢) د. عبد الله شريط ومحمَّد الميلي: مختصر تاريخ الجزائر، ص: ٢٧٤.
وتشير بعض الأرقام الفرنسية إلى أنه مع نهاية ١٩١٧ قدم الجزائريون إلى فرنسا من ١١٥٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠٠ جندياً. انظر:
Charles Robert Ageron: Les Algeriens Musulmans et la France,P: 1164.

(٣) تشير بعض الإحصائيات إلى أن عدد اليهود منذ سنة ١٨٧٠ وصل عددهم إلى ٣٠ ألف يهودي يتمتعون بكامل الحقوق كالمواطنين الفرنسيين» أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، ص: ٣٩.

(٤) كان وزير العدل في الحكومة الفرنسية في فترة ١٨٧٠م.

وأساليبهم المعهودة والمعروفة «فكانوا يضغطون بوسائلهم الربوية الفظيعة على الأهالي المسلمين، ويتخذون منهم بقرة حلوباً يستدِرُّونها بوسائل الحيلة والمكر، تبدأ من طرف الأهالي بالاستدانة البسيطة، وتنتهي من طرف اليهودي بالاستيلاء على الأراضي والعقار»[1].

هذه الاستدانة البسيطة التي تقوم على القروض، تتم بفوائد رهيبة تصل إلى ٥٠٪ أو ٦٠٪ سنوياً. وكانت النتيجة أن «أصبحت حوانيت اليهود عبارة عن رابطة لانتقال الملكية، من أيدي الجزائريين إلى أيدي المعمرين»[2]؛ لأنه بتضاعف فائدة الدين، وعجز المسلم الجزائري عن تسديد الدين وفائدته، لا يجد مناصاً من رهن أرضه أو ممتلكاته لهم ثم التنازل عنها. واليهود بعد ذلك إما يستفيدون بما يسلم ويتنازل عنه لهم باستغلال الأرض والممتلكات، أو بيعها للمعمرين الفرنسيين والأوربيين، مقابل مبالغ مالية ضخمة.

وبهذه الطريقة وغيرها من طرق اليهود المبنية على الاحتيال والمكر والدهاء، تمكنوا من إحكام نفوذهم داخل المجتمع الجزائري، والإمساك بكثير من زمام حياته الاجتماعية والاقتصادية. وكل هذا ـ في حسبانهم وتقديرهم ـ داخل ضمن ما يضمرون في أعماقهم من حقد تاريخي على الإسلام والمسلمين حتى «إن اليهودي ـ كان ـ عندما يسأل يهودياً آخر كيف حالك؟ يجيبه هذا: على أحسن ما يرام؛ محمَّد يمسح أحذيتي، وفاطمة تغسل أرض منزلي»[3]. وكان أكبر تجرؤ لهم، كشف بوضوح للجميع حقيقة تطلعاتهم وأهدافهم، ما حصل منهم في حادثة مسجد الجامع الأخضر[4]، وكيف ظهر التواطؤ الصارخ، بينهم وبين إدارة الاستعمار الفرنسي، على حساب المسلمين الجزائريين.

ولم يستثن الاحتلال الفرنسي من وسائله، استغلال واستخدام بعض الطرق

---

(١) د. محمَّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٣٩٨.
(٢) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن العشرين، ص: ١١٢.
(٣) محمَّد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية، ص: ١٢٠.
(٤) انظر الحادثة مفصلة في الشهاب: ج ١٠، م ١٠، ص: ٤٣٨ ـ ٤٦١ لتاريخ ١١ ـ ١٢ ـ ١٩٣٤.

والزوايا ورجالهما، في خدمة مصالحه وتحقيقها. وذلك لعلمه بحقيقة دور الإسلام في استنهاض وتحريض همم أتباعه، على جهاد الكفار المحتلين، إذا بقي صافياً نقياً يؤخذ عن العلماء العدول من غير أن يشوه بتحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين. وحتى لا يتحقق هذا الدور الإيجابي الفعّال للإسلام في المجتمع الجزائري «أرادت فرنسا أن يكون الإسلام أمام الناس طرقياً قبورياً. من تابعه فقد كل حيويته وفعاليته، ومن نفر عنه وتمرد عليه، تلقفته أحضان الثقافة الفرنسية»[١]، وفلسفتها الحضارية.

واستغلت إدارة الاستعمار سذاجة عقلية عامة الناس، وسطحية معرفتهم، وبساطة اعتقادهم وجهلهم بالإسلام، وشدة تعلقهم بالزوايا والطرق والأولياء والمشايخ، فعمدت إلى نصب حيل وصنع مكايد في غاية المكر والاحتيال؛ لتخديرهم وشلهم اجتماعياً. فنجده مثلاً «يعمد إلى حرق أكوام قمح أوربي مستعمر، رفض أن يعير أدواته ليحصد بها قمح سيدي المرابط الفلاني. وكان المعلق يقول: أترى أية كرامة لسيدي فلان؟ فالمستعمر الذي رفض أن يعيره أدواته، قد احترق موسمه»[٢].

وليحقق الاحتلال هدفه في جمع الناس حول الطرقية، التي يريدها أن تصير جهازاً للإرسال، مضطلعاً بتوصيل رسالته ومشروعه، محاطة بجو الخشوع وهالة القداسة، هي في تصور واعتقاد الناس رموز الدين والإيمان، فإنه لا يبالي باعتماد أي وسيلة أو أسلوب مكر وتدجيل «وإنك لتتعجب حين تعلم أن الثورة الأخيرة ـ ثورة تشرين الثاني ـ اكتشفت في بعض المناطق الشرقية، أن ضريحاً من الأضرحة التي يؤمها الشعب ويتبرك بأعتابها، كان قبراً لراهب مسيحي، لم يصدق الشعب ذلك حتى عثروا على الصليب في القبر»[٣].

---

(١) د. محمّد فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة، ص: ٣٦.

(٢) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص: ١٨٢.

(٣) د. صالح خرفي: صفحات من الجزائر، دراسات ومقالات من ١٩٦٢ إلى ١٩٧٢، ص: ٣٢٤.

ولذلك شجع كثيراً نشاط الصوفية، وأحيا أعمالها، وأمدها بما تريد من أموال ووسائل، وفسح لها مجالات واسعة في المجتمع الجزائري؛ حتى تستطيع وتتأهل للاضطلاع بالوظيفة التي حددها لها.

وكانت النتيجة لمسعاه في هذا المجال أن احتوى كثيراً منها، ولم يعد من رسالة الجزء الذي احتواه «إلا أن يتحكم في عقول الناس بشعوذة دخيلة على الإسلام، أصيلة في خدمة المستعمر، بتسخير رقاب البسطاء له»[1].

ثانياً: آثار سياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر:

لقد زحف الاحتلال الفرنسي على الجزائر، فاحتل أرضها عنوة بالقوة، واستوطن بجيشه ومعمريه وفكره وحضارته أرض الجزائر، واستعمل في سبيل ذلك وسخّر كل إمكاناته المادية والمعنوية، وعمل كل ما في وسعه ومقدوره لاحتواء الجزائر أرضاً وشعباً، وثقافة وحضارة وتاريخاً، وتحطيم بنية مجتمع قائم بذاته، ومتميز بخصوصياته؛ لشله وإخضاعه لسلطانه واستكباره.

فأوصد في وجه الشعب الجزائري ظلماً وتعسفاً «أبواب العمل وحتى أبواب الأمل. فجرده من شخصيته. وفي نظر القانون الاستعماري، لم يبق الجزائري جزائرياً دون أن يعود من جهة أخرى فرنسياً، وأصبح هو والعدم سيان لا جنسية له ولا وطن. فصار غريباً وحيداً طريداً شريداً، لا دار تأويه، ولا قانون يحميه، لا في بلاده، ولا في فرنسا، ولا في أي بلد من بلاد الله»[2].

ولم يترك ولم يستثن الاستعمار الفرنسي في سياسته التعسفية؛ لسحق المجتمع الجزائري المسلم، وتفكيك بنيته الذاتية أي جانب من جوانب حياته كان صغيراً أو كبيراً، يميز هذا الشعب عنه ويشكل ذاتيته الحضارية، إلا وعمل على محوه وتشويهه، وإزالته من الوجود إن استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ حتى يضفي على طابع الحياة العامة للشعب الجزائري، ولغته وفكره وحضارته، غزوه واستعماره الشامل.

---

(١) الثقافة: س ٤، ع ٠٦، ص: ٣٥.

(٢) فرحات عبّاس: ليل الاستعمار، ص: ٦٧.

وحتى الأسماء والعناوين للأشخاص والأماكن، والشوارع والساحات العمومية، لم تسلم من ذلك «بحيث أصبحت المدن الجزائرية، والقرى الجزائرية وشوارعها وميادينها، تحمل أسماء فرنسية لشخصيات وعلماء ومفكرين وعسكريين إلى آخره. وحذفت منها الأسماء العربية الجزائرية والإسلامية، بحيث صار المتجول في القطر الجزائري وخصوصاً في المدن الكبرى والقرى الحديثة، يشعر وكأنه في بلاد أوربية، وليس في بلاد عربية إسلامية»(١).

ونتيجة هذه السياسة أن الاستعمار عمل على تعميق هوة التخلف الحضاري الذي كان يعانيه الشعب الجزائري، وزيادة حجم الفجوة الحضارية؛ حتى تتحقق فيه أكثر شروط وظروف ومناخ القابلية للاستعمار، وبالتالي يمتد زمن بقاء الاحتلال ومكثه جاثماً على صدر الشعب، مستنزفاً لإمكاناته الحضارية، محطماً لإرادته في النهوض؛ لتغيير ما بنفسه، والتحرر من القابلية للاستعمار، والاستعمار نفسه.

ويعترف أحد كبار ساستهم ومسؤوليتهم، بالظلم والغطرسة التي مارسوها بكل قوة وعنف، ووفق قانون الغاب على الأمة الجزائرية، وما نتج عن ذلك فيقول موريس فيوليت سنة ١٩٢٧م : «إن الجزائريين متأخرون؛ لأن شبابهم جهلاء، مهملون متأخرون؛ لأن آباء أولئك الشبان أفقرتهم الضرائب بأنواعها، واليد الاستعمارية التي استحوذت على أراضيهم. متأخرون لأن غالب نواب الأمة إن لم أقل كلهم عاجزون عن القيام بمأموريتهم؛ لأن الجزائريين محرومون من حرية التفكير والاجتماع والصحافة والمساواة، التي امتاز بها الأجنبي عنهم. ولأنهم حرموا حق النيابة الحرة، ولأن الأنديجينا خنقت أنفاسهم. أجل الجزائريون متأخرون؛ لأنهم حرموا لا من حقوقهم فقط، بل من العيش الطليق الطبيعي على وجه الأرض»(٢).

وكيف لا يحصل هذا، ويترتب على سياسة استعمارية حددت حتى الوظائف التي لا يجوز لأي جزائري توليها(٣). مما جعل الشعب الجزائري أمام هذا الوضع قسمين وصنفين هما:

---

(١) الثقافة: س ٤، ع ٨١، ص: ٢٢.

(٢) الثقافة: س٤ ،ع ٦، ص: ٢٢.

(٣) انظر: تركي رابح، عبد الحميد بن باديس، الهامش، ص: ٤١ ـ ٤٢.

الصنف الأول: وهو الذي يسكن المدينة، إما متعطل لا يعمل شيئاً، وإما أن يبيع بعض العقاقير والحاجات. وإما أنه شاويش في إدارة استعمارية. وبعض آخر نجده محامياً أو صيدلياً أو قاضياً، وقليل ما هم.

الصنف الثاني: وهو الذي يسكن البادية مترحلاً بلا مواش، فلاحاً بلا محراث ولا أرض»[1].

مما انجر عنه تدهور شامل لمستوى حياة ومعيشة الشعب الجزائري، وتركه عرضة سهلة ولقمة سائغة للمجاعات والأمراض الفتاكة القاتلة، لا يقوى ولا يجد باباً يكتسب منه قوته وقوت عياله؛ لأن المسلم الجزائري في نظر الاستعمار «لا يصلح إلا أن يكون جندياً، أو ليدفع الضرائب الفادحة، ولو ببيع آخر معزة يرضعها أبناؤه»[2]. مما دفعه وحتم عليه الهجرة هروباً من ضنك المعيشة التي يعيشها، والحياة التي يحياها، إلى أي مكان يجد فيه ـ فقط لا أكثر ـ أسباب حفظ وجوده وبقائه البيولوجي. «وهكذا هاجر آلاف الجزائريين لأسباب سياسية واقتصادية ودينية واجتماعية، نحو المغرب الأقصى وتونس والشرق الأدنى وفرنسا. لقد كانوا يطلبون الحرية والاحترام، والفرص التي لم يجدوها في وطنهم»[3]، الذي ضاق بهم ذرعاً، وخنق أنفاسهم وضعه المتردي. فلا حرية سياسية تتيح لهم حق التعبير عن حقوقهم وهويتهم ورفع مطالبهم، ولا أسباب اقتصادية توفر لهم الحد الأدنى من العيش الكريم والضروري، للمحافظة على بقائهم، مما تركهم عرضة للمجاعات المحلية والعامة، تفتك بأعداد كبيرة منهم. فلا حياة اجتماعية تسمح لهم بالإحساس بوجودهم وبقيمة لهم، أو حياة فكرية تحييهم من موات، وتعيدهم إلى الحياة. وهكذا اجتمع على الأمة جهل وفقر ومرض وافتراق. «فالجهل أقعدها عن الشعور بوجودها وكيف تذب عنه. والفقر أقعدها عن العمل وشل أعضاءها عن الحركة. والافتراق أذاب قوتها وذهب بريحها»[4].

حتى الجانب التعليمي، والحالة العلمية من جراء سياسته الاستعمارية،

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٧٦.
(٢) عبد الرّحمن بن إبراهيم بن العقون: الكفاح القومي والسياسي، ج ١، ص: ١٢٠.
(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ١٣٥.
(٤) الثقافة: س ٤، ع ٦، ص: ٢٣.

وموروثات الأمة من عصور تخلفها السحيقة، أصابها الانفصام والشرخ؛ بحيث انقسم طلبة العلم إلى قسم يطلب علوم التراث باللسان العربي، وقسم يطلب علوم الحياة والمادة باللسان الأجنبي. «والذين يزاولون العلوم الأولى على جمود تام. كما كان الذين يزاولون العلوم الثانية على تيه وضلال؛ فهؤلاء يعتبرون الآخرين أحجاراً. . . وأولئك يعتبرون هؤلاء كفاراً»[١]. وحتى أولئك الذين أتيحت لهم فرصة التمدرس بالمدارس الفرنسية والتخرج فيها، لم يكن عددهم بالنسبة لعدد الشعب الجزائري يذكر؛ إذ في سنة ١٩١١م كان «من بين خمسة ملايين جزائري لا يوجد أكثر من ٤٥٠ مثقفاً»[٢] من الشباب الذي توزعه وضيَّعه وضع شاذ، كان سائداً في تلك الحقبة المظلمة. من قبل أن يسعى ابن باديس من خلال حركته الجهادية الفردية والجماعية في جمعية العلماء إلى لم شعثه وجمع شتاته؛ لإعادة بنائه وصياغته جيلاً جديداً بعد أن «لم يكن يوم ذاك من شباب إلا شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده، وقبَّح له دينه وقومه، وقطع له من كل شيء ـ إلا منه ـ أمله، وحقَّره في نفسه تحقيراً. إلا شباب جاهل أكلته الحانات والمقاهي والشوارع»[٣]، يعيش التمزق الفكري والضياع الحضاري، في مجتمع بدأ يعرف تحولات في قيمه وتصوراته، وعاداته وتقاليده، من خلال الضعف الذي دب في الأصيل منها، في مقابل القوة المدعمة بالسلطة السياسية والحضارية، للعادات والتقاليد والقيم الأخلاقية الفرنسية الغازية له «فشاع الخمر وشاربوه، وبدت بوادر استغلال الثقة والمخالفة لتقاليد البلاد العريقة في الظهور، فيما انكفأت تتوارى شيئاً فشيئاً تلك التقاليد»[٤].

ثالثاً: الطرق الصوفية، والوظيفة السلبية:

عندما آل وضع الأمة منذ عقود السنين إلى تخلف حضاري عام وشامل، لم يسلم من ذلك عالم أفكار الأمة ودينها ومعتقدها، الذي آل هو الآخر إلى

---

(١) جمعية العلماء: البصائر، س ٢، ع ٧١، ص: ٤.
(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ١٤٧.
(٣) جمعية العلماء: الشهاب: ج ٢، م ١٤، ص: ٢.
(٤) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص: ١٧.

انحصار واهتمام بالعالم الأخروي، والجانب التعبدي في أشكاله ومظاهره دون جوهره ومضامينه، حتى صار تدين المجتمع عامة آخذاً طابع الوراثة والتقليد والجمود لا أكثر، وتكلفت الزوايا والكتاتيب والمساجد في صورتها الموروثة، بتقديم صورة معينة للإسلام، وفق وضع شيخ الطريقة المعينة.

وانتشرت الطرق الصوفية، وتعددت وتنوعت، حتى صار بالجزائر العاصمة وحدها «ثلاثة وعشرون طريقة صوفية، لها مائتان وخمسة وتسعون ألفاً ومائة وخمسة وثمانون مريداً ٢٩٥١٨٥ وعليها سبعة وخمسون شيخاً وستة آلاف مقدم. وعندها ٣٤٩ زاوية. وتجبي من الإخوان سبعة ملايين.... ولمشايخ الطرق والمرابطين نفوذ عظيم، ومكانة لا تساويها مكانة في الجزائر عند جميع الأهالي...، حتى إن العلماء والمدرسين والمفتشين والقضاة وأئمة المساجد، لا يكادون يكونون شيئاً بالقياس إلى المرابطين ومشيخة الطرق»[(١)].

فهذا التواجد المكثف للطرقية والزوايا خوَّل لها الإمساك بالعالم الثقافي، والتكوين الإسلامي للشعب الجزائري. الذي لم يكن يرى «الإسلام إلا الطرقية. وقد زاد ضلالهم ما كانوا يرون من الجامدين والمغرورين، من المنتسبين من التمسك بها، والتأييد لشيوخها»[(٢)].

ولم يكن يقوى أحد أياً كان على مواجهة شيوخ الطرق ومريديهم، ورفض قبول كلامهم والانصياع لمطالبهم، والإذعان لأحكامهم وأوامرهم؛ بحكم أنه كان لدى الجميع «اعتقاد الورقة المختومة، فقيمتها السحرية لا تمارسها فقط في النساء العجائز، اللواتي يضعن لأطفالهن حروزاً يقينهم بها من العين الشريرة، بل إنها تمارس قيمتها السحرية أيضاً في ذلك الوسط الذي تكوَّن في الزوايا الصوفية؛ إذ تستعمل فيه حجة لا جواب عليها في المناقشات. إنه كُتُبي يقولها واحد للتأكيد، إذا آنس في وجه مستمعه بعض

---

(١) د. محمَّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ١٠٧، ود. عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ١٨.

(٢) الشهاب: ج ١١، م ١٤، ص: ٢٠٤.

الشك، وتنحني الرؤوس أمام الحجة الدامغة»[1].

وشاعت في أوساط المجتمع ظاهرة زيارة شيوخ الطرق، والعباد الصالحين الأحياء منهم والأموات؛ للتبرك بهم وطلب الحوائج منهم، وإقامة الولائم المكلفة حول أضرحتهم، وسط مواكب بشرية تأتي من كل حدب وصوب، لتحقق لها ما عجزوا عن تحقيقه ـ بعجزهم وكسلهم وتخلفهم وقابليتهم للاستعمار ـ في عالم الأسباب والمسببات. «فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون. ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد، فيدعون من فيها ويدقون قبورهم، وينذرون لهم، ويستثيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم. فكيف يتركونهم وقد يهددونهم بقطع الزيارة، وحبس النذور. وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتوجه، قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم»[2].

وصار الناس يعتقدون عصمة هؤلاء الأولياء، الذين أضفى عليهم طول الزمان وشيوع الجهل، نوعاً من القداسة في الاعتقاد فيهم، وشاع آنذاك مقولة «اعتقد ولا تنتقد»، وظن الجميع استحالة زوال سلطانهم.

ويصف لنا الأستاذ مالك بن نبي مشهداً من مشاهد المرابطية، وحال شيوخ وأتباع الطرق فيه فيقول: «وهكذا كان الناس يشهدون كل عام موكب القادرية المهيب، يأتي إلى آفلو براية ترفرف على رأسها ابن شيخ الطريقة المقدم، يلبس الثياب الخضراء من رأسه إلى قدميه ـ على أنها ثياب أهل الجنة ـ وهو ذو ذكاء شيطاني، يعرف كيف يبتز من السذاجة العامة للناس كل ما يريد. وقد كان يملك في تلك الفترة في وادي سوف، بستاناً للنخيل مؤلفاً من حوالي ألف نخلة، وهو من هبات أولئك الذين يريدون أن يدخلوا الجنة في موكبه»[3].

ولإعطاء صورة أكثر إيضاحاً للطرقية، وما يفعلونه في مجالسهم الخاصة

---

(١) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص: ١٠٧.

(٢) الشهاب: ج ١٢، م ٦، ص ٨.

(٣) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص: ١٨١ ـ ١٨٢.

والعامة، عندما يقوم عامة الناس بأداء واجب الزيارة لهم «كان الإخوان ينتظمون في الحضرة وبينهم (الشاوش)، وهو الشخص الذي يتولى إدارة الحلقة، فيدعو كلاً بدوره ليدخل في الجذب حالة الوجد. فينتصب واقفاً، ويبدأ في حركات الذكر التي تتناغم مع إيقاع الشاوش، إذ يضرب على يديه فيشير إلى مراحل الذكر»[١] الذي هو منظومة خاصة بالطريقة على درجة كبرى من القداسة، تساوي السنة النبوية الشريفة. حتى صارت العلاقة التي تربط المريد والزائر بالشيخ، والتي هي علامة صدقه وإخلاصه في أتباعه له «أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله، ولن يبلغ مراده بدون ذلك»[٢].

وهكذا كان حال الطرقية والزوايا في ـ غالبه ـ والذي آلت إليه بعد أن أدت ـ من قبل ـ واجبات رسالية، كان أهمها وعلى رأسها حمل راية الجهاد ومقاومة المحتل الغازي. ولكن الاستعمار عرف كيف يستغل انحرافها عن نهجها الجهادي الأصيل، ويجعل منها مراصد لبث فكر تخديري، ومعتقدات فاسدة تزيد من قابلية الشعب للاستعمار. فنجد مثلاً: شيخ الطريقة ـ التيجانية سيدي محمَّد الكبير يقول في خطبة ألقاها أمام الكولونيل يسكوني في زيارة له:«إن من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا فرنسا مادياً وأدبياً وسياسياً. إن أجدادي قد أحسنوا صنعاً في انضمامهم إلى فرنسا، قبل أن تصل إلى بلادنا. ففي عام ١٨٣٢م كان أحد أجدادي قد أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا عبد القادر الجزائري. وفي عام ١٨٧٠م حمل سيدي أحمد تشكرات الجزائريين، وبرهن على ارتباطه بفرنسا قلبياً، فتزوج من أوريلي بيكار»[٣]. وكان هو أول مسلم جزائري تزوج بأجنبية، على يد الكاردينال لافيجري، وفق الطقوس المسيحية.

كما نجد رجلاً آخر منهم وهو الدوَّاجي عبد القادر إمام مدرس بمسجد

---

(١) مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص: ٤٩، وللتفصيل انظر مبارك محمَّد الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ففيه تفصيل واف للطرق، وبدعها التي ابتدعتها.

(٢) جريدة الشعب، ع: ١١٨٠، ص:٧.

(٣) الثقافة: س ٤، ع ٦، ص: ٣١ ـ ٣٢.

شرشال، يخطب عند الاحتفال بتدشين المسجد سنة ١٩٠٤م فيقول: «واعلموا أن هذه الدولة رحمة من الرحمن، تحث على نشر العلوم وإصلاح ما فسد، وقمع أهل البهتان. فلا يمكننا أن نتجاسر، فنلقي العداوة في قلوب حكومتنا، بل نبذل جهدنا في الطاعة والشكر لها؛ لمنافعها العظيمة»[١].

ويعتبرون أن وجود فرنسا في الجزائر، هو أمر اقتضاه وأراده ورضيه الله للأمة، فلا خيار لها في ذلك ولا مرد. فيقول أحدهم: «إذا كنا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله لنا ذلك، وهو على كل شيء قدير، فإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً. . . ولكنه كما ترون يمدهم بالقوة، وهي مظهر قدرته الإلهية. فلنحمد الله ولنخضع لإرادته»[٢].

وهكذا آل مآل الإسلام على يد الطرقية[٣] ورجالها، إلى صورة باهتة من التعاليم والهدايات، تخدر شعبا بكامله وتسلمه لنوم عميق، لا يعود يحس معه بآلامه، ومشاكله وبتعسف الاستعمار في حقه. فصار الشعب ـ رغم إسلامه الوراثي الشكلي «يدين بالوثنية التي قامت نصبها في الزوايا، هنالك كانت تذهب الأرواح الكاسدة لالتماس البركات، ولاقتناء الحروز ذات الخوارق والمعجزات»[٤].

وكان على حركة عبد الحميد بن باديس الجهادية أن تتحمل عبء إنقاذ الإسلام، وتجديد أمره وإحيائه، بعد أن صار غريباً ميتاً. وأن تواجه «أضداداً أشداء ما بين مستعمر صليبي حقود، وطرقي جاهل متعصب، وشباب متفرنج منحل، وأذناب من الموظفين الدينيين»[٥]. وأن تجابه أوضاعاً مزرية تعيشها الأمة

---

(١) الثقافة: س ٤، ع ٦، ص: ٣٣.

(٢) أساتذة: نوابغ العرب، ص: ٣٧.

(٣) لمعرفة أهم الطرق الصوفية في الجزائر انظر: عبد الرَّحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج ٣، ص: ٢٤٩ ـ ٢٦١.

(٤) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٢٨. وللتفصيل انظر محمَّد مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره.

(٥) د. محمَّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٩٢.

في جميع جوانب حياتها؛ أوضاعاً صنعها تخلف عقود طويلة من السنين، أوجدت مناخ القابلية للاستعمار في نفوس وواقع الأمة، وعمَّقها غزو حضاري شرس، يريد الإجهاز على أمة ومحوها من الوجود باستعماره الاستيطاني، حتى كان، «الفرد ـ يولد في هذه الأجواء ـ والتشاؤم يملأ أعماقه وروحه؛ لأنه كان يفقد الدوافع الوجودية الباعثة، التي تتيح للإنسان أن يكرس نفسه للحياة أو الموت، من أجل شيء معين»[١]؛ لأن شروط الحياة الدنيا لا يجدها أي واحد من أبناء الشعب، الذي يصف نفسه بالشعب «الميت الذي تحدثت بتعاسته الركبان»[٢]، والكل يقول بلسان حاله ومقاله:«نأكل القوت وننتظر الموت».

وختاماً نورد شهادات حية لرجال عاشوا وشاهدوا عن كثب مأساة شعب. فيقول الشيخ الطيب العقبي: «مضى حين من الدهر، وكل أديب مفكر وعالم نابغ في هذه البلاد، التي كثر الجاهلون بها، وقل العلماء فيها، يئن أنين الثكلى؛ ينادي ولكنه لا يسمع الموتى، وقد يصرخ وأين يذهب صراخه؟ في واد يباب، وربع خراب. يقضي أيام حياته بين التأسف والتأفف. وليس ذلك بمجديه شيئاً»[٣].

ويقول الأستاذ فرحات عبَّاس مصوراً تصويراً عاماً حالة الجزائر عند مطلع القرن الحالي:«جزائر الجحافل الدهماء من الأميين والبؤساء الجائعين، الجوع المدقع المزمن. جزائر الملايين من الأطفال المشردين، لا مدرسة لهم ولا مأوى، مطرودين منبوذين، لا قوت لهم ولا سلوى. جزائر مدن القصدير والأكواخ، يسكنها ملايين من التعساء، يفترشون حضيض الأرض، ويلتحفون بأديم السماء. جزائر تنشب فيها الموت أظفارها، فتأخذ من الأطفال كل سنة، عدداً لا يحصى. جزائر مرض السل، الذي اجتاح السواد الأعظم من الشعب. جزائر الحزن والأنين والجوع، والفقر والبؤس والجهل. امتدت لوامسها المروعة إلى ثروات الغير. إن تشريد شعب بأجمعه وتفقيره ونبذه وتجهيله، كل هذا انتشر

---

(١) مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص: ٢٦.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج ٢، ص: ٣٢٦.

(٣) المنتقد: س ١، ع ٥، ص: ١.

انتشاراً مهولاً كالبرص، فأصبح مرض بلادنا الخاص»[1].

ويسجل الأستاذ محمّد فريد وجدي صورة مأساة الشعب الجزائري، التي أدهشته من خلال رحلته التي قام بها إلى الجزائر ١٩٠١م، فيقول: «يعامل المسلمون في الجزائر بقوانين مخصوصة، في غاية الشدة والصرامة؛ فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع، بل من حرية السفر والانتقال، وحرية مطالعة الكتب والجرائد. نعم، يصعب على الذي يعرف حب الفرنسيين للحرية والمساواة، ويرى هذه الألفاظ السامية منقوشة على أبواب جميع المصالح والإدارة الأميرية أن يصدق ذلك. ولكن من يتكلف مشقة زيارة بلاد الجزائر؛ ليتحقق أن ما هو جائز في بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين في المستعمرات، وإن كان مباحاً للفرنسيين أو المتفرنسين؛ فلا يجوز لهم أن يؤلفوا أي جمعية ولو لفتح المدارس ونشر التعليم، أو لمجرد فعل الخير وإسداء المعروف، إلا بإذن مخصوص. وهذا الإذن لا يمنح مطلقاً. كما لا يجوز لهم تأسيس مطبعة أو جريدة، فلا يوجد في جميع إقليم الجزائر إلا جريدة المبشر؛ وهي جريدة رسمية تنشر الأوامر، وبعض الفصول في بيان فضل فرنسا على العرب، والحض على التعلق بالولاء لها.

هذا ومن الغريب في بلاد الجزائر، أنه لا يجوز للعربي أن يسافر خارج المركز الذي يقيم في دائرته، إلا بإذن من البوليس.

والأغرب من جميع ذلك، بل الذي لا يمكن وقوعه من أكثر الأمم احتراماً للقانون، وتمسكاً بالعدالة، أنه يجوز لجهات الإدارة أن تسجن أي عربي مهما كانت مكانته ومنزلته بين قومه؛ بمجرد اشتباهها في سلوكه أو في أمانته وإخلاصه، حتى بمجرد الظن بأن وجوده مطلق السراح، مضر بالأمن العام»[2].

هذه بعض ملامح الوضع في الجزائر الذي صنعه الاحتلال الفرنسي منذ دخوله غازياً في ٥ تموز ١٨٣٠م، والذي لقي منذ إنزال فصائل جيوشه الأولى

(١) فرحات عبّاس: ليل الاستعمار، ص: ١٢.
(٢) الثقافة: س ٤، ع ٦، ص: ١١.

بسيدي فرج، مقاومة عنيفة عارمة، هب لخوضها مجموع الشعب الجزائري، بكل ما أوتي من قوة، وما توفر له من أسباب الجهاد ورد العدوان.

وأخذت المقاومة في بدايتها شكل العمل العسكري المنظم، وغير المنظم أحياناً، وقامت عبر نقاط مختلفة من التراب الجزائري ثورات وانتفاضات مسلحة تجاوز عددها خمسة عشر ثورة وانتفاضة[1]؛ بدءاً بمقاومة الأمير عبد القادر وانتهاء بانتفاضة الأوراس التي كانت في سنتي ١٩١٦م و ١٩١٧م، والتي شملت مناطق عديدة من الشرق الجزائري بقيادة بن علي بن نوي الشيخ مقدم زغانة.

وبعد هذه الانتفاضة توقف جهاد الحركات الثورية المسلحة نهائياً في مجموع التراب الوطني عند مطلع القرن العشرين، ليفسح المجال من بعده للعمل السياسي والنقابي.

فكانت الحرب العالمية الأولى، وما صاحبها من وعي وحركة عالمية، سبباً في انتقال وظهور العمل السياسي في الجزائر؛ إذ كانت هذه الحرب بمثابة نقطة تحول نوعي في سلسلة تاريخ جهاد الشعب الجزائري، ضد الاحتلال الفرنسي.

فكان أن تنبه الجزائريون العائدون من المشاركة في الحرب العالمية الأولى - مجبرين من خلال التجنيد الفرنسي الإجباري القتال إلى جانب القوات الفرنسية والحلفاء - والتي خلفوا فيها أزيد من ثمانين ألف جزائري قتيلاً.

تنبهوا إلى أهمية وضرورة العمل السياسي السلمي، خصوصاً بعد أن أصدر الرئيس الأمريكي - آنذاك - ولسون مبادئه الأربعة عشر، التي تقر السلم العالمي بتحرير بلاد البلقان وإقرار استقلال بولونيا وتشيكوسلوفاكيا، وتأسيس عصبة الأمم؛ لحل النزاعات بين الدول سلمياً، وتقرير مصير الشعوب المستعمرة، وكذا اطِّلاع الجزائريين على أوضاع العالم الإسلامي والعربي والإفريقي، وما يحدث في دوله من تحركات، وما ظهر فيه من حركات، تسعى للتخلص من نير الاحتلال الأوربي لها.

فنتيجة لهذه الأسباب وغيرها، وبعد توقف الجهاد المسلح. بدأت تظهر -

(١) انظر جدول الثورات والانتفاضات المسلحة عند عبد الرَّحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام: ج ٧، ص: ٣٤٥ ـ٣٤٩.

مع مطالع القرن العشرين الميلادي، وبالضبط في عشرينياته ـ على الساحة الوطنية الجزائرية ـ حركات وأحزاب سياسية، وتنظيمات نقابية طلابية وعمالية، تسعى لممارسة العمل السياسي والنقابي، كوسيلة لمقاومة الاستعمار الفرنسي، واسترداد حقوق الشعب الجزائري، التي سلبت منه عنوة بالقوة.

وسنشير الآن إلى بعض أهم التشكيلات والحركات السياسية الوطنية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى على الساحة الوطنية، ومارست العمل السياسي المطلبي. ونردف ذكرها بالإشارة إلى نوع آخر من الحركات، التي قاومت وجاهدت الاستعمار الفرنسي، من خلال الموقع الثقافي والعلمي التربوي؛ وهي حركة الجهاد الثقافي والعلمي، الذي قام به علماء ومشايخ هنا وهناك.

ونبدأ أولاً بعرض الحركات السياسية، ونثنيها بعرض الحركات الثقافية الفكرية. وأولها حركة الأمير خالد الجزائري حفيد الأمير عبد القادر.

رابعاً: الحركات السياسية الجزائرية بعد الحرب العالمية الأولى:

١ ـ حركة الأمير خالد: "وحدة النواب المسلمين"

أ ـ مؤسسها:

هو الأمير خالد[1] بن الهاشمي بن الحاج الكبير بن الأمير عبد القادر الجزائري، كان ضابطاً في الجيش الفرنسي. ساهم معه، وقاتل في الحرب العالمية الأولى في صفوفه.

---

(١) الأمير خالد «ضابط، صحفي، من رجال السياسة. ولد في دمشق حيث استقرت أسرة جده الأمير عبد القادر، وتعلم بها وبثانوية لوي لوجران (Louis Le Grand) بباريس، ثم التحق بمدرسة «سان سير» العسكرية، فتخرج برتبة ملازم. وفي الحرب العالمية الأولى خدم في الجيش الفرنسي برتبة قبطان سبائحي. شارك بعد الحرب في الحياة السياسية الجزائرية.
حوكم من المحكمة القنصلية الفرنسية في الإسكندرية في شهر آب ١٩٢٥م فحكمت بسجنه خمسة شهور. واستأنف الحكم فأطلق سراحه، فتوجه إلى دمشق حيث قضى بقية حياته». عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى عصر النهضة، ص: ١٠٠.

ب ـ ماهيتها وظروف نشأتها:

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ورجوع الأمير خالد إلى الجزائر، اتصل بشخصيات جزائرية عضوة في المجالس البلدية والعمالية، وعرض عليهم تأسيس هيئة وطنية تتبنى مطالب الشعب الجزائري، وتعمل من أجل تحقيقها بإبلاغها للهيئات العالمية والفرنسية خاصة، خصوصاً وأن الظرف الزمني موات ومناسب لذلك؛ بعد إصدار ولسون لمبادئه السلمية العالمية. فحصل الاتفاق على تأسيس لجنة تضم وفداً؛ تنحصر مهمته في السفر إلى باريس؛ ليحضر أشغال ملتقى فرساي الذي يعقده الحلفاء آنذاك سنة ١٩١٩م، ويقدم عريضة للرئيس الأمريكي ولسون، يشرح له فيها وضعية الجزائر العامة تحت نير الاستعمار الفرنسي الاستيطاني، ويطالب فيها «بضرورة إدخال الجزائر تحت رعاية عصبة الأمم على أن تشرف عليها دولة تختارها تلك العصبة»[١]، وبتطبيق تصريحات الرئيس ولسون على الجزائر، وإعطاء أبنائها حق تقرير مصيرهم بأنفسهم، في كامل حرية الاختيار.

فحصل وتم سفر الوفد إلى باريس باسم الجزائر، ولكن الدول الخاضعة للاستعمار الأوربي خرجت من مؤتمر فرساي بلا شيء، وعاد الوفد الجزائري من باريس بلا نتيجة، فأنشأ حركة سياسية سميت (بوحدة النواب المسلمين). وهي حركة سياسية وطنية لا دينية. يقول عنها مؤسسها في تصريح له للجريدة الإيطالية لانازيون: «إن حركتنا ليست دينية، ولكنها بالقوة حركة سياسية؛ لأن القضية هي قضية استقلال جميع الأقطار الإسلامية»[٢].

وأسس الأمير خالد ـ مع الذين معه ـ جريدة الإقدام؛ لتكون لسان حال الحركة تحمل أفكارها، وتعبر عنها وعن أهدافها ومنهجها في العمل السياسي، وتبلغها للرأي العام الجزائري، والفرنسي وإدارته الاستعمارية. وكان صدورها يتم باللغتين العربية والفرنسية.

---

(١) تركي رابح: عبد الحميد بن باديس، ص: ٥٦.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٨٢.

ج ـ أهدافهـا:

كانت حركة وحدة النواب المسلمين بحكم عضوية مؤسسيها في المجالس النيابية، التي أسستها الإدارة الاستعمارية، تهدف إلى ممارسة عمل سياسي سلمي قانوني، لتبليغ مطالبها وتحقيق أهدافها. وبحكم التربية الثقافية ونزعة مؤسسها الإسلامية، كانت الحركة رافضة لسياسة إدماج الجزائريين بالتجنيس، ومطالبة بفكرة ومبدأ المساواة بين الجزائريين والفرنسيين، في جميع الحقوق والمطالب والامتيازات، بدون استثناء، ومن غير شروط.

فنجده يخطب أمام ميليران بمناسبة قدومه للجزائر في دار والي ولاية الجزائر، في احتفال رسمي أقيم على شرفه في أيار ١٩٢٢م، مبيناً له «أن الجزائريين يطالبون في الحال بالحريات المدنية من فرنسا، والترخيص لهم بتقلد جميع المراتب في العائلة الفرنسية بدون شرط. وبأن الجزائريين يجب أن يحصلوا على تمثيل نيابي في المجلس الوطني الفرنسي؛ لكي يعبروا عن أنفسهم إلى أم الوطن»[١].

وبلغة مفعمة بالترغيب والترهيب أشار الأمير خالد إلى أن أيدي وقلوب الجزائريين متجهة نحو فرنسا، وأنه يأمل أن لا تدفع إلى اتجاه آخر.

ثم أخبره «إنكم قد تجدون في الجزائر شعباً متخلفاً، ولكنكم لن تجدوا شخصاً واحداً ضد الفرنسيين» وختم خطابه بهتافه: لتحيا فرنسا! لتحيا الجزائر!»[٢].

وبقيت حركة النواب المسلمين تمارس عملها السياسي بقيادة رئيسها الأمير خالد، بصورة مكثفة لكنها محدودة جداً، وضيقة في محيط عملها ونشاطها. ونظراً لإصراره على مبدأ التعويض[٣]، دفع بالسلطات الاستعمارية إلى نفيه إلى الإسكندرية سنة ١٩٢٣م.

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٣٨٤.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٣٨٣ ـ ٣٨٤ بتصرف.

(٣) مبدأ التعويض: هو مبدأ نادت به فرنسا في مقابل مبدأ الخدمة العسكرية، تعوض للجزائريين كل الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون. وقد أقرته في قانون ١٩١٩م.

ويغتنم فرصة وجود رئيس الوزراء الفرنسي اليساري السيد هيريو سنة ١٩٢٤م، فيرسل إليه ـ من منفاه ـ رسالة ضمنها مطالب حركته، والتي عرفت فيما بعد باسم مطالب الأمير خالد العشرة وهي:

١ ـ تمثيل الجزائريين في المجلس الوطني الفرنسي، بنسبة متعادلة مع الأوروبيين الجزائريين.

٢ ـ إلغاء كامل ونهائي للقوانين والإجراءات الاستثنائية، وللمحاكم الزجرية، وللمحاكم الجنائية، وللرقابة الإدارية. مع تطبيق القانون العام الحقيقي والبسيط.

٣ ـ تطبيق نفس الواجبات ونفس الحقوق للجزائريين مثل الفرنسيين، بخصوص الخدمة العسكرية.

٤ ـ توصل الجزائريين إلى كل الدرجات المدنية والعسكرية، دون تمييز آخر، ما عدا الجدارة والقدرات الشخصية.

٥ ـ تطبيق كامل لقانون التعليم الإجباري على الجزائريين، مع حرية نشر التعليم.

٦ ـ حرية الصحافة والاجتماع.

٧ ـ تطبيق فصل الدين عن الدولة، على الدين الإسلامي في الجزائر.

٨ ـ العفو العام.

٩ ـ تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على الجزائريين.

١٠ ـ الحرية المطلقة للعمال الجزائريين في الذهاب إلى فرنسا»[١].

وبقي بمنفاه بدمشق من غير أن يجد لا هو ولا من كان معه أذناً تصغي لكلامهم ومطالبهم، وصوتهم الخافت. إلى أن وافته المنية سنة ١٩٣٦م. رغم أنه كحركة «لم يعد عاملاً هاماً في الحركة الوطنية»[٢]، بعد

(١) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العفون: الكفاح القومي والسياسي، ص: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٣٨٥.

سنة ١٩٢٥م خصوصاً، وقبلها عموماً؛ بحكم طبيعة عمله المحدود أشخاصاً وفئة، ومكاناً ومساحة، وبحكم جزئية مطالبه، التي اتخذت المطالبة السياسية بتحقيقها وسيلة.

٢ ـ حركة نجم شمال إفريقيا

أ ـ تأسيسها:

أسس حركة نجم شمال إفريقيا مجموعة من العمال المغاربة المهاجرين في فرنسا سنة ١٩٢٦م «والحق أن مؤسسي نجم شمال إفريقيا بدأوا نضالهم كأعضاء في النقابات العمالية الموالية للحزب الشيوعي؛ مثال ذلك: الحاج عبد القادر؛ الذي وضع نواة نجم شمال إفريقيا سنة ١٩٢٥م، وأحمد مصالي الحاج الذي انتقلت إليه زعامتها في العام التالي»[١].

وتعتبر النجمة من حيث التنظيم الداخلي أول حزب سياسي جزائري، مارس العمل السياسي في حدود معينة مشوبة بالعمل النقابي، ومحصورة في إطار العمال المهاجرين في فرنسا فقط. كما يعتبر «أول حركة سياسية جزائرية منظمة تنظيماً حزبياً عصرياً بجميع مؤهلاته»[٢]، ومواصفاته المعروفة حالياً.

وتحوم شبهة حول خلفيات وأسباب تأسيسه؛ تتمثل في أنه «تأسس بإيعاز من الحزب الشيوعي الفرنسي. وكان قصد هذا الحزب هو تكوين كتلة من العمال الشمال إفريقيين ليستعملها في أغراضه السياسية، بعنوان الدفاع عن حقوق العمال»[٣]. ويؤكد هذا شارل أندري جوليان بقوله: «إن الحزب الشيوعي الذي عجز عن استقطاب عمال شمال إفريقيا العاملين في فرنسا. رغب أن يحتويهم في تنظيم عربي لا شبهة عليه، ويحتفظ بهم في ظله»[٤].

وفي تموز عام ١٩٢٨م انتخب الحاج عبد القادر رئيساً للنجم، ومصالي

---

(١) صلاح العقاد: الجزائر المعاصرة، ص: ٣٣.
(٢) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون: المرجع السابق، ج ١، ص: ١١٩.
(٣) عبد الرّحمن بن إبراهيم بن العقون: الكفاح القومي والسياسي، ص: ١١٩.
(٤) شارل أندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير، ص: ١٣٩.

الحاج أميناً عاماً له. وحتى تعطى له صبغة وصفة الشمال إفريقيا، ويستطيع استيعاب العمال المغاربة «طالب مصالي الحاج بالاستقلال لأقطاره كلها»[١]، وكان النجم يحظى باحترام وتأييد وعطف «اليساريين الفرنسيين والأوربيين، والمنظمات المعادية للاستعمار»[٢].

ب - أهدافها:

كانت للنجم أهداف سياسية واجتماعية سعى لتحقيقها من خلال رفعها للإدارة الاستعمارية، وأهمها لم شمل العمال المغاربة المهاجرين للمطالبة بها. وأن لا يُفوِّت فرصة يستطيع من خلالها إبلاغ مطالب الحركة العمالية، والمطالب السياسية، إلا استغلها واستفاد منها؛ من ذلك شهود مصالي الحاج سنة ١٩٢٧م مؤتمر مناهضة الاستعمار الذي عقد في بلجيكا، وإرساله سنة ١٩٣٠م لمذكرة إلى عصبة الأمم يناشدها فيها مساعدته لتحقيق مطالب حزبه. كما استعمل في بداية عمله جريدة الإقدام التي أسسها الأمير خالد لنشر أفكاره، وتبليغ مطالبه وصوته. «وخلال العشرينات كان زعماء النجم ما يزالون منعزلين عن الوطن. وكان تأثيرهم فعالاً فقط بين المهاجرين في فرنسا وغيرهم من بلدان أوربا. ولم يستطع هؤلاء الزعماء أن يحملوا برنامجهم بفعالية إلى الجزائر، إلا خلال الثلاثينات»[٣] عن طريق جريدة الإقدام، وما كانوا يصدرونه من نشرات وكتيبات، وبواسطة العمال المهاجرين، الذين يعودون بين الحين والآخر إلى أرض الوطن، مغذى بعضهم بأفكار النجم.

وقد استهوت بياناته ومناشيره كثيراً من أبناء الشعب الجزائري؛ لما تضمنته من عبارات تستهوي قلوب وعواطف الناس. من ذلك المنشور الذي وزعه في حزيران ١٩٢٧م، والذي طالب فيه الجزائريين والتونسيين بأن «أعلنوا حقوقكم...ناضلوا لكي تحصلوا على حريتكم السياسية، وعلى تحسين أوضاعكم...وناشدوا إخوتكم الذين يعملون في الجيش الفرنسي، أن لا

(١) شارل روبير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ص: ٣٤.
(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٣٩٥.
(٣) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص: ٣٩٨.

يحاربوا ضد إخوتهم المغاربة... ليحيا أبطال استقلال المغرب العربي! ليحيا نضال كل مسلمي إفريقيا الشمالية للتحرر!»[1].

وما لبث النجم أن حل من طرف السلطات الفرنسية سنة ١٩٢٩م، ليصدر زعماؤه سنة ١٩٣٠م جريدة جديدة بعنوان (الأمة) لتكون لسان حال الحزب، ودعوا سكان شمال إفريقيا لقراءتها لأنها «تدافع عنكم، وتعلمكم وتثقفكم .... إنها ستكشف جميع الخونة، وكل المتعاونين، وكل أعداء وطننا وقضيتنا... إنها ستقودكم إلى الاتجاه الصحيح دون خوف ودون هزيمة... إنها ستصلكم بمعلوماتها بكل العالم الإسلامي، فاجعلوها تعيش وساعدوها واحموها، وحثوا غيركم على قراءتها، وانشروها في كل مكان؛ لكي تصبح الراية والمركز الذي تجتمع من حوله جميع القوى الحية، في إفريقيا الشمالية المسلمة»[2]. ولقد تمثلت مطالب نجم شمال إفريقيا في:

١ ـ إلغاء جميع القوانين الاستثنائية، وفي مقدمتها القانون الأهلي (لانديجينا).

٢ ـ العفو عن جميع المسجونين السياسيين.

٣ ـ حرية التنقل في فرنسا وخارجها.

٤ ـ حرية الصحافة والاجتماع، وتأليف الأحزاب ونقابات العمال.

٥ ـ الاستعاضة عن المجلس المالي ببرلمان جزائري، ينتخب على أساس الاقتراع العام.

٦ ـ إلغاء البلديات القروية المختلطة، والمناطق العسكرية.

٧ ـ المساواة في توظيف الجزائريين مع المستوطنين.

٨ ـ إنشاء التعليم الإلزامي، باللغة العربية، وإفساح المجال للطلاب الجزائريين لدخول المدارس على جميع المستويات، وجعل اللغة العربية رسمية في الدوائر.

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٤٠٣.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص: ٣٩٦.

٩ ـ تطبيق قوانين العمل على الجزائريين، بما في ذلك حق التعويض على البطالة.

١٠ ـ زيادة القروض الزراعية إلى صغار الفلاحين الجزائريين، وتنظيم وسائل الري وطرق المواصلات.

والقسم الثاني منها ضمنه المطالبة بالاستقلال الكامل، وسحب القوات الفرنسية من البلاد، وتأليف جيش وطني، وقيام حكومة وطنية تتولى تنفيذ الإجراءات التالية:

١ ـ إقامة جمعية تأسيسية تنتخب على أساس الاقتراع العام.

٢ ـ الاقتراع العام على جميع المستويات، في جميع المجالس.

٣ ـ استخدام اللغة العربية كلغة رسمية.

٤ ـ تملّك الدولة الجزائرية لجميع الممتلكات، بما فيها المصارف والمناجم، والسكك الحديدية، والموانئ، والمراقبة العامة.

٥ ـ مصادرة الأملاك الكبيرة، وإعادتها إلى الفلاحين، مع إعادة أملاك الدولة والغابات.

٦ ـ التعليم الإلزامي المجاني باللغة العربية، على جميع المستويات.

٧ ـ اعتراف الدولة الجزائرية بحق النقابات في تأليف الاتحادات والأحزاب، وإبداء الآراء في القوانين الاجتماعية.

٨ ـ مساعدة المزارعين فوراً، عن طريق تقديم القروض إليهم بدون فائدة؛ لشراء الآلات والبذور والسماد، وتنظيم وسائل الري، وتحسين طرق المواصلات»[١].

---

(١) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون: الكفاح القومي والسياسي ج ١، ص: ١٢٩ ـ ١٣٠، وانظر أيضاً د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٤٠١ ـ ٤٠٢. ود. تركي رابح: عبد الحميد بن باديس، ص: ٦٠ ـ ٦١. ود. صلاح العقاد: محاضرات عن الجزائر المعاصرة، ص: ٣٤ ـ٣٥.

وفي سنة ١٩٣٤م أعاد مصالي الحاج تكوين النجم باسم جديد هو الاتحاد الوطني لمسلمي شمال إفريقيا. ليُحَل من قبل السلطات الاستعمارية في ٢ كانون الثاني ١٩٣٧م. فيؤسس من بعده في ١١ آذار من السنة نفسها حزب الشعب الجزائري «وكان برنامجه نفس برنامج النجم تقريباً، وكان يطالب بدستور وبرلمان جزائري منتخب بطريقة الاقتراع العام من جميع فئات الشعب الجزائري، وفكرة البرنامج العامة هي بناء وطن جزائري في شمال إفريقيا، واحترام الأمة الجزائرية، واحترام اللغة العربية والإسلام»[١].

وعمل الحاج مصالي على نقل حزب الشعب من فرنسا إلى الجزائر؛ ليفتح له فروعاً ويؤسس له مكاتب بعمالات الوطن الثلاث الوسطى بالجزائر، والغربية بوهران، والشرقية بقسنطينة. ولكنه لم ينجح في ذلك كثيراً، ولم يلق حزبه قابلية كبيرة، وصدى واسعاً خصوصاً في الشرق الجزائري مكاناً، وبعد ظهور جمعية العلماء زماناً.

وباندلاع الحرب العالمية الثانية، توقفت حركة الحزب ونشاط أعضائه، «لكون معظم أعضائه من الشباب، الذين التحقوا بالخدمة العسكرية، حسب قانون التجنيد الإجباري. ولم يبق إلا القليل، الذين استمروا في نضالهم لصالح الحزب»[٢]. إلى أن تم حله من قبل الإدارة الاستعمارية، في أثناء الحرب. «ورغم ما لحق بأعضاء الحزب من نفي وسجن وتغريم، فقد ظل بعض مناضليه يعملون على مستوى الأفراد، دون أن يكون لهم تنظيم سياسي، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية»[٣].

٣ ـ حركة اتحاد المنتخبين المسلمين الجزائريين

أ ـ نشاتها وماهيتها

ظهرت هذه الحركة إلى الوجود في ١٨ حزيران ١٩٢٧م، بعد اتصال

---

(١) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، ص: ٢٢٤.

(٢) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، ص: ٢٢٥.

(٣) عبد الكريم بوصفصاف: المرجع نفسه، ص: ٢٢٥.

واتفاق بين مجموعة من المنتخبين الجزائريين في المجالس البلدية والعمالية في العمالات الثلاث، وانضم إليها أطباء ومحامون وصيادلة، وكتاب وقضاة، وأساتذة وأعيان وأشراف وأصحاب جاه؛ منهم الدكتور ابن التومي، بلحاج، الزناتي، الفاسي، فرحات عبَّاس، ابن جلول، سعدان. . .

وكان يترأسها على مستوى الجزائر العاصمة الدكتور بشير، وعلى مستوى قسنطينة الدكتور ابن التهامي، وفي وهران السيد مكي.

يصف الكاتب الفرنسي الاشتراكي جون جوريس «النخبة الجزائرية بأنهم أناس ضائعون بين الحضارتين العربية والأوربية. ويقال إنه قال عنهم: «إننا فرقنا الشبان الجزائريين بين حضارتين، وسرعان ما فقدوا الاتصال بحضارتهم، ولكنهم غير قادرين على الدخول في حضارتنا إلا بصعوبة. . .». وهذه الجماعة لم «يتبنوا أفكار الغرب ووسائل عيشه، وطريقته في العمل. . . . وثقافته وتعليمه فقط، بل أيضاً أرادوا أن يحولوا المجتمع الجزائري إلى مجتمع أوربي».

علاوة على ذلك، و «نظراً لتعليمهم، فقد شعروا بأنهم قُطِعوا من بقية المجتمع الذي كان غريباً عنهم. لقد كانوا يشعرون بعقدة الكمال بالنظر إلى المجتمع الجزائري، ولكن كانوا يشعرون بعقدة النقص بالنظر إلى المجتمع الفرنسي، ونتيجة لذلك ضاعوا، كما قال جوريس بين مجتمعين»[١].

ب ـ أهدافها:

وكانت تهدف حركة اتحاد المنتخبين المسلمين الجزائريين، إلى التحقيق الفعلي والعملي للاندماج مع فرنسا كمرحلة أولى، من مراحل التحرر من الاستعمار، مع وجوب الانتباه إلى مفهوم الإدماج في قاموس المدرسة الاستعمارية الفرنسية، والذي يتحدد مفهومه في «إدماج أرض الجزائر في فرنسا، لا التسوية بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق، كما يقضي بذلك منطق الإدماج. فهو إذن إدماج بالنسبة للمستعمِرين، ولكنه إخضاع بالنسبة للسكان الأصليين»[٢].

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ١٦٩ بتصرف.

(٢) د. تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص: ٦٣.

ولذلك نجدها فيما بعد، تتبنى مشروع بلوم فيوليت «الذي ينادي بإعطاء الجنسية الفرنسية لعدد محدود من الجزائريين، بدون إلزامهم بالتخلي عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي»(١).

ومن مطالبهم التي قدموها للإدارة الفرنسية، وعملوا من أجل تحقيقها كأهداف لحركتهم؛ ما تضمنته العريضة التي قدموها للحكومة الفرنسية، وطالبوا فيها «بالإضافة على بعض التحويرات في قانون التجنيد الإجباري، بإلغاء الإجراءات الاضطهادية، وتمثيل نيابي جدي وكاف للجزائريين في جميع المجالس، وتوزيع عادل للضرائب، والمساواة في جميع فوائد الميزانية»(٢).

ولم يكونوا يشترطون إلا شرطاً واحداً ـ ظاهرياً ـ على الإدارة الفرنسية وهو «أن لا تطلب منهم التخلي عن أحوالهم الشخصية كمسلمين»(٣).

ولكن ورغم ذلك، فقد تزوج الكثير منهم بفرنسيات «وتكلموا اللغة الفرنسية، وعاشوا مع المجموعة الفرنسية، وأرسلوا أطفالهم إلى المدارس الفرنسية؛ محاولين أن يخرجوهم على الطريقة الفرنسية»(٤).

ولم تتسع دائرة عملهم لتستوعب وتستقطب أعداداً من الشعب الجزائري عامة، والشباب خاصة؛ لعجزهم عن إحداث تغيير نفسي وخلق وقيم في المجتمع الجزائري؛ حيث اصطدموا «بأمية وكسل وارتخاء، وضياع شباب المدن الجزائرية، الذي يستيقظ على الحادية عشر صباحاً، ويقضي الليل باحثاً عن البغايا والمخدرات»(٥).

كما لم يرق لهم موقف العلماء من التجنس، وإصدارهم لفتوى في حق من يتجنس بالجنسية الفرنسية بأي شكل من الأشكال والصور؛ ولذلك «كانوا ينظرون

---

(١) د. تركي رابح: المرجع نفسه، ص: ٦٤.
(٢) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص: ١٧٢.
(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ١٧١.
(٤) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص: ١٧٠.
(٥) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص: ١٧٤.

إلى الدين الذي وقف حجر عثرة في طريق التجنيس، على أنه قضية ضمير شخصي، وليس قانوناً ينظم حياة المسلم»[1].

وهكذا بقيت جماعة النخبة مصرة على مطالبها الاندماجية، واقفة موقف المعجب المندهش من فرنسا، وساعية قدماً نحو محاكاتها ثقافياً، والذوبان فيها حضارياً، حتى أن فرحات عبّاس تجرأ بكتابة مقال سنة ١٩٣٦م بعنوان (على هامش الوطنية، فرنسا هي أنا)[2].

ومما تم عرضه فيما سبق، يتضح أن الشعب الجزائري، بعد أن خاض النزال والجهاد العسكري ضد دخول القوات الفرنسية واحتلالها الجزائر، منذ أن اقتربت بوارجها الحربية من المياه الإقليمية الجزائرية، إلى غاية الحرب العالمية الأولى؛ أي مدة تسعين سنة، وهو يخوض حروباً مسلحة، ويقوم بحركات جهادية ثورية. بعد هذا كله رأى بعض الجزائريين الذين سمحت وأتيحت لهم فرص الاحتكاك بخارج الوطن، ومشاهدة ـ عن كثب ـ مستوى تطور ونضج وأهمية العمل السياسي في أوربا وفرنسا، وباتصالهم بأبناء المستعمرات والمجندين ـ إجبارياً ـ في جيوش مستعمريهم واحتكاكهم بهم، عرفوا أحوالهم وأحوال أوطانهم وطرائق ووسائل وأساليب المقاومة فيها، للتحرر من ربقة الاستعمار الأوربي، الذي احتل بلدانهم وعاث فيها فساداً، بالعباد والبلاد.

ونظراً لتجربة بعضهم في ممارسة العمل النقابي والسياسي، من خلال الانخراط ـ خصوصاً ـ في هيئات وجمعيات ونقابات عمالية فرنسية، ارتأوا إحداث نقلة نوعية في مقاومة الاستيطان الفرنسي بالجزائر بترك العمل المسلح، واعتماد وسيلة تأسيس الأحزاب والجمعيات والاتحادات؛ التي تتبنى العمل السياسي والمطالب السياسية، وتسعى من خلال الحوار والاتصال المباشر وغير المباشر ـ مع احترام القوانين السارية المفعول ـ سواء بالمحتل نفسه بأشخاصه ومؤسساته، أو بالاتصال بشخصيات أو هيئات سياسية؛ لرفع عرائض مطلبية لها، ومطالبتها بالتدخل لحل مشاكل الجزائر والشعب الجزائري، أو مساعدة ممثليها في ذلك.

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص: ١٧٦.

(٢) انظر مقاله في جريدة: ٢٧- ٠٢-١٩٣٦: L'entente.

وبإيجاز يمكن ـ بعد أن عرضنا بعض أهم التشكيلات السياسية الوطنية، التي ظهرت في مطلع عشرينيات هذا القرن ـ الخروج بتقييم عام لها، يعطينا صورة لأهم خصائصها ومميزاتها، على النحو التالي:

أ ـ إن هذه الأحزاب لم يكن لمؤسسيها نضج ووعي سياسي كبير، ناتج من معرفة دقيقة وعميقة وواقعية بالأمة وأحوالها، ومستوى وعيها ونضجها من جهة، وبطبيعة العمل والصراع السياسي وآلياته وأساليبه وفنياته من جهة أخرى، مع إدراك الفارق الشاسع، الذي لا يسمح إطلاقاً بإجراء المقارنة بين البيئة المستعمِرة وخصائصها ومستواها العلمي والعمالي، والبيئة المستعمَرة. هذا الفارق الذي يتحكم بشكل واضح وأساسي وقوي في قيام وظهور العمل السياسي ومؤسساته، ونجاح أو فشل مساره ونشاطه.

ب ـ لم يحقق العمل السياسي الذي مارسته ـ خصوصاً ـ الأحزاب السياسية الوطنية التي سبق التعرض لها، نتائج عملية تذكر في مجال تغيير عقلية الشعب ونفسيته وأخلاقه، وإعادة بناء شخصيته، وغربلة وتنظيم عالم أفكاره، الذي يتحكم في تحديد نوعية شخصيته ومستوى فعاليته في مجالات الحياة المختلفة، ولم تستطع أن تبث وعياً سياسياً يؤدي ـ بالضرورة ـ إلى قيام حركة اجتماعية عامة في اتجاه واضح ومحدد؛ لأنها اصطدمت بواقع غير مؤهل ـ بعد ـ لهذا النوع من العمل وأساليبه، وغير مستعد لأن يسير ـ بعيداً ـ في هذا الطريق. ولذلك اعتمدت حمل مطالبها مكتوبة على الورق من غير أن يكون معها ووراءها سند شعبي، وقوة جماهيرية تعطيها قوة ضغط على الاستعمار؛ ليحققها وينفذها كلياً أو جزئياً، بل بعض الأحزاب كانت تصم الإدارة آذانها عن سماع تمنياته، وهمساته الخافتة الباهتة.

ج ـ إن العمل السياسي الذي مارسته هذه الأحزاب وغيرها، كان عملاً نخبوياً وفئوياً، وبعضها كان أقرب إلى العمل النقابي منه إلى العمل السياسي الحزبي. ولذلك لم يحظ بالتفاف شعبي واسع حوله، يتبنى أفكاره وطروحاته، ويهيكل نفسه في مؤسساته وهياكله. وهذا مما حكم عليها بالفشل، والانعزال عن الشعب أشخاصاً ومؤسسات وأفكاراً، والانحصار ـ بالتالي ـ زمانياً ومكانياً وشعبياً.

د ـ ونظراً لأن الاستعمار لم يُلق اعتباراً كبيراً لنشاط هذه الهيئات السياسية، ولم يصغ باهتمام لمطالبها الخيالية والنظرية، ولأنها اصطدمت بمستوى الشعب الجزائري الفكري والنفسي والخلقي والثقافي، الذي كان يغط في نوم عميق منذ أمد بعيد، وبواقعه ـ العام ـ المزري، ولأنها لم تنطلق من عمق أحضان الشعب، ولم تخاطبه باللغة التي يفهمها، وبإسلامه الذي هو المغير والمحرك والدافع الوحيد له نحو التغير والتغيير لما بنفسه ولما حوله؛ ولم تعش آلامه، ولم تتحمل عناء تربيته وتغييره. نظراً لكل ذلك؛ لم يتحرك العمل السياسي في الجزائر في عشرينات هذا القرن تحركاً واسعاً، ولم يلق النجاح والصدى اللذين وجدهما ـ وما يزال ـ في الأمم المتحضرة. مما دفع ببعضه إلى التجمد والتوقف عن العمل والممارسة، ودخول مقبرة التاريخ وهو في المرحلة الجنينية من عمره. وبعضه استفاد ـ من بعد ـ من التغيرات التي حدثت في بنية وتركيبة المجتمع الجزائري النفسية والفكرية نتيجة العمل الإصلاحي الجهادي التغييري، الذي قام به ابن باديس والعلماء، ووجد الأرضية التي ـ هيأها الآخرون ـ لينطلق منها ويعمل فيها.

خامساً: الحركات الجهادية الثقافية:

إن جهاد الشعب الجزائري في الثغر الثقافي؛ للمحافظة على خصائصه الذاتية، وهويته ومقومات شخصيته المميزة له، بصفته مجتمعاً جزائرياً مسلماً منتمياً ـ كباقي شعوب الأمة الإسلامية كلها ـ إلى حضارة واحدة، وتاريخ واحد، وقيم أخلاقية واحدة، ودين واحد، ولغة واحدة، أخذ طابع المحافظة الوراثية القوية والمتينة لكل ما ورثه عن آبائه وأجداده، بغض النظر عما يختلط بهذا الموروث الثقافي والتراث الفكري والحضاري، من أوباش وإضافات تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، والمتمثلة في العادات والتقاليد الخاطئة، ومحدثات البدع، وضلالات المتأخرين من الناس. والذي أخذ شكله وصورته ومحتواه وطابعه المألوف، في الزوايا والطرق الصوفية ورجالها، والكتاتيب، والمساجد، ورموز المجتمع من علماء ومشايخ، الذين كان ينظر إليهم المجتمع بعين الإجلال والتوقير، والاحترام العظيم.

ويكفي أن نشير هنا إلى أن معظم الحركات الجهادية الشعبية المسلحة، التي قاومت الاحتلال الفرنسي، انبعثت وانطلقت من الزوايا والكتاتيب والمساجد. وأن قادتها كانوا رجالاً يُشهد لهم بالتقوى والإيمان والصلاح، وشدة الاعتصام بالدين؛ من ذلك حركة الأمير عبد القادر، المقراني، بومزراق، الحداد، أولاد سيدي الشيخ بوعمامة، وقبلهم لالا فاطمة نسومر بجرجرة، والسنوسيين بالصحراء... وغيرهم.

وصحبت هذه الجهود الجهادية الثورية الجماعية المباركة، جهود فردية لعلماء جزائريين كبار، سخروا حياتهم وجهودهم لإحداث حركة ثقافية وعلمية وفكرية في أوساط الأمة بمختلف شرائحها الاجتماعية، تعيد للدين شبابه وحياته، وتنفي عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. ولتجدد أمره وعرضه على الناس بعد بلى، ولتعيد للأمة حياتها وحيويتها وفعاليتها؛ بتجديد تربيتها على مائدته، وحملها على الالتزام بتعاليمه، واعتصامها بحبله، حتى لا يبقى تدينها وراثياً سلبياً. لأن هذا النوع من التدين «حفظ للأمم الضعيفة المتمسكة به ـ وخصوصاً العربية منها ـ شخصيتها ولغتها، وشيئاً كثيراً من الأخلاق ترجح به الأمم الإسلامية إذا وزنت بغيرها، ومن ذلك خلق العفة والطهر... لكن هذا الإسلام الوراثي لا يمكن أن ينهض بالأمم؛ لأن الأمم لا تنهض إلا بعد تنبه أفكارها وتفتح أنظارها. والإسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر»[1]. ولا ينفع الأمة لا في حياتها ولا بعد مماتها. خصوصاً بعد أن شاهد المسلمون زحف الغرب عليهم، وأدركوا مستوى تخلفهم الحضاري، مقارنة بالمستوى الحضاري الذي يتمتع به المستعمر.

ومن بين العلماء المجاهدين الذين ساهموا بقسط وافر، وبشكل كبير وواضح في إعادة تجديد أمر الدين وأمر الأمة. الإمام عبد القادر المجاوي، والشيخ صالح بن مهنا، وهما اللذان سنأخذهما مثالين عن الحركة الجهادية الثقافية.

---

(١) الشهاب: ج ٣، م ١٤، ص: ١٠٦.

١ ـ حركة الشيخ عبد القادر المجاوي:

ولد الشيخ عبد القادر المجَّاوي بتلمسان سنة ١٢٦٤هـ ـ ١٨٤٨م[١]، وينتمي لأسرة عريقة في المجد والعلم، حفظ القرآن صغيراً بكتَّابها، ودرس بطنجة الابتدائية والثانوية، ثم أكمل دراسته العليا في جامع القرويين «ويعتبر واحداً من كبار العلماء»[٢].

استقر بقسنطينة لممارسة النشاط الإصلاحي؛ لما رآها أنسب وأليق بذلك، ولما اتصفت به من شدة محافظتها على الدين، وقوة إقبالها على رجاله، ولما عرفت به ـ تاريخياً ـ بأنها «في الوعي أحسن جهات الوطن»[٣].

«فابتدأ التعليم والإصلاح فيه، وكان عمره نحو اثنين وعشرين عاماً»[٤]، وأقبل عليه أهل قسنطينة كباراً وصغاراً لينهلوا من علمه، وليأخذوا بإرشاداته وتوجيهاته «واشتهرت مدرسته، وتكاثر فيها الطلبة، وطار صيته في أنحاء الولاية وكادت مدرسته الصغيرة أن تصبح معهداً كبيراً، يشتمل على التلاميذ من كل الجهات»[٥]، واتجه عمله وانحصر في التربية والتعليم للصغار خاصة، وللكبار عامة «فكان يعظ الناس ويرشدهم أينما اجتمع بهم، فينفخ فيهم روحه،

---

(١) (هو عبد القادر بن محمَّد بن عبد الكريم بن عبد الرَّحمن المجَّاوي ولد بتلمسان، وتعلم بها وبطنجة وتطاوين. عين مدرساً بجامع الكتاني بقسنطينة، ثم بالمدرسة الكتانية. ونقل إلى مدينة الجزائر سنة ١٢٩٦هـ/١٨٩٨م، وولي التدريس في القسم العالي بالمدرسة الثعالبية، خرَّج أفواجاً من القضاة والمترجمين والمدرسين والأئمة والوعاظ، فلا نجد أحداً من هؤلاء في الربع الأول من هذا القرن إلا وهو من تلاميذه.
مات بقسنطينة، من آثاره: اللُّمع في إنكار البدع منظومة ـ إرشاد المتعلمين ـ نصيحة المريدين. وغيرها كثير). عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
وانظر ترجمة حياته أيضاً عند محمَّد علي دبوز: نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج ١، ص: ٨٢ ـ ٨٣. وعند أبي القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني، ص: ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٢) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص: ٨٦ ـ ٢٨٧.

(٣) محمَّد علي دبوز: نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج ١، ص: ٩٦.

(٤) محمَّد علي دبوز: المرجع نفسه، ص: ٨٨.

(٥) محمَّد علي دبوز: نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج ١، ص: ٩٦.

ويدعوهم للنهوض والاعتناء بالتربية والتعليم»[١]. ويحذر جموع الناس في دروسه ومواعظه واجتماعاته بهم من مضار البدع ومخاطرها، ويفرق لهم بين ما هو من الدين، وما هو من البدع والضلالات، التي ألحقت به ظلماً وزوراً «فكان حرباً على الخرافات والبدع التي انتشرت في المجتمع، يهاجمها وأصحابها في دروسه، ويقنع العامة بأدلته، ويبين لهم بفصاحته أضرارها وفتكها بهم، فيطهر عقولهم مما كان يحجب عنها النور. وقد ألف فيها منظومة سماها اللُمع في إنكار البدع»[٢].

ولم يستثن من تحذيره ـ في دروسه التوجيهية ـ للناس تحذيرهم من عمل الإرساليات التبشيرية التي تتخفى وتتموه بأستار مختلفة، وتخدع عقول العامة بدعاوى باطلة منتحلة، والذين استطار شرهم في المجتمع، بعد أن أطلق الاستعمار أيديهم وفسح لهم المجال، ومنحهم كل التسهيلات والإمكانات المادية والمالية؛ ليعبثوا بعقول الناشئة خاصة «فكان في دروسه للتلاميذ، وفي وعظه للعامة، وفي مجالسه يهجم على المبشرين، ويشرح سمومهم وكيدهم للإسلام والمسلمين، ويفند دعاويهم التي يموهون بها على العامة»[٣].

كما نجده يعمل على تحرير العقول من التخدير الذي طبعها وشلها وأماتها، من تهويمات الطرقية وأذكارها وأعمالها المبتدعة، ويرشدها بتعاليم الإسلام لأن تنهض وتتحرر من أسرها «فكان يهجم على الجمود والتعصب في الدين، ويندد بالطرقيين الضالين، الذين يستخدمهم الاستعمار لتشويه سمعة الإسلام، وتخدير المسلمين وقتلهم»[٤].

وولي التدريس في القسم العالي بالمدرسة الثعالبية مدة طويلة من الزمن، خرَّج فيها أفواجاً من القضاة والمترجمين والمدرسين والأئمة والوعاظ، فلا تجد أحداً من هؤلاء في الربع الأول من هذا القرن، إلا وهو من تلامذته»[٥].

---

(١) محمَّد علي دبوز: المرجع نفسه، ج ١، ص: ٩٧.
(٢) محمَّد علي دبوز: المرجع نفسه، ج ١، ص: ٩٠.
(٣) محمَّد علي دبوز: المرجع نفسه، ج ١، ص: ٨٨.
(٤) محمَّد علي دبوز: المرجع نفسه، ج ١، ص: ٩١.
(٥) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص: ٢٨٧.

ولكن الإدارة الاستعمارية برجالها ومعاونيها تنبهت إلى عمل الرجل، وخطره عليها وعلى مصالحها، فاستدعته سنة ١٨٣٧م، وعرضت عليه الوظيفة في أكبر جامع في قسنطينة؛ في جامع الكتاني، كوسيلة وسبب لمنعه بعد ذلك؛ «لأنه علم أنه إذا امتنع من قبول التدريس في الجامع الذي كان تحت سيطرة الحكومة، فإن الاستعمار سيخلق له الأسباب فيمنعه من التدريس ، أو يفرض عليه قيوداً تقصر خطواته، وترهق أنصاره ومؤيديه، فينفضون عنه. وقد تسجنه وتنفيه»[(١)].

فقبل المنصب ليفوت الفرصة عليهم، ولعلمه بالتفاف الناس حوله، ومساندتهم له: «فأحياه وأشرق بدروسه، وانهال الناس عليه فصار يمتلئ ويكتظ، وأصبح أكبر منبع للنور»[(٢)]. ومكث فيه خمس سنين، إلى أن تم إبعاده من طرف الإدارة الاستعمارية، إلى الجزائر العاصمة سنة ١٨٩٨ م خوفاً من العواقب»[(٣)]. وهناك مارست معه أسلوب الترغيب؛ فمنحته عدة أوسمة ونياشين[(٤)]، و«طفقت تنقله من مكان إلى آخر ،حتى قيل أنه مات مسموماً[(٥)]. حسب رواية الشيخ إبراهيم أطفيش وهو من تلامذته»[(٦)].

وقد ترك كتابات على غاية من الأهمية؛ بالنظر إلى مواضيعها ومضامينها، قياساً بتلك الفترة التاريخية. وكانت كلها «موجهة ضد الآفات الاجتماعية والخرافات، والعادات القديمة، التي كان يراها في الحقيقة مصائب. وكان ينادي بالإصلاح الاجتماعي، والتعليم واليقظة»[(٧)]. ولم يهتم بالتأليف فحسب، بل كان يدعو الفئة المثقفة خاصة «إلى الأخذ بالعلوم العصرية واللغات الأجنبية، ومن

---

(١) محمّد علي دبوز: نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ص: ٩٧.
(٢) محمّد علي دبوز: المرجع نفسه، ص: ٩٧.
(٣) محمّد علي دبوز: المرجع نفسه، ص: ١٠١.
(٤) محمّد علي دبوز: المرجع نفسه، ص: ١٠٠ ـ ١٠١.
(٥) محمّد علي دبوز: المرجع نفسه، ص: ١٠٥.
(٦) شوقي أبو خليل: الإسلام وحركات التحرر العربية، ص: ٨٧.
(٧) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية ج ٢، ص: ١٥٦. وانظر مؤلفاته عند أبي القاسم محمّد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني، ص: ٤٥٦.

ثمة النهضة الوطنية»[1]، وألف في ذلك كتاباً سماه إرشاد المتعلمين «استقبلته الفئة الوطنية بالترحيب. بينما كالت الأوساط الاستعمارية لصاحبه الشتائم والاتهامات»[2].

وكانت وفاته رحمه الله سنة ١٣٣٢هـ ١٩١٣م، مخلفاً من ورائه كثيراً من العلماء والأئمة والمدرسين والوعاظ[3]؛ منهم ـ على الخصوص ـ تلميذه وأستاذ ابن باديس الشيخ محمَّد حمدان لونيسي.

٢ ـ حركة الشيخ صالح بن مُهنّا[4]

هو واحد من رجال ورواد الحركة الإصلاحية، الذي سخر حياته لمحاولة إحداث تغيير اجتماعي وفكري وثقافي بقسنطينة خاصة؛ حيث شرع «في إلقاء الدروس، وبصفة دائمة بالزاوية الحنصالية تطوعاً لتلامذته في جميع المواد الدراسية، وللعوام الذين تأثروا بدرسه في الحديث النبوي الشريف من أول وهلة. فكان الناس يأتون إلى الزاوية الحنصالية للصلاة، ولسماع درس الشيخ صالح القيم والمفيد، في هذه الزاوية»[5].

وقد قضى مدة ثلاثين سنة مدرساً وواعظاً ومربياً، ومعلماً بالزاوية والجامع الكبير بقسنطينة وغيرهما؛ ينبه الناس إلى مضار البدع التي يفعلونها وخصوصاً ما

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج ٢، ص: ١٩٤.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص: ١٩٤.

(٣) انظر قائمة تلامذته الذين تخرجوا على يديه عند أبي القاسم محمَّد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ص: ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٤) (هو صالح بن مهنا القسنطيني الأزهري، عالم سلفي من رواد الحركة الإصلاحية الذين حاربوا البدع. ولد في قرية العشرة كركرة من نواحي القل ،ونشأ بقسنطينة وتعلم بها وبتونس، ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم بالأزهر. وعاد فاشتغل بالتدريس في قسنطينة حتى مات بها، من آثاره:
ـ تنبيه المغترين في الرد على إخوان الشياطين.
ـ الفتح الرباني في الرد على المهدي المغربي الوزاني. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص: ٣٢٣.

(٥) سليمان الصيد: صالح بن مهنا، ص: ٥١.

شاع وقتئذ من ولائم تذبح عند الأولياء، الذين يلجأ إليهم عوام الناس للسؤال. فيقول: «ومن هذا القبيل ما يفعله بعض الناس في هذه البلاد من الطعام المسمى عندهم بالزردة، فيذبحون فيه جملة من إخوانهم البقر، في وقت معلوم بقصد الشهرة، ولو قيل تصدقوا بهذا الطعام سراً على المحاويج - وهم كثيرون - بجوارهم لامتنعوا؛ لأنه يفوتهم غرض الشيطان ويثقل عليهم، مع أن صدقة السر أعظم أجراً وأقل تعباً. وأما ما يفعلونه فإنه أكثر تعباً وأقل أجراً، إن لم نقل رياء، لا أجر فيه أصلاً»[١].

وهكذا اجتهد الشيخ صالح بن مهنا في محاربة وثن الطرقية، القابع والقائم في الزوايا والأضرحة، والذي تقصده الأرواح الكاسدة للتبرك به، وأخذ جرعات من مسكنات الآلام والمأساة التي يعيشها في واقع الحياة. وكان دؤوباً في عمله لا يعرف انقطاعاً عنه حتى «أن صوت مناجاته كاد يوقظ أهل قسنطينة سنة ١٨٩٨م؛ إذ أنه قام قومة مباركة ضد الخرافيين (الدراويش) »[٢].

وانتبه الاستعمار إلى الرجل وعمله الذي يوقظ النيام، من سبات تخلف يحرص الاستعمار وحراسه على بقاء الشعب فيه. فأوقفه عن الإمامة بالجامع الكبير مدة ثلاث سنوات، لينقله بعدها إلى مسجد صغير يسمى (سيدي عثمان) مدة من الزمن، ليعود بعدها خطيباً بالجامع الكبير، بالتناوب مع الشيخ الزواوي.

ولم يتوقف عمل الإدارة الاستعمارية ضده بتوقيفه عن الإمامة بالجامع الكبير فحسب، بل ألقت عليه القبض، واستولت «على مكتبته الثمينة، ونقلتها إلى دار الولاية للاطلاع عليها، والبحث عن أفكاره من خلالها . . . واستدعت النائب الفرنسي المستشرق البان روزي؛ للبحث عن آراء الشيخ بن مهنا في كتبه»[٣].

ولكن المستشرق تنبه إلى الآثار الخطيرة التي من الممكن أن يثيرها أمر

---

(١) سليمان الصيد: صالح بن مهنا، ص: ٨٨.
(٢) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٢٣.
(٣) سليمان الصيد :المرجع السابق، ص: ١٠٣.

الاستيلاء على مكتبة الشيخ ابن مهنا بالقوة، فأمر بأن ترجع إليه، خاصة وأن طلبة الشيخ وأنصاره ومحبيه كانوا قد وقفوا وقفة رجل واحد؛ ليمنعوا السلطة من أخذ المكتبة وصاحبها، لولا أن الإمام هدأهم وأمرهم بالصبر. «هذا وبعد أن شاع في مدينة قسنطينة بأن الشيخ ابن مهنا قد ألقي عليه القبض، وأخذت مكتبته من طرف السلطات الاستعمارية، هاجت المدينة وماجت»[1].

وبقي بعد إرجاعه إلى الجامع الكبير مواصلاً لعمله الإصلاحي، رغم مضايقات له من طرف الاستعمار، إلى أن توفي سنة ١٣٢٥هـ ١٩٠٧م، تاركاً وراءه ما يقارب الست وخمسين كتاباً، معظمها ما زال مخطوطاً.

وبعد هذا العرض العام والوجيز للحركة الجهادية الثقافية عامة، ولحركة الشيخين عبد القادر المجاوي، والصالح بن مهنا خاصة[2]، يمكن القول أن الزوايا والكتاتيب القرآنية، والنوادي الفكرية[3] والمساجد، لعبت كلها دوراً هاماً في المحافظة على الإسلام الوراثي للشعب الجزائري. ولكنها عجزت عن إعطاء بعث جديد وروح جديدة في كياني الإسلام والشعب. إلا ما وجدناه من اجتهاد فردي في سبيل تحقيق ذلك على يد الشيخين المجاوي وابن مهنا؛ الذين مهدا الطريق وزرعا البذور الأولى، للعمل الإصلاحي في الوطن عامة، وفي قسنطينة والشرق الجزائري خاصة «فلولا الشيخ عبد القادر وزملاؤه، ما وجد ـ الشيخ العقبي ـ في الجزائر الجو الذي خطا فيه خطواته الواسعة في الإصلاح، وما وجد الشيخ عبد الحميد ذلك الجو في قسنطينة»[4]. حيث تبنيا منهج التربية والتعليم

---

(١) سليمان الصيد: المرجع السابق، ص: ١٠٥.

(٢) ولا ننسى جهود غيرهما من العلماء المجاهدين مثل الشيخ: إبراهيم طفيش، عبد الحليم بن سماية وغيرهما.

(٣) إذ ساهم كل من نادي صالح باي، والجمعية الرشيدية، والجمعية التوفيقية «مساهمة فعالة في يقظة الجزائر خلال هذه الفترة؛ ذلك أن زعماءها بالتركيز على التعليم والتقدم والتحرر، قد حاولوا أن يطوروا المجتمع الجزائري، وأن يجعلوا منه مجتمعاً حديثاً متنوراً، بدلاً من مجتمع قديم تقليدي» د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ١٤٧، وص: ١٤٥.

(٤) محمّد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ص: ١٠٢ ـ١٠٣.

في الإصلاح، وبث الطرح الصحيح السليم للإسلام في جمهور الناس، وتربية الناشئة على تعاليمه، وتعليم الكبار على هديه «غير أن الحكومة الساهرة على الهدوء كيلا يستيقظ النائمون، عملت على إبعاده ـ أي ابن مهنا ـ وعاقبته بمصادرة مكتبته الثمينة، وفرقت أمثاله من مقلقي النوم العام في نظر الاستعمار؛ فحولت الشيخ عبد القادر المجاوي من منصبه بمدرسة قسنطينة إلى مدرسة العاصمة. وهكذا استطاع النوم أن يشد بالأجفان من جديد، بعد أن حاول تفلتاً من قيوده. ومضت هذه الأصوات التي كادت أن تلفت إليها الأذهان، وتجمع حولها الناس، وكأنها شجار حدث في وسط ليل، لم ينتبه إليه نائم»[1].

وهكذا وكخلاصة عامة لجهدهما، وجهود السياسيين من بعدهما، والثوريين من قبلهم جميعاً، يمكن القول وفق شروط ومواصفات العمل الحضاري المنهجي التغييري أن بطولاتهم «كانت تتمثل في جرأة فرد لا في ثورة شعب، وفي قول رجل لا في تكاتف مجتمع. فلم تكن حوادثها تاريخاً، بل كانت قصصاً ممتعة. ولم تكن صيحاتها صيحات شعب بأكمله، وإنما كانت مناجاة ضمير لصاحبه، لا يصل صداه إلى الضمائر الأخرى؛ فيوقظها من نومها العميق»[2].

حتى إن عملهم واجتهادهم وجهادهم، رغم أهميته وقيمته التاريخية قياساً بالظرف التاريخي ومعطياته وملابساته وتحدياته، التي تحرك فيه كل واحد منهم على اختلاف منهجه وأهدافه، في حركته وطبيعتها وخصائصها، لم يكن عملاً منهجياً منظماً مخططاً؛ بحيث يتجاوز جهد الفرد، إلى جهد الجماعة والمجموعة. ويتخطى الآنية، إلى المرحلية. والعمل على تحقيق تغيير شامل وأهداف بعيدة؛ حتى إننا «لو سألنا أحدهم عن بواعث كفاحه، فإنه لا يستطيع أن يجد بكل وضوح المبررات، التي تتصل عادة بالأعمال التاريخية، فهو يعلم أن مجهوداته كلها تذهب هباءاً. غير أن دوافعه الدينية وشرفه الإنساني قد حتما عليه مثل هذا المسير»[3] نحو عمل بطولي، لا يحظى بالامتداد الزماني

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٢٣.

(٢) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٢٣.

(٣) مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص: ١٩.

والمكاني، ولا يمس أعماق شعب يئن تحت تخلف حضاري طويل وعميق وشامل، زاد من تعميقه وتكريسه استعمار يُكِن حقداً حضارياً دفيناً للشعوب الإسلامية، الرازخة ـ قوة وعنوة ـ تحت سلطان جباره العنيد.

ورغم ذلك، كانت الحركات على مختلف أنواعها «رعشة تدل على الحياة في عالم الموت. . . . وصرخة تعلو في عالم الصمت. . . . وخطراً في عالم الاستعمار»[1].

وبعدها جميعاً، ورغم جهودها وتضحياتها الجسام، بقي ـ الشعب في عمومه ـ على حاله وصورته، لم يمس التغيير إلا ظاهره وخارجه، ولم تتحرك وتتأثر بها إلا فئة قليلة محدودة، وفي أماكن محدودة. وبقيت الأمة في مجموعها تنتظر حركة تغييرية جذرية وشاملة؛ تتحمل أعباء تجديد دين وإحياء أمة، وإعدادها لأن تستحق لحياة عزيزة مكرمة محترمة، ترفض معها الذل والهوان، والخنوع لسلطان الاستعمار.

حركة تغييرية تتجاوز عمل الفرد البطولي، إلى عمل المجموعة والجماعة التاريخي، وتتجاوز الجزئية في التغيير.

وبعدها جميعاً، ورغم جهودها وتضحياتها الجسام، بقي ـ الشعب في عمومه ـ على حاله وصورته، لم يمس التغيير إلا ظاهره وخارجه، ولم تتحرك وتتأثر بها إلا فئة قليلة محدودة، وفي أماكن محدودة. وبقيت الأمة في مجموعها تنتظر حركة تغييرية جذرية وشاملة؛ تتحمل أعباء تجديد دين وإحياء أمة، وإعدادها لأن تستحق حياة عزيزة مكرمة محترمة، ترفض معها الذل والهوان، والخنوع لسلطان الاستعمار.

حركة تغييرية تتجاوز عمل الفرد البطولي، إلى عمل المجموعة والجماعة التاريخي، وتتجاوز الجزئية في التغيير إلى الشمولية، وتؤمن بالعمل المنهجي المنظم المخطط؛ الذي يسعى ويقود الأمة نحو الأهداف والمهام التاريخية الكبرى، للإسلام والمجتمع الجزائري، بسير مرحلي، وفق سلم الأولويات،

---

(١) مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص: ٧٧.

ومراعاة طبيعة البيئة الجزائرية، وظروف ومشاكل ومستوى الشعب الجزائري، بكل فئاته، وجميع شرائحه.

هذا هو الوضع العام في الجزائر. وكيف كان رد فعل الجزائريين على سياسة الاستعمار الفرنسي التعسفية. وفي أجواء وظروف هذا الوضع، وهذه المعطيات، نشأ ابن باديس وجاهد، وكأن الله هيأ الشروط النفسية والاجتماعية لضرورة ميلاده، وانطلاق جهاده الإصلاحي والتغييري والاجتماعي، الذي كان مطلوباً ومنتظراً. بعد أن أخفقت الحركات الجهادية المسلحة، والسياسية والثقافية البطولية، في تحقيقه وتوفيره؛ ليكون منطلق الإقلاع الحضاري للمجتمع الجزائري، بعد أن استسلم لنوم عميق. وليتمكن من التحرر الكامل من حالة قابلية الاستعمار، ويستجمع شروط استكمال طريق الجهاد الشامل، والطويل والشاق.

هذا الميلاد، وهذا الجهاد المنظم، الذي قام به ابن باديس هو ما سنتناوله بالبحث والدراسة والتحليل، في الفصول التالية إن شاء الله.



رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفَصْــلُ الأوّل

ابن بَاديس: نَشأتهُ وحياتهُ العِلميَّة

بعد أن تناولنا في التمهيد ملامح الوضع العام، الذي ساد الجزائر منذ دخول الاستعمار الفرنسي محتلاً لها، وإلى غاية مطلع القرن العشرين الميلادي.

سنعرض في هذا الفصل الأول لنشأة ابن باديس العائلية، والأطوار التي مرت بها حياته، وأهم المؤثرات التي أثرت في صياغة شخصيته، وتكوينه العلمي.

أولاً: الاسم والنسب:

هو عبد الحميد بن محمَّد المصطفى بن مكي بن باديس، وابن زهيرة بنت علي بن جلول. الولد البكر لوالديه.

ونسب أسرته عريق في الشرف والمكانة، معروف في قسنطينة، ومشهور بالعلم والثراء والجاه[1]؛ عرفت منه شخصيات تاريخية كبيرة، كان لها الأثر الكبير في الحياة السياسية، على مستوى منطقة المغرب العربي كلها؛ منها بلكين ابن زيري[2]، والمعز بن باديس[3]. هذا الأخير كان يفتخر به ابن باديس؛ لأنه

---

(١) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٧٢.

(٢) ولاه المعز لدين الله الفاطمي أمر إفريقيا والمغرب، وسماه يوسفاً، وكناه أبا الفتوح، ولقبه سيف العزيز بالله، وامتدت فترة ولايته من سنة ٣٦٢هـ إلى سنة ٣٧٣هـ (٩٧٢م - ٩٨٤م)، وتوفي سنة ٣٧٣هـ.
انظر د. السيد عبد العزيز السالم: تاريخ المغرب الكبير، ج ٢، ص: ٦١٤ - ٦٥١.

(٣) خلف أباه باديس بن المنصور على ولاية إفريقيا والمغرب الأوسط من سنة ٤٠٦هـ إلى ٤٥٣هـ.

كان يعتبر نفسه «بمثابة خليفة له في مقاومة البدع والضلال؛ إذ كان جده يناضل الإسماعيلية الباطنية، وبدع الشيعة في إفريقية»[1]. حتى إنه «انتفض دعوة العبيديين بإفريقيا، خطب للقائم العباسي، وقطع الخطبة للمستنصر العلوي سنة أربعين وأربعمائة، فكتب إليه المستنصر يتهدده.»[2].

كما عرفت شخصيات أخرى متأخرة من نسبه العريق؛ منها القاضيان الشهيران بقسنطينة أبو العباس حميد بن باديس، وكان «من كبار قضاة قسنطينة وأكثر علمائها شهرة»[3]، ومكي بن باديس.

وكما هو معلوم فإنه لم يكن يُولَّى منصب القضاء، إلا من كان معروفاً ومشهوراً بالنسب الشريف، والعلم الواسع، والفقه الغزير.

ثانياً: المولد ـ المكان والزمان ـ :

ولد ابن باديس بقسنطينة سنة ١٣٠٨هـ، الموافق للرابع من شهر كانون الأول سنة ١٨٨٩م.

ثالثاً: والدا الإمام:

١ ـ **أبوه**: هو الشيخ مصطفى بن مكي بن باديس «من ذوي الفضل والمروءة والحفاظ على شعائر الدين، والغيرة عليه. كان يحفظ القرآن ويتعبد بتلاوته، وخاصة في شهر رمضان»[4]. حتى إنه «أمضى ليالي شهر الصيام كلها سنة ١٣٥١هـ يقيم صلاة التراويح في مسجد سيدي قموش، الذي بناه على نفقته. . . كما أنه خصص معلماً لتعليم القرآن الكريم، في ذلك المسجد على نفقته»[5].

هذا من ناحية تدينه ومدى حفاظه على شعائر وفرائض الدين، أما من ناحية

---

(١) د. عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٧٢.
(٢) عبد الرّحمن بن خلدون: تاريخ العلامة ابن خلدون، م ٤، ص: ١٣٠ ـ ١٣١.
(٣) د. عمار طالبي المرجع السابق، ج ١، ص: ٧٤.
(٤) علي مرحوم: مجلة الأصالة، س ٤، ع ٢٤، ص: ١١٣.
(٥) علي مرحوم: المرجع نفسه، ص: ١١٣.

مركزه الاجتماعي؛ فقد كان يتمتع بمكان مرموق، ومنزلة عالية لدى السلطات الفرنسية. «إذ كان باش آغا، ونائباً سامياً في عدة دوائر انتخابية ومالية، وعلى مستوى الدائرة والعمالة والوطن. وكان يتمتع بشبه الحصانة البرلمانية. وأنعم عليه بنيشان الافتخار الفرنسي»[1]. كما عُرِف في وقته، ولدى الأوساط الإسلامية بدفاعه الدائم «عن مطالب السكان المسلمين، بالعمالة القسنطينة»[2].

٢ ـ **أمه**: وهي زهيرة بنت علي بن جلول، تنتمي إلى إحدى الأسر الشريفة المشهورة بقسنطينة، وهي أسرة عبد الجليل.

رابعاً: أطوار حياة ابن باديس:

مرت حياة الإمام ابن باديس بأطوار أربعة كبرى هي:

١ ـ طور الصبا والشباب:

نشأ ابن باديس في صباه وشبابه، كما ينشأ عادة أبناء الأسر الشريفة ذوات المجد والدين؛ إذ استنشق ثقافة وقيم وتراث أمته وأجداده، وأسرته منذ صباه. فتلقى تعليمه الأول والأولي على يد والده، الذي علمه مبادئ القراءة والكتابة في البيت، رافضاً بذلك إلحاقه ـ كغيره من أترابه المحظوظين ـ بالدراسة في المدارس الفرنسية الاستعمارية، ومفضلاً تربيته تربية إسلامية صافية خالصة، تحصن شخصيته ـ وهو في هذا السن الخطيرة ـ من التشوه بالثقافة والقيم الغربية، التي يغذي بها الاستعمار عقول الطلبة الجزائريين، الذين يلتحقون بمدارسه، فيربيهم وينشئهم عليها.

ولقد كان هدف الأب ـ أيضاً ـ من هذا الصنيع مع ابنه ـ إضافة إلى ما سبق ـ حرصه على صناعة وصياغة شخصيته، على مرأى ومسمع ومتابعة منه؛ حتى يخرجه عالماً مكيناً في العلم عامة، وفي الدين وعلومه خاصة، ويكون بالتالي خير خلف لصالح سلفه من أسرته وأجداده. ويبقى بالتالي مجد الأسرة وعلمها متوارثاً، ابناً عن أب، وأباً عن جد.

---

(١) محمَّد صالح رمضان: مجلة القبس، س ٤، ع ٢، ص: ٣٢.

(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٧٤.

وقد خاطبه مرة منبهاً إياه، ولافتاً انتباهه إلى هذا الأمل الكبير الذي يعقده عليه مستقبلاً، قائلاً له: «يا عبد الحميد، أنا أكفيك أمر الدنيا، أنفق عليك، وأقوم بكل أمورك. ما طلبت شيئاً إلا لبيت طلبك كلمح البصر، فأكفني أمر الآخرة. كن الولد الصالح الذي ألقى به وجه الله»[١].

وعلى أساس هذا المقصد، ألحق الأب ابنه الكتاب؛ ليحفظ القرآن الكريم فيها، كما جرت العادة آنذاك. «فحفظ القرآن الكريم على الشيخ محمَّد المداسي، وأتم حفظه في السنة الثالثة عشر من عمره»[٢]، أي سنة ١٩٠٣م.

ونظراً لما اتصف به الإمام من أخلاق زكية، ونباهة وفطانة وجودة حفظ، وحسن ترتيل للقرآن الكريم، مما استرعى انتباه وشدة إعجاب معلمه وأستاذه به، فقدمه ليؤم المصلين بالجامع الكبير في صلاة التراويح، وذلك مدة ثلاثة سنوات متوالية، رغم صغر سنه، الذي لم يتعد الثانية عشرة سنة.

ثم اختار له أبوه أحد الشيوخ الصالحين بقسنطينة، الذين جمعوا بين سعة العلم وشرف الخلق، وهو الشيخ أحمد أبو حمدان لونيسي «الذي كان منتمياً إلى الطريقة التيجانية، سالكاً منهجها»[٣].

فبدأ تعليمه له بجامع سيدي محمَّد النجار؛ الذي تقع بنايته بجوار جامع سيدي عبد المؤمن بقسنطينة «فعلمه العربية والمعارف الإسلامية، ووجهه وجهة علمية أخلاقية»[٤]. مما كان له تأثير كبير في شخصية الإمام؛ الذي يعترف ويشهد ـ مقراً ـ بفضله عليه.

وانقطع تدريس الشيخ الجليل للإمام بهجرته إلى المدينة المنورة؛ تحرراً من ضغط الاستعمار عليه، وحفظاً لدينه وسمعته، حتى لا يدنسا من طرفه، «ورغب ابن باديس أن يسافر معه، ولكن أباه منعه وصرفه عن ذلك»[٥].

---

(١) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، ص: ٩٥.
(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٧٤.
(٣) د. عمار الطالبي: المرجع نفسه، ص: ٧٤.
(٤) شوقي أبو خليل: الإسلام وحركات التحرر، ص: ٧٠.
(٥) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ص: ٧٤.

ولما بلغ ابن باديس الخامسة عشرة من عمره، زوجه أبوه بابنة عمه، وأنجب منها ولداً سماه عبده إسماعيل؛ تبركاً باسم الشيخ محمَّد عبده، الذي زار الجزائر سنة ١٩٠٣م. ولكن الابن لم يعش طويلاً، فتوفي صغيراً لم يتجاوز عمره السابعة عشر من عمره.

وعلاقته الزوجية مع ابنة عمه لم تدم طويلاً «وكثيراً ما نصحه أبوه بالانتباه إلى نفسه وزوجته وبيته»[١]، ولكن اهتمامه بنشاطه الدعوي الإصلاحي «جعله لم يأخذ بنصيحة أبيه، وخرج من المنزل هو وزوجته ليسكنا لوحدهما، وبعد مدة أراد الرجوع إلى بيت أهله، فأبت زوجته.... وراودها كثيراً بالرجوع إلى البيت، لكنها أبت ذلك. فطلقها، وذهب إلى تونس»[٢].

حصاد طور الصبا والشباب: إذا أردنا تقييم هذا الطور القاعدي والأول من حياة الإمام ابن باديس الطويلة، فإننا يمكن أن نسجل أهم ما تلقى فيها الإمام، وأهم ما انطبع منها من أحداث ومواقف، وتصرفات على شخصيته وتكوينه.

وحصراً لأهم تأثيرات هذا الطور فيه، يمكن إجمالها في نوعين من التأثيرات:

النوع الأول: التأثير الأسري والاجتماعي.

النوع الثاني: التأثير العلمي.

النوع الأول: التأثير الأسري والاجتماعي:

وهما الوسط الأول الذي نشأ فيه ابن باديس وترعرع، وتكونت أولى معالم وقسمات وملامح شخصيته فيه. فبالنظر إلى طبيعة ومستوى أسرته، نجدها واحدة من الأسر القسنطينية القليلة، التي لها امتداد تاريخي عريق في المجد والعلم وتخريج العلماء؛ الذين تركوا بصماتهم واضحة في تاريخ قسنطينة خاصة، والمغرب العربي عامة؛ سواء القديم منه أو الحديث. هذا الرصيد

(١) جريدة الفجر، ص: ٨، ٧ ـ ١٢ ـ ١٩٨٩م.

(٢) جريدة الفجر: العدد نفسه، ص: ٨.

التاريخي العظيم - والذي أشرنا إلى بعضه فيما تقدم - ترك - ولا شك في ذلك - تأثيراً نفسياً معيناً في شخصية ابن باديس؛ من حيث أنه بعث فيه إحساس الاعتزاز به، والسعي - الذاتي - للمحافظة عليه حتى لا ينقطع ولا يزول.

كما امتازت هذه الأسرة بمستوى معيشي راق، بالنظر إلى ظروف ذلك العصر العصيبة؛ التي تركت قطاعاً كبيراً من الأسر الجزائرية تعيش فقراً مدقعاً، تنعدم فيه أدنى الشروط، ومتطلبات الحياة الضرورية؛ من عيش وكساء ومأوى وصحة.

فقد كانت أسرة بورجوازية ثرية، توفر لأفرادها جميع متطلبات الحياة في تلك الفترة، مما يجعلهم يعيشون حياة مختلفة عن حيوات الآخرين، من أبناء قسنطينة، وأبناء الشعب الجزائري عامة.

ويمكن القول إن ثراء أسرة ابن باديس، كان له انعكاسان متناقضان على شخصية الإمام؛ فهو من جهة يوفر له ما يريد من الحياة والأمن؛ حتى لا يتعب، ولا يحس بالشقاء بسبب الحاجة. ومن ناحية ثانية وبسبب طبيعة شخصيته التي فطره الله عليها، والتي ظهرت توجهاتها، وتحددت معالمها وقسماتها منذ طور صباه وتَتَلمُذِه على يد شيخه حمدان لونيسي، أظهر عزوفاً عن هذه المعيشة المترفة؛ بحكم أنها توفر له مطالب الجسد، ولكنها تعزله - في الوقت نفسه - عن عيش معاناة ومأساة شعب، يرزخ تحت نير الاستعمار، وكلكل التخلف.

وبالتالي فقد «ساعده ثراء أسرته، على أن يتحرر من الحاجة إلى طلب الوظيفة من الإدارة الفرنسية، وعلى أن يخصص حياته بأسرها، لإحياء الروح الجزائرية»[1].

وكذا في أنه هيأ له وسطاً علمياً، ساعده على تحصيل القرآن الكريم وشيء من المعارف والعلوم الأساسية. وساعده - فيما بعد - في عمله الإصلاحي الجهادي؛ حيث اهتدى ابن باديس «إلى أن انتماءات أسرته، وعلاقاتها مع الإدارة الاستعمارية، يمكن أن تكون في خدمته، بدل أن يكون هو في خدمتها. وفعلاً

---

(١) محمود قاسم: الإمام ابن باديس الزعيم الروحي للثورة الجزائرية، ص: ١٥.

فقد استغل هذا الوضع الامتيازي، واستخدمه بذكاء إلى أن توفاه الله»[1].

ولكن وفي مقابل هذه الإيجابيات لأسرته له، كان ابن باديس يحس إحساساً عميقاً بسلبياتها عليه؛ في المرة الأولى عندما وقف أمامه أبوه ومنعه من الهجرة إلى المدينة المنورة، مع شيخه حمدان لونيسي، وصرفه عن ذلك، رغم رغبة ابن باديس الشديدة في السفر معه. وفي المرة الثانية عندما بدأ يمارس إصلاحه الجهادي؛ حيث استغلت الإدارة الاستعمارية علاقة الأسرة عامة، ووالد ابن باديس بها خاصة، لتمارس بذلك الضغط عليه لصرفه عن عمله وحركته[2]. وهذا مما دفع ابن باديس إلى أن يقطع ـ فيما بعد ـ «صلته بعائلته، وخاصة والده وهو تاجر كبير، وبشقيقه المحامي، وزوجه البرجوازية المترفة»[3]. وبالتالي بدا أقرب إلى نفوس إخوانه وشعبه.

فكل هذا وغيره من الأحداث والمواقف ـ التي لم نذكرها ـ سواء منها الأسرية الخاصة، أو المجتمعية العامة، التي عاشها ابن باديس وشاهدها في هذا الطور من حياته، والتي تركت آثارها منطبعة على نفسيته وتكوين شخصيته، شكَّل أبعاداً هامة وأساسية في حياة ابن باديس، ونشاطه الدعوي وحركته الإصلاحية الجهادية.

النوع الثاني: التأثير العلمي

والذي تلقاه وتأثر به ابن باديس، على اختلاف في درجة وقوة وعمق هذا التأثير، من مصادر ثلاثة هي:

١ ـ **الأب**: الذي كان أول من ترك بصماته وآثاره في شخصية ابنه؛ من خلال سلوكاته ومواقفه معه، ومن خلال تعليمه له أولى مبادئ القراءة والكتابة، في المنزل قبل الالتحاق بالكتَّاب.

---

(١) محمَّد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: ١٤ ـ ١٥.

(٢) انظر الحادثة التي حاول فيها الاستعمار الضغط على ابن باديس في الأصالة: س ٦، ع ٤٤، ص: ٧١ ـ ٧٢.
وكذا عند محمَّد الطاهر فضلاء: دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، ص: ١٠٢ ـ ١٠٤.
وسيأتي ذكرها في مكانها في الفصل الرابع.

(٣) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص: ١٣٠.

وشخصية الأب كانت بالنسبة لابنه، أول باب للعلم والمعرفة والثقافة ينفتح له لينهل منه، ـ ومن خلاله ـ ثقافة المجتمع وسلوكاته، وكذا المبادئ الأولى للتحصيل المعرفي. يقول الإمام مبيناً الفضل الأول والكبير لأبيه عليه: «إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي، الذي رباني تربية صالحة، ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها، ومشرباً أَرِده، وقاتني وأعاشني، وبراني كالسهم، ورشاني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً، وكفاني كلف الحياة. فلأشكرَنَّه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر، ولأَكِلَ ما عجزت عنه من ذلك لله، الذي لا يضيع جزاء العاملين»[1].

٢ ـ **الشيخ محمَّد المداسي**: أستاذه ومعلمه ومرشده بالكتاب، والذي حفظ على يديه القرآن الكريم، فكان يجمع في شخصه وتتجسد فيه صورة ووضعية ثقافة وحضارة وقيم المجتمع، مع ما كان يتصف به من خلق ودين وعلم. ويبدو أن العلاقة بينه وبين تلميذه كانت قوية ومتينة؛ حتى إنه يمكننا القول بأنه كان من التلاميذ المقربين إليه؛ الذين يرعاهم رعاية خاصة، ويتابعهم متابعة دقيقة. وهذا له بالغ الأثر والتأثير في شخصية ابن باديس التلميذ؛ حيث ترك هذا الشيخ الوقور بصمات وآثاراً، انعكست على دين وخلق الإمام فيما بعد.

ونظراً لشدة إعجابه به، اختاره ـ من بين أقرانه وأترابه ـ لأن يؤم المصلين في صلاة التراويح ثلاث سنوات متتالية بالمسجد الكبير، رغم كثرة المشايخ وحفاظ القرآن آنذاك؛ سواء الصغار منهم أو الكبار.

وتَقدُّم ابن باديس للإمامة وهو في هذه السن الصغيرة من عمره، الذي لا يتجاوز الثانية عشر، نبهه ـ ولا شك ـ إلى أن الأقدار تسوقه وتَدَّخِره لأمر مستقبلي جلل، عبَّر له عنه والده عندما قال له: (كن الولد الصالح الذي ألقى به وجه الله).

٣ ـ **الشيخ أحمد أبو حمدان لونيسي**: العالم الطرقي، المعتدل الزاهد، الذي فتح أفق وعقل ابن باديس، على عالم العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية،

---

(١) الشهاب: ج ٤، م ١٤، ص: ٢٨٨.

يستزيد منها، وينهل مع ذلك الخلق الفاضل، المتجسد في شخصية الشيخ، الذي ترك تأثيراً معرفياً وخلقياً عميقين في الإمام، الذي يعترف به، فيقول مبيناً فضله، وفضل سائر مشايخه عليه: «ثم ـ أي الفضل ـ لمشايخي الذين علّموني العلم، وخَطُّوا لي مناهج العمل في الحياة، ولم يبخسوا استعدادي حقه. وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية؛ وهما من مشايخي اللذان تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي، إلى التربية والتثقيف والأخذ باليد، إلى الغايات المثلى في الحياة. أحد الرجلين الشيخ حمدان لونيسي القسنطيني، نزيل المدينة المنورة ودفينها»[١].

هذا الشيخ الفاضل، الذي لم يدّخر شيئاً ينفع ابن باديس في مستقبل حياته، خصوصاً عندما توسم فيه معالم الرجل الصالح المصلح إلا أوصاه به؛ من ذلك الوصية النفيسة التي أوصاه بها، والتي يذكرها الإمام قائلاً معترفاً: «وإني لأذكر للأول ـ ويقصد الشيخ حمدان ـ وصية أوصاني بها، وعهداً عهد به إلي، وأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله، فأجدني مديناً لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر؛ فقد أوصاني وشدد علي، أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها، كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت»[٢].

ونظراً لهذه العلاقة العلمية والخلقية القوية بينهما، تعلق به ابن باديس أشد التعلق، وتأثر به، وبما تتصف به شخصيته بالغ التأثر. ومما يؤكد ذلك، أنه لما هاجر أستاذه إلى المدينة المنورة «رغب ـ الإمام ـ أن يسافر معه، ولكن أباه منعه، وصرفه عن ذلك»[٣].

وهكذا كان الطور الأول من حياة ابن باديس، والذي امتد على فترة تسعة عشر سنة طور صبا وشباب، قضاهما الإمام وسط أسرة ومجتمع أخذ منهما تكويناً أسرياً، وورث عنها ثقافة وقيماً. ووسط الكُتَّاب حيث حفظ القرآن الكريم، وبذلك ملك ناصية البيان.

---

(١) الشهاب: ج ٤، م ١٤، ص: ٢٨٨.

(٢) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٢٨٩.

(٣) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٧٤.

القرآن الذي كان له بالغ التأثير ـ أيضاً ـ في تكوين شخصيته وصياغتها، مما يبينه ابن باديس فيقول: «ثم الفضل أولاً وأخيراً لله ولكتابه، الذي هدانا للفهم والتفقه في أسراره، والتأدب بآدابه... القرآن الذي كوَّن رجال السلف، لا يكثر عليه أن يُكوِّن رجالاً في الخلف، لو أُحسِن فهمه وتدبره، وحملت الأنفس على منهاجه»[1]. لينتقل بعد ذلك إلى إمامة المصلين من هذه الأمة في صلاة حاشدة في شهر عظيم، وفي مسجد كبير.

وأخيراً وسط جامع سيدي محمَّد النجار، حيث رضع لبن الثقافة الإسلامية وأخلاقها، وعلوم اللغة العربية وبيانها، مما يمكنه لأن ينطلق فيما بعد بناء على هذه القاعدة الأساسية والعميقة، إلى الرحلة والدراسة لاستكمال الشروط العلمية والمعرفية؛ التي تؤهله لأن يكون رجلاً، يحمل دعوة ويمارس جهاداً، ويعيش مأساة شعب، وأزمة حضارة.

٢ ـ طور التحصيل العلمي بالزيتونة:

بعد أن استكمل ابن باديس تكوينه الأسري، وتحصيله العلمي القاعدي بقسنطينة، ارتأى السفر إلى تونس؛ للدراسة بجامعها الأعظم جامع الزيتونة، وذلك سنة ١٩٠٨م، وعمره آنذاك لم يتجاوز الخامسة عشرة سنة. ودافعه في ذلك الاستزادة علمياً وفكرياً وثقافياً في هذه المؤسسة العلمية العريقة ـ الشهيرة ـ وكذا لتحقيق مطلب أستاذه لونيسي، وأمنية والديه، اللذين حرَّضاه وشجَّعاه على السفر[2].

مكث الإمام في تونس أربع سنوات كاملة، قضاها دارساً ومدرساً. وهي فترة يعتبرها الإمام منعطفاً هاماً، في حياته العلمية والتكوينية؛ حيث يقول عنها: «ما كنت لأنسى أربع سنوات قضيتها بالزيتونة: شطرها متعلماً، وشطرها متعلماً ومعلماً. فكان لي منها آباء وإخوة وأبناء، فأكرم بهم من آباء، وأكرم بهم من إخوة، وأكرم بهم من أبناء»[3].

---

(١) الشهاب: المرجع السابق، ص: ٢٩٠.

(٢) محمَّد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ١٩٠٠م ـ ١٩٦٢م، ص: ٥٩.

(٣) الشهاب: ج ١٠، م ١٢، ص: ٤٤٠.

كان جاداً نشيطاً في تحصيله للعلم، والاتصال بالمشايخ والعلماء هناك؛ حتى أنه «استطاع على غرار الطلبة المتفوقين، اختصار مراحل الدراسة التي تستلزم قضاء الطالب سبع سنوات حسب البرامج المقررة، إلى ثلاث سنوات فقط»[1].

وهذه القدرة الفذّة، وهذا النبوغ في ابن باديس، إنما يرجع سببهما أولاً؛ إلى صفاته الذاتية التي فطره الله عليها وحباه بها؛ من فطانة وذكاء وقوة استيعاب للمعرفة. وثانياً إلى ما حصّله من تكوين علمي قاعدي بمسقط رأسه «إذ أهلته الدروس التي تلقاها على أستاذه لونيسي بقسنطينة، للحصول على مستوى السنة الرابعة من التعليم الزيتوني، دفعة واحدة»[2].

التقى ابن باديس بكثير من علماء الزيتونة آنذاك، وتلقى عنهم علوماً مختلفة كل بحسب تخصصه العلمي؛ فأخذ عن كل من الشيوخ: محمَّد النخلي، الطاهر ابن عاشور. الخضر بن الحسين، أبي محمَّد بلحسن بن الشيخ المفتي محمَّد النجار، محمَّد الصادق النيفر، سعد الفياض السطايفي المصلح المجدد، محمَّد ابن القاضي، البشير صفر المؤرخ المجدد... وغيرهم كثير.

ولم يترك الإمام فرصة للاتصال والتتلمذ على شيخ، أو الذهاب والانتقال إلى مكان يسمع ويعلم عنه أن فيه خيراً له إلا قصده، واتصل به، وانتقل إليه، وغرف منه ما وجد عنده. ولذلك نجده يتصل بالجمعية الخلدونية التي كانت تخصص دروسها لتلاميذ جامع الزيتونة «لاستكمال معلوماتهم في المواد العلمية العصرية؛ كدروس الحساب، والمساحة، والجغرافيا، والتاريخ، والكيمياء، واللغة الفرنسية، ومبادئ حفظ الصحة، والطبيعيات»[3].

ولم يكن مستواها العلمي زهيداً، وإنما كان «يتطوع بإلقاء هذه الدروس خيرة الأساتذة، بمن فيهم حافظ الجمعية الخلدونية نفسه، الشيخ البشير صفر»[4]. وابن باديس كباقي أقرانه وزملائه من تلاميذ الزيتونة، كان يتردد على

---

(١) محمَّد صالح الجابري: المرجع السابق، ص: ٦١.
(٢) محمَّد صالح الجابري المرجع نفسه، ص: ٦٢.
(٣) محمَّد صالح الجابري: المرجع نفسه، ص :٦٩.
(٤) محمَّد صالح الجابري: المرجع نفسه، ص: ٦٩.

الجمعية «سواء بصورة انتظامية أو غير انتظامية، إذ كانت التراتيب الإدارية لا تمنع الطلبة من الإقبال التلقائي، وحضور الدروس بصفة فردية حرة»[١].

ومن العلوم النافعة التي أخذها ابن باديس عن مشايخه بالزيتونة، تلقيه «تهذيب المنطق ودروساً من صدر تفسير البيضاوي: الأول بجامع الزيتونة، والثاني بدار الأستاذ على يد العلامة الجليل الشيخ الخضر بن الحسين»[٢]. وكذا دراسته للأدب والفقه على أستاذه قاضي قضاة تونس آنذاك، الشيخ الطاهر بن عاشور، والتي يقول الإمام عنها واصفاً قيمتها، ومبلغ تأثيرها في تكوينه العلمي، وبناء شخصيته «وإن أنسى فلن أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه؛ فقد حببتني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبثت فيَّ روحاً جديداً في فهم المنظور والمنثور، وأحيت فيَّ الشعور بعزة العروبة، والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام»[٣].

كما درس التاريخ الإسلامي على يد أستاذه البشير صفر. والإمام يصرح بذلك ويبين دور وأهمية هذه الدروس، التي أخذها عن شيخه، في بعثها إحساس الاعتزاز بأمته وأمجادها فيقول: «وأنا شخصياً أصرح بأن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم، الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في إطلاعي على تاريخ أمتي وقومي، والتي زرعت في صدري الروح، التي انتهت بي اليوم، لأن أكون جندياً من جنود الجزائر»[٤].

ولم يخف ابن باديس شدة إعجابه وتأثره بالدراسات الأصولية الشرعية، التي تُكوِّن وتصيغ العقل الأصولي، الذي يعتبر عنصراً مهماً لمن يباشر العمل الإصلاحي الجهادي، والتي كان أساتذة جامع الزيتونة يُنشِّؤون الطلبة عليها، بتدريسهم كتاب (الموافقات في أصول الشريعة) للإمام الأصولي أبي إسحاق الشاطبي. وابن باديس يفصح لنا عن ذلك فيقول: «لقد كنا أيام الطلب بجامع

---

(١) محمَّد صالح الجابري: المرجع نفسه، ص: ٧٠.

(٢) الشهاب: ج ٨، م ١٥، ص: ٣٦٨.

(٣) البصائر: ص: س ١، ع ١٦، ص: ١.

(٤) الشهاب: ج ٥، م ١٣، ص: ٢٢٦.

الزيتونة ـ عمره الله ـ نسمع من شيوخنا كلهم، الثناء العاطر على هذا الكتاب وصاحبه، وكانت له عندهم منزلة عظيمة. وأحسن الدروس في المناظرات الامتحانية، هو الذي رصعه صاحبه بكلام الشاطبي، وأحسن فهمه وتنزيله»[1].

وهكذا مكث ابن باديس بالزيتونة أربع سنوات، قضاها في التحصيل الجاد لكل ما استطاع من علوم ومعارف وثقافة، والاتصال المستمر بكل شيخ أو أستاذ، يتوسم أو يسمع عنه خيراً في العلم والدين؛ حتى إنه «كان لا يشارك الطلاب عبثهم ولهوهم، بل كان يحب الخلوة في حجرته للمطالعة والتفكير»[2].

ومع نهاية السنة الدراسية ١٩١٠م ـ ١٩١١م، تحصل على شهادة التطويع بتفوق، وسنه لم يتجاوز بعد ثلاثاً وعشرين سنة. «أما الإشارات الواردة في بعض خطبه وكتاباته إلى حصوله على شهادة (العالمية) من الزيتونة، فإنما كان يعني بها شهادة التطويع دونما شك؛ إذ أن شهادة العالمية المذكورة، كانت قد أسندت إليه في مصر، عند حضوره بعض دروس الجامع الأزهر، على الشيخ محمَّد بخيت المطيعي، وهي شهادة لم تكن قد استحدثت بعد في مناهج الزيتونة»[3].

وكمحصلة لجهده واجتهاده العلمي والدراسي بالزيتونة، كان ترتيب الإمام «الأول بين جميع الطلبة الناجحين. كما كان الطالب الجزائري الوحيد، الذي تخرج من الزيتونة في تلك الدورة»[4]. ونشرت ذلك الصحف التونسية.

بعد فترته الدراسية التي امتدت من سنة ١٩٠٨م إلى سنة ١٩١١م، وتخرجه ونيله لشهادة التطويع بتفوق، تفرغ للتدريس بالجامع مدة سنة «تبعاً للتقاليد المتوارثة بين الخِرّيجين، والقاضية بتطوع الطالب المتخرج حديثاً، للقيام بإعطاء دروس لمدة سنة أو أكثر، للصفوف الدنيا؛ تمكنه من اكتساب ذخيرة تربوية

---

(١) البصائر: س ١، ع ٢٧، ص: ٦.

(٢) عبد الرَّحمن حسن سلوادي: ابن باديس مفسراً، ص: ٤١.

(٣) محمَّد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ١٩٠٠م ـ ١٩٦٢م، ص: ٦٣ ـ ٦٤.

(٤) محمَّد صالح الجابري: المرجع نفسه، ص: ٦١.

وبيداغوجية، تتيح له فرصة أداء بعض الواجب، نحو معهده»[1].

وفي سنته الأخيرة هذه التي قضاها أستاذاً ومعلماً بالجامع، توثقت صلته العلمية بأستاذيه الشيخين محمَّد النخلي، ومحمَّد الطاهر بن عاشور، والتي كانت قد بدأت من قبل. هذه الصلة التي تركت بصماتها منطبعة في شخصية الإمام، والتي يقول عنها: «فاتصلت بهما عامين كاملين، كانا لهما في حياتي العلمية أعظم الأثر»[2].

ولم يكن اتصاله بهما، وتمتين روابط العلاقة معهما، بالأمر الهين اليسير آنذاك؛ وذلك بسبب السعي الحثيث من الوسط الزيتوني لصرفه عنهما، ولم يتمكن ابن باديس من الانفلات من ضغطه، حتى تخرج، وأنهى دراسته.

ومحاولات صرفه عنهما كانت بواسطة الشائعات، التي رُوِّجت عن الشيخين في الوسط الزيتوني آنذاك، حتى صار يشار إليهما بالضلال والبدعة؛ وذلك «لأنهما كانا يحبذان آراء الأستاذ ـ محمد عبده ـ في الإصلاح، ويناضلان عنها، ويبثانها فيمن يقرأ عنهما»[3].

ورغم ما وجده ابن باديس في الزيتونة، وحصَّله منها من معارف وعلوم وعلاقات؛ سواء مع المشايخ والأساتذة أو الطلبة، ورغم ما استفاده من الوسط العام الذي عاش فيه وتأثر به، إلا أنه «يمكن القول بأن الدراسة في جامعة الزيتونة، لم تكن في المستوى، الذي تتطلبه نزعته العلمية والإصلاحية»[4].

ولذلك نقد مناهجها التعليمية، وبرامجها وموادها؛ فنجده بنفاذ بصيرته وعمق معرفته وخبرته، وسعة ثقافته وعلمه، ينصح القائمين على الزيتونة قائلاً: «وإنني أقترح على إخوتي القائمين بها، أن يضموا إلى قلم تحريرها رجالاً من الزيتونيين، الذين يعرفون بعض اللغات الغربية، ولهم خبرة بحركة العصر وراء

---

(١) محمَّد صالح الجابري: المرجع نفسه، ص: ٦١.
(٢) البصائر: س ١، ع ١٦، ص: ١.
(٣) البصائر: س ١، ع ١٦، ص: ١.
(٤) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي للثورة الجزائرية، ص: ١٦.

البحر»[1]. ويعلل ذلك موضحاً «إن العلوم والآداب والفنون تراث الإنسانية كلها، لا تستقل فيها أمة عن أمة، وأكمل الأمم إزاءها من تحسن كيف تحافظ على حسنها، وتستفيد من حسن غيرها»[2].

فابن باديس، كان يريد ثورة تجديدية في برامج ومناهج الزيتونة، حتى تجمع بين العلوم النقلية والعلوم العقلية، المتوارثة والموروثة، وما أبدعه الغربي وتفتَّق به ذهنه. وبعبارة جامعة الجمع بين التاريخ والعصر، بين التراث والمعاصرة.

حصاد الرحلة: تقييماً لما سبق ذكره، يمكن القول إن رحلة الإمام الدراسية العلمية إلى الزيتونة، كانت منعطفاً حاسماً وهاماً في حياته؛ حيث تلقى تكويناً علمياً واسعاً وعميقاً شاملاً، ألمَّ فيه بالعلوم الشرعية النقلية، والعلوم العقلية الإسلامية التراثية، وذلك على يد أساتذة وشيوخ، عرفوا واشتهروا بالعلم الواسع، والخلق القويم، سواء في الزيتونة وتونس، أو خارجهما.

حيث وجدناه يتلقى العلم عن الشيخين الجليلين محمَّد الطاهر بن عاشور، ومحمَّد النخلي؛ «اللذين يعتبران زعيمي النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية في الحاضرة التونسية»[3]. ويلتقي بهما في علاقة علمية وفكرية، دامت مع الأول ثلاث سنوات، ومع الثاني سنتين.

كما أخذ وتعمق في دراسته التاريخ الإسلامي، بمطالعته وقراءته لما كتبه الشيخ البشير صفر؛ الذي يعتبر «من المصلحين المجددين في تونس، ومن بناة النهضة العلمية والفكرية الحديثة بها»[4].

هؤلاء المشايخ وغيرهم، الذين تتلمذ عليهم الإمام، والذين أثروا في

---

(١) الشهاب: ج ١٠، م ١٢، ص: ٤٤٠.

(٢) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٤٤٠ ـ ٤٤١.

(٣) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٧٦.

(٤) د. تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص: ١٦٧.

شخصيته من جوانب عدة، ساهموا وبشكل كبير وفعّال في «تخليصه من الغيبيات والمكبلات الفكرية، ورفعوا عن بصيرته غشاوة التقليد، وعلموه الجرأة، والإصداع بالرأي. وخلصوا أسلوبه من التُرَّهات اللفظية، وحببوا إليه اللغة العربية، وأيقظوا حسه على حب العروبة والإسلام»[1].

ويشير ابن باديس نفسه إلى أحد هذه التأثيرات العميقة، التي تحققت فيه، وحققت بالتالي تحولات جوهرية في عقله وتفكيره؛ وذلك عندما كان يتبرَّم من أساليب ومناهج القدامى في تفسير القرآن الكريم، ويقلقه ذلك، حتى أنه شكا ذلك لأستاذه محمَّد النخلي. فقال له هذا الأخير ناصحاً وموجهاً ومرشداً: «اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه الآراء المضطربة، يسقط الساقط، ويبقى الصحيح وتستريح»[2].

هذه الكلمة الوجيزة المركزة، نبهت ابن باديس إلى منهج كامل في طريقة التعامل مع هذا النوع من التفاسير القديمة للقرآن الكريم. ويعبر عن ذلك فيقول: «فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني، آفاقاً واسعة، لا عهد له بها»[3].

وكل هذا وغيره مما استفاده من علمائه، انعكس فيما بعد على جهوده العلمية، وحركته الإصلاحية الجهادية فجاء ـ مثلاً تفسيره للقرآن على خلاف منهج القدامى، مستفيداً بذلك من قاعدة أستاذه، ومطبقاً لها.

كما يجب أن نشير إلى التأثير الواسع، للوسط الزيتوني في ابن باديس؛ حيث إن تنقلاته، وحركاته، ومخالطاته، ومتابعاته للأحدث سواء المحلية[4] أو الدولية، كل ذلك ـ ومما لا شك فيه ـ استفاد به ابن باديس أيما استفادة، ظهرت نتائجه وآثاره بعد رجوعه من تونس، ومباشرته ـ ميدانياً ـ العمل الدعوي الإصلاحي الجهادي «فالوسط الاجتماعي الزيتوني، هو الذي كان له الفضل في

---

(١) محمَّد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري، ص: ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) الشهاب: ج ٤، م ١٤، ص: ٢٨٩.

(٣) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٢٨٩.

(٤) انظر محمَّد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري، ص: ٧٥.

تكوينه السياسي؛ بما طالع في الصحافة والمجلات من مقالات سياسية، وإخبارية، وتحليلية»[1].

٢ ـ مرحلة العودة من تونس:

بعد تكوين وتحصيل علمي، دراسة وتدريساً بالزيتونة دام أربع سنوات، عاد ابن باديس إلى مسقط رأسه قسنطينة سنة ١٩١٣م؛ ليشرع مباشرة في ممارسة العمل الإصلاحي الجهادي؛ وذلك بالجامع الكبير، الذي أَمَّ الناس فيه في صلاة التراويح مدة ثلاث سنوات من قبل. فكان يلقي دروساً على جمهور المصلين يشرح فيها كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض، ولكن تدريسه لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما كيد له من طرف «خصوم الإصلاح والتجديد»[2]، وبإيعاز من الإدارة الاستعمارية، حتى إنهم أقدموا على «إقلاقه ومنعه. وأطفأوا عليه الضوء، وهو في الدرس»[3].

أمام هذا الوضع، ونتيجة لهذا التصرف المغرض، الذي حزَّ في نفس ابن باديس، قرر السفر إلى بيت الله الحرام. وحول السبب أو الأسباب التي دفعته إلى اتخاذ هذا القرار، نجد تبايناً واختلافاً في وجهات النظر عند الدارسين والباحثين، الذين تعرضوا إلى هذا الموضوع.

فالدكتور عمار الطالبي، الذي أرَّخ لحياة ابن باديس في الجزء الأول من كتابه (ابن باديس حياته وآثاره)، يذكر أن دافع سفره كان: «الحج إلى بيت الله الحرام، وللقاء شيخه حمدان بن لونيسي»[4]. ويظهر أن الدكتور يستند في تعليله الثاني، إلى العلاقة الوثيقة التي كانت بين الإمام وشيخه لونيسي، وشدة تأثره به، وكذا إلى عزمه أيام كان الشيخ يريد الهجرة، في أن يصاحبه، لولا تدخل الأب ومنع ابنه من ذلك.

أما الدكتور تركي رابح، فيعلل السفر بتطلع ابن باديس «إلى القيام برحلة

---

(١) محمَّد صالح الجابري: المرجع نفسه، ص: ٧٥.

(٢) د. تركي رابح: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ١٧٠.

(٣) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٨٠.

(٤) د. عمار الطالبي: المرجع نفسه، ص: ٨٠.

طويلة إلى بيت الله الحرام. وزيارة أقطار المشرق الإسلامي»[1].

وترجيحاً يمكن القول: إن ابن باديس يكون قد هاجر للأسباب السالفة الذكر، والتي ذهب إليها الأستاذان، لكن ينبغي ألا ننسى أسباباً أخرى منها؛ مدى استهواء المشرق الإسلامي لكل راغب في العلم والمعرفة، والاستزادة منهما، من المغاربة منذ القديم إلى أيامنا هذه، خصوصاً بعد ظهور الكثير من الحركات الإصلاحية، والدعوات التجديدية التغييرية[2] التي هزَّت جمود العالم الإسلامي، وأيقظته من سباته الطويل، مع ما يوحيه بيت الله الحرام والمدينة المنورة، من رغبة نفسية وشوق روحي، لدى المسلم لزيارتهما.

وأيضاً، ومن خلال ملاقاة ابن باديس لبعض العلماء هنالك من مختلف أصقاع وذول العالم الإسلامي، يَظهر أن المشرق كان محطة اجتماع للعلماء المسلمين؛ سواء الفارين من ضغط الاستعمار، كما هو شأن شيخ وأستاذ ابن باديس حمدان لونيسي، أو الراغبين في التحصيل العلمي عامة، والعلوم الشرعية خاصة.

وابن باديس نفسه نجده يُكمل تحصيله العلمي بالزيتونة، وبالتالي فهو في غنى عن الذهاب إليه ثانية. ويُوَاجَه بالجامع الكبير بقسنطينة ـ بعد العودة إليها. بكيد أثناء تدريسه، مما يحز في نفسه ويدفعه؛ لأن يولي وجهه قبلة المشرق، كما فعل غيره من الأساتذة والمشايخ والعلماء، والطلبة آنذاك.

ومن هنا تعددت وتنوعت الأسباب الذاتية والموضوعية، المباشرة وغير المباشرة، القوية والضعيفة، التي دفعت بابن باديس إلى السفر إلى المشرق الإسلامي عامة وإلى الحجاز خاصة.

٣ ـ طور الرحلة إلى المشرق:

مسيرة الذهاب:

أ ـ **تاريخ الرحلة إلى المشرق**: كان تاريخ ارتحال الإمام من قسنطينة نحو المشرق، في السنة نفسها التي رجع فيها من تونس؛ أي عام ١٩١٣م قبيل الحرب العالمية الأولى، وعمره آنذاك أربع وعشرون سنة.

---

(١) د. تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص: ١٧١.

(٢) منها حركة الإمام محمَّد بن عبد الوهاب، وحركة الإمام الأفغاني وتلميذه محمَّد عبده.

ب ـ **طريق الرحلة**: مر ابن باديس في طريق سفره إلى بيت الله الحرام بمصر، فأقام بها مدة غير طويلة من الزمن، ليكمل فيما بعد مشوار سفره، ويستقر به المقام في المدينة المنورة.

ج ـ **الاستقرار بالمدينة المنورة**: استقر المقام بابن باديس بالمدينة المنورة؛ والتي كانت آنذاك مقصد مجمع العلماء وطلبة العلم، من جميع أصقاع العالم الإسلامي، وهناك التقى شيخه الجليل حمدان لونيسي، كما التقى بشيوخ وعلماء آخرين؛ منهم على الخصوص الشيخ حسين الهندي.

هذان العالمان اللذان حاول كل واحد منهما، أن يوجه ابن باديس وجهة معينة في مستقبل حياته. فشيخه حمدان لونيسي رَغَّبه وألح عليه في قبول المكث والإقامة الدائمة معه بالمدينة المنورة، وعدم العودة إلى الجزائر. والشيخ حسين أحمد الهندي أشار عليه بعكس وصية شيخه له؛ بأن يرجع إلى الجزائر ليباشر فيها عمل الدعوة والإصلاح والجهاد؛ حتى لا يبقى فريسة سهلة، ولقمة سائغة للاستعمار الفرنسي.

وهكذا وجد ابن باديس نفسه بين خيارين صعبين؛ إما أن يلبي ويحقق وصية شيخه لونيسي، ذي اليد الكبيرة عليه، وبالتالي يمكث مقيماً بالمدينة المنورة حيث الرغبة النفسية والعلم والعلماء. وإما أن يأخذ بنصيحة الشيخ حسين الهندي، فيهجر تلك النعم، ويهاجر إلى حيث العمل الجهادي المضني، بتحمل مسؤولية إحياء الشعب، وبعث الحياة فيه بالإسلام.

ويذكر الإمام وصيتي هذين الشيخين له، وكيف أن الله ألهمه السداد في التفكير والاختيار، فيقول: «أذكر أني لمَّا زرت المدينة، واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان لونيسي المهاجر الجزائري، وشيخي حسين الهندي، أشار علي الأول بالهجرة إلى المدينة المنورة، وقطع كل علاقة لي بالوطن. وأشار علي الثاني ـ وكان عالماً حكيماً ـ بالعودة إلى الوطن، وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد، فحقق الله رأي الشيخ الثاني، ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته»[1].

---

(١) الشهاب: ج ٨، م ١٣، ص: ٣٥٥.

ويعقب الإمام على هذا الاختيار، بأنه نابع من قناعة واطمئنان، ورِضاً بالمسؤولية وتوابعها، مبيناً أن لا فرار من مواقع حراسة الذات والأمة، والذَّبِّ عن حياضها كل معتد عليهما. فيقول: «فنحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية، بجميع مدَعِّماتها، في هذا الوطن»[1]. ومكث ابن باديس بالمدينة المنورة ثلاثة أشهر؛ قضاها متعرفاً إلى العلماء ومجالساً لهم، حتى أنه «قام بإلقاء درس في الحرم النبوي، على مشهد كثير من المسلمين، وبحضور شيخه حمدان لونيسي»[2].

وأهم عمل قام به في هذه الفترة، التي أقامها بالمدينة التقاؤه، بأخيه في الجهاد ـ فيما بعد ـ الشيخ محمَّد البشير الإبراهيمي؛ الذي يحدثنا عن حكمة القدر الإلهي في جمعهما فيقول: «كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر، ومن مخبآت الغيوب لها، أن يرد عليَّ بعد استقراري بالمدينة المنورة سنة وبضعة أشهر، أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك، الشيخ عبد الحميد أعلم علماء الشمال الإفريقي ولا أغالي، وباني النهضات العلمية والأدبية، والاجتماعية والسياسية للجزائر»[3].

هذا اللقاء الذي قدَّره الله بين الشيخين، كان لقاء له ما بعده من آثار طيبة في الجزائر وعليها؛ إذ كانا يجتمعان كل ليلة ـ وعلى مدار الثلاثة أشهر كلها ـ من بعد صلاة العشاء إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الصبح، وهما يتناقشان ويتدارسان أوضاع الجزائر، وما يجب عمله من أجل إصلاحها، وإنقاذها من حالتها المزرية العامة، والتي دفعت بكثير من العلماء والطلبة، إلى هجرها وتركها.

وعن تلك الأسحار، وما دار فيها بينهما، يقول الشيخ الإبراهيمي: «كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي، فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل، حين يفتح المسجد، فندخل

(١) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٣٥٥.
(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ص: ٨٠.
(٣) مجلة الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ١٨.

مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية، إلى نهاية الثلاثة أشهر، التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة. كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبير للوسائل، التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة، التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى في مُخَيلتِنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله، ما حققها في الخارج، بعد بضع عشرة سنة»[1].

ويؤكد الشيخ البشير الإبراهيمي على أهمية هذه اللقاءات، في أنها كانت الأرضية التي انبنت عليها جمعية العلماء، وتحددت على ضوئها ماهيتها وطبيعتها. فيقول: «وأشهد الله على أنَّ تلك الليالي من سنة ١٩١٣ميلادية، هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز إلى الوجود، إلا في سنة ١٩٣١م»[2].

وهكذا، وبعد هذه السلسلة من اللقاءات بينهما، عزم الإمام على الرجوع إلى الجزائر؛ لتنفيذ ما اتفقا عليه من خطة، وبرنامج إصلاحي جهادي، وبالتالي يحقق وصية شيخه حسين الهندي له.

أما الشيخ الإبراهيمي، فقد تخلف عنه في العودة؛ وذلك حتى يتسنى له إقناع أبيه، بضرورة الرجوع إلى أرض الوطن، للقيام ـ مع أخيه ـ بالعمل الإصلاحي الجهادي. وفي هذا يقول: «ورجع الشيخ إلى الجزائر، من سنته تلك، بعد أن أقنعته بأني لاحق به، بعد أن أقنع والدي، أن رجوعي إلى الجزائر يترتب عليه إحياء للدين والعربية، وقمع للابتداع والضلال، وإنكاء للاستعمار الفرنسي. وكان هذا هو المنفذ الوحيد الذي أدخل منه على نفس والدي؛ ليسمح لي بالرجوع إلى الجزائر»[3].

د ـ حصاد إقامته بالمدينة المنورة: تقييماً لإقامة ابن باديس بالمدينة المنورة مدة ثلاثة أشهر كاملة من سنة ١٩٣٣م، وعمره لم يتجاوز الرابع والعشرين.

---

(١) مجلة الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ١٩.

(٢) مجلة الثقافة: المرجع نفسه، ص: ١٩.

(٣) مجلة الثقافة: المرجع نفسه، ص: ١٩.

يمكن القول في أنها كانت فترة حاسمة، ومنعطفاً خطيراً في حياة الإمام، بَلْهَ في حياة أخيه أيضاً في الجهاد الشيخ البشير الإبراهيمي؛ وذلك من حيث أن ابن باديس عاش أجواء الحجاز، التي كانت تَعُجُّ بالعلم والعلماء، وتعيش جواً يستهوي كل بعيد عن تلك الديار بالهجرة إليها، خصوصاً وأن معظم باقي دول العالم العربي والإسلامي آنذاك، كانت خاضعة للاستعمار الغربي. إضافة إلى ذلك، كان بالمدينة المنورة صدى واسع كبير، لكل الأفكار الإصلاحية التي عرفها المشرق الإسلامي خصوصاً؛ من ذلك أفكار وآراء الإمام محمَّد بن عبد الوهاب، والسيد جمال الدين الأفغاني، وتلميذه محمَّد عبده، وغيرهم من العلماء على اختلاف في منازلهم العلمية والعملية، والذين كانت لهم تأثيرات مختلفة في القوة والضعف، في شخصية الإمام وأفكاره؛ من ذلك شيخه وأستاذه الشيخ حمدان لونيسي، والشيخ حسين أحمد الهندي.

ويضاف إلى هذا كله تلك الجلسات المطولة، والتي كانت تستغرق الليل كله مدة ثلاثة أشهر بكاملها، يتحاور فيها ابن باديس مع أخيه في الجهاد الشيخ البشير الإبراهيمي، في أوضاع الجزائر ومأساتها. والتي يمكن القول عنها أنها لم تترك صغيرة ولا كبيرة تعيشها آنذاك، إلا وتحدثا فيها ودرساها، خصوصاً وأن الإمام قد سافر إلى الحجاز حاملاً معه آخر صورة للأوضاع والواقع؛ سواء من حيث السياسة الاستعمارية، أو أحوال الشعب الجزائري، وأحوال التعليم الديني ورجاله، ومُضَادِّيه من رجال الطرقية.

وهكذا، وبعد هذه الإقامة لابن باديس بالمدينة «عاد إلى الجزائر، عازماً على الإصلاح، وفق منهج إسلامي، تكونت أبعاده في ذهنه من مجموعة من المؤثرات الهامة؛ صدرت بعضها عن الواقع، وصدرت بعضها عن الثقافة التي تشبع بها الشيخ، وصدرت بعضها عن الروح الإسلامية الجديدة، التي أشاعها في سماء العالم الإسلامي، الإمام محمَّد بن عبد الوهاب، والسيد جمال الدين الأفغاني، وتلميذه وصديقه الشيخ محمَّد عبده»[1].

---

(١) د. عبد الحليم عويس: العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري (متابعة نقدية)، ص: ٢١٩.

هـ ـ **مسيرة العودة:** قفل ابن باديس راجعاً إلى الجزائر من المدينة المنورة، وفي طريق عودته مر بكل من سوريا ولبنان وفلسطين «واجتمع برجال الفكر والعلم والأدب فيها»[1]. وشاهد عن كثب ما كان حاصلاً وجارياً، في هذه الأقطار الإسلامية.

كما مر الإمام بمصر، والتي زار فيها الأزهر الشريف؛ ليطلع عليه وعلى نظام الدراسة والتعليم فيه. واغتنم فرصة وجوده بمصر؛ ليزور الشيخ محمَّد بخيت المطيعي في منزله بحلوان، والذي كان «زميلاً للشيخ محمَّد عبده في الطلب، وهو الوحيد من شيوخ الأزهر، الذي كان يساميه، وينال معه حظاً من الشهرة، خارج مصر». ويشهد له الإمام بأنه «كان عَلَماً في سائر العلوم الأزهرية»[2].

فاتصل به ابن باديس، وأخبره أن شيخه وأستاذه حمدان لونيسي، هو الذي أرسله إليه، وأمره بالاتصال به. فأجابه الشيخ بخيت عن الشيخ لونيسي «ذاك رجل عظيم»، ثم كتب له إجازة في دفتر إجازاته بخط يده[3].

و ـ **حصاد مسيرة العودة:** لقد كانت مسيرة عودة ابن باديس إلى الجزائر، حافلة بالمشاهد والمواقف واللقاءات، التي أجراها وأداها في الأماكن التي توقف بها، والتي تركت ـ مهما كان تأثيرها ـ تأثيرات معينة في شخصيته. ويمكن القول أن هذه الزيارات الخاطفة، واللقاءات السريعة بالعلماء «أطلعته على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية، وفيها خبر أحوال الناس؛ مما وسَّع أفقه، وبصَّره بطريق الخلاص والثورة الفكرية، التي تعتمد على التربية في تكوين القادة من النخبة، أو الصفوة المبدعة»[4].

٤ ـ طور الاستقرار بقسنطينة:

مباشرة بعد أن رجع ابن باديس إلى الجزائر، واستقر بقسنطينة. شرع في

---

(١) د. تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص: ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٦٠٧، وعين مفتيا للديار المصرية سنة ١٩١٤م.

(٣) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٦٠٧.

(٤) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٨١.

ممارسة العمل الإصلاحي الجهادي والتربوي للناشئة، وذلك بالجامع الأخضر، ويسعي من أبيه لدى الحكومة، التي استصدر منها رخصة لابنه، تسمح له بالتدريس. وفي هذا يقول: «فأذنت لي بالتعليم فيه، بعدما كانت منعتني من التعليم بالجامع الكبير؛ بسعي المفتي في ذلك العهد، الشيخ المولود بن الموهوب»[1].

فلم يكن يعرف الراحة في ممارسة العمل الإصلاحي الجهادي، قصد تغيير وإعادة صياغة بناء الإنسان الجزائري عامة، والناشئة خاصة؛ فكان «يعلم الطلاب مختلف الدروس، ويفسر القرآن للمواطنين بالليل. واستمر يتابع دروسه دون ملل لا يعرف الراحة. ويتنقل عبر الوطن. ويلقي دروس الوعظ والإرشاد في المساجد، والمحاضرات في النوادي. ويجمع حوله الرجال الذين يتوسم فيهم القدرة على المشاركة معه في النهضة»[2]، حتى إنه كان يلقي في اليوم الواحد عشرة دروس» أو أكثر. وكانت «الدروس تلقى ابتداءاً من الفجر، حتى الساعة العاشرة، ثم من الظهر حتى العصر»[3]، وواصل عمله على هذه الوتيرة دون انقطاع، إلى أن تم تأسيس جمعية العلماء المسلمين، الجزائريين في أيار من سنة ١٩٣١م.

خامساً: وفاة ابن باديس:

إن ابن باديس رجل عاش من أجل خدمة الرسالة، وإنقاذ أمة كانت تغط في نوم عميق، منذ أمد بعيد. أدرك منذ أن تخرج في الزيتونة، ونال شهادة التطويع فيها، ورجع إلى مسقط رأسه، أنه تحمل أعباء ثقيلة، تنوء بحملها الجبال والأجيال.

---

(١) الشهاب: ٤٢، م ١٤، ص: ٣٠٤. ولمعرفة المناصب التي تقلدها ابن الموهوب، ومكانته. انظر: د. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث، ج ٢، ص: ١٩٤ ـ ١٩٥. وانظر أيضاً محمَّد علي دبوز: نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ص: ١٣٨ ـ ١٤٣.

(٢) محمَّد خير الدين: مذكرات، ص: ١٠٣.

(٣) جريدة الفجر، ص: ٨، ٧ ـ ١٢ ـ ١٩٨٩م.

يقول بعد أن رجع من تونس إلى أهله: «حينما ولجت باب الدار، أسرع إليَّ أبي فعانقني، وقال لأمي ـ في سرور وابتهاج ـ ها هو قد جاءك عالماً . . . فانطلقت من فيها زغرودة ما زلت ـ أتذكرها، ولن أنساها .. وشعرت من أعماقي منذ ذلك اليوم بمدى عبء المسؤولية، التي أحملها على عاتقي بصفتي عالماً، وبما أثرت به في نفسي تلك المناسبة الباقية في ذاكرتي، ما دمت حياً».

وتيقن من ذلك الحين، وظيفة ورسالة ومسؤوليات العالم الرسالي، وسط أمة يغشاها الموت ويلفها الجهل، وتحيط بها المهالك من كل جهة، حتى إذا شرع في العمل الإصلاحي الجهادي الشمولي، لتغيير أوضاع المجتمع الجزائري، أدرك أيضاً جسامة الحمل، وعظمة التكليف. وعلى هذا الأساس نجد الإمام يعترف كيف أن تحمل هَمّ وعبء الإصلاح والجهاد، غيَّر مجرى حياته فيقول: «لولا لطف الله، لكانت حياتي غير الحياة، واتجاهي غير هذا الاتجاه»[1].

وهذا ما دفع بابن باديس، ليعتبر نفسه ملكاً للجزائر، ويصرح بذلك لجمهور الأمة وعلمائها وأساتذتها؛ وذلك عند انتخابه رئيساً للجمعية ـ وإضافة مسؤوليات أخرى إليه ـ فيقول: «إخواني إنني كنت أَعُد نفسي ملكاً للجزائر، أما اليوم فقد زدتم في عنقي ملكية أخرى، فالله أسأل أن يقدرني على القيام بالحق الواجب»[2].

ويَعُد نفسه أحد الجنود الخادمة للإسلام، والساهرة عليه في أرض الجزائر؛ ليجدد أمره ويجدد به شباب الأمة، الذي أصابه البِلَى من صروف الدهر، فيقول: «أرجو أن تعتبروني جندياً من جنود الإسلام والعروبة، في القطر الجزائري، لا أكثر ولا أقل»[3].

فحياته ومماته للإسلام والجزائر. ويسائل نفسه والأمة لمن أعيش أنا؟ فيجيب بنفسه على نفسه: أعيش للإسلام والجزائر.

---

(١) الأصالة: ص ٤، ع ٢٤، ص: ١١٢ ـ ١١٣. من شهادة لعلي مرحوم.

(٢) جريدة الشعب: ع ٢٢٨٠، ص: ٧. ١٦ ـ ٤ ـ ١٩٧٠م.

(٣) الشهاب: ج ٦، م ٧، ص: ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٤) الشهاب: ج ٥، م ٣، ص: ٢٢٦.

إن الإمام ابن باديس بهذا الاعتبار، وهذا الإحساس والإدراك، عاش من أجل الآخرين، من أجل إنقاذهم وإسعادهم؛ يشقى هو ليستريح غيره. وهكذا هم العلماء الربانيون المجاهدون، يحترقون ليضيئوا طريق الحياة والحرية والكرامة لشعوبهم. فنجده يقول: «فأنا رجل مسلم ورجل وطني، كل حواسي وكل عقلي هو لخدمة وطني. نعم أخدمه وأدرجه، حتى لا يكون هنالك اندحار ولا انهيار»(١).

وعلى هذا الأساس، كان ابن باديس زاهداً في الحياة الدنيا ومتاعها وزينتها، يسرح زوجه في مقتبل العمر «ويأكل في إناء من الطين، وملعقة من خشب»(٢)، ويكتفي في طعامه بالقليل «الذي يمسك عليه حشاشة الروح. وكثيراً ما تكون وجبة غذائه الخبز واللبن... أو يؤتى له أحياناً بقدر من الكسكس مع اللبن، من دار أبيه. وفي عدة مناسبات كنا ـ كما يذكر علي مرحوم ـ ندعى معه من طرف بعض محبيه وأنصاره، وحين توضع المائدة أمامنا، يسأل صاحب الدعوة عما إذا كان يوجد كسكس، فإذا كان موجوداً فلا يزيد عليه، وإذا لم يوجد فلا يتناول إلاّ من طعام واحد، دون تعدد»(٣). كما نجده زاهداً في لباسه، يلبس لباس عامة الشعب الجزائري «لا يزيد عن العمامة والجبة والبرنوس»(٤). وفي فصل الشتاء «يتخذ كل لباسه من الصوف ما عدا القميص، وهو حريص على استعمال كل ما هو إنتاج وطني في جميع شؤون حياته؛ ليكون قدوة حسنة لغيره»(٥). يذكر الشيخ أحمد المزهود عن ابن باديس أنه «كان يفرح إذا رأى طلبته يلبسون ما تنسجه الأمهات والجدات، وهي إشارة لقطع الصلة بكل ما له علاقة بفرنسا»(٦).

وزاهداً في طعامه إلى أقصى الحدود، فلا يتناول إلا طعام سواد الشعب،

---

(١) الشهاب: ج ٨، م ١٢، ص: ٣٦٠.
(٢) جريدة الفجر: ص: ٨. ٧ ـ ١٢ ـ ١٩٨٩م.
(٣) الأصالة: س ٤، ع ٢٤، ص: ١١٤.
(٤) جريدة الفجر، ص: ٨، ٧ ـ ١٢ ـ ١٩٨٩م.
(٥) الأصالة: س ٤، ع ٢٤، ص: ١١٤.
(٦) جريدة الفجر، ص: ٨، ع ٧ ـ ١٢ ـ ٨٩.

رغم ثراء أسرته، ورغد عيشها. فذات مرة خرج من مقصورة جامع سيدي قموش، يريد أحداً يشتري له نصف لتر لبناً، فأخذ أحد التجار الإناء، و «رآها فرصة لإكرام الشيخ فذهب بنفسه إلى شواء، واشترى له صحناً من اللحم المختار، وعاد إلى الشيخ ـ وهو يكاد يطير من شدة الفرح ـ ولما قدَّمه إليه استشاط غضباً، وقال له في لهجة شديدة صارمة: «ألا تعلم أنني ابن مصطفى بن باديس، وأن أنواعاً مختلفة من الطعام اللذيذ تعد كل يوم في بيته، لو أردت التمتع بالطعام، ولكن ضميري لا يسمح لي بذلك، وطلبتي يسيغون الخبز بالزيت، وقد يأكله بعضهم بالماء»[1].

هكذا عاش الإمام عبد الحميد بن باديس، حياة الشظف والتعب والكد. وكان بإمكانه أن يعيش حياة أخرى، تختلف عن هذه جملة وتفصيلاً؛ معززاً مكرماً في بيت الأبوة المحترم، لا ينقصه شيء، ولا تعوزه حاجة. ولكنه أبى إلا أن يحيا مجاهداً «يعلم ويرشد، ويعظ ويحرر. ويتنقل ويتعبد، ويتأمل ويحقق. لا يهدأ له بال لا بالليل ولا بالنهار. لم يُشفِق على نفسه ولا على جسمه. ولم يبال لصحته في سبيل مبدأ أعظم، وأمة يسوء حالها، ويدمي نفسه احتلالها، ويدفعه للبذل والسهر مآلها وآمالها، أفنى ذاته في سبيل عقيدة، وقضى من أجل رسالة»[2].

حتى إنه أصيب بداء السرطان في الأمعاء[3]. وأضاف البعض سل العظام[4]، ومع كل هذا «كانت إقامته قبل وفاته محددة من طرف الإدارة الاستعمارية في مدينة قسنطينة، ليس له أن يبرحها إلى غيرها من نواحي البلاد»[5]. مما جعل وفاته غير طبيعية[6].

---

(١) محمَّد الصالح الصديق: الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس من آرائه ومواقفه، ص: ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) د. عمال الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٩٤ ـ ٩٥.

(٣) أساتذة: نوابغ العرب، ص: ١٠٠.

(٤) أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ج ٢، ص: ١٢.

(٥) أساتذة: نوابغ العرب، ص: ١٠١.

(٦) حسن عبد الرَّحمن سلوادي: عبد الحميد بن باديس مفسراً، ص: ٥٦.

في هذه الظروف الحياتية العصيبة والشاقة، وافى الأجل الإمام عبد الحميد ابن باديس مساء الثلاثاء ٨ ربيع الأول ١٣٩٥هـ الموافق لـ ١٦ نيسان ١٩٤٠م، وشيعت جنازته في موكب جنائزي ويوم مشهود «كان المشيعون ـ له ـ خمسين ألفاً أو يزيدون»[١]. تأثر لوفاته جميع الشعب الجزائري؛ لأن الإمام دخل ضمير الأمة كلها. يذكر لنا ـ على سبيل المثال فقط ـ الأستاذ محمَّد الميلي، أنه لما رجع من المدرسة؛ لأن الدراسة توقفت، لما تناقل الناس خبر وفاة الإمام، وأخبر أمه بوفاته، وكانت منكبة على تحضير طعام العشاء، فأجهشت بالبكاء، وعند ذلك أحس الابن «أن موت الشيخ ابن باديس، لم يكن حدثاً عادياً»[٢].

ويتحدث عن الإمام ابن باديس واصفاً إياه فيقول: «ولم يرسب في خاطري من تلك المشاهد، إلا صورة رجل مهيب، صارم الوجه، يترك فيك انطباعاً أنك أمام جبل، رغم قامته القصيرة»[٣].

وينقل لنا وصف حالة أبيه محمَّد مبارك الميلي، إثر رجوعه من قسنطينة، بعد تشييع جنازة الإمام، إلى مثواه الأخير فيقول: «لم يكلمني أبي، أو بعبارة أدق لم يجد القدرة على الكلام... تحركت شفتاه لكن بدون صوت... وظل كذلك بضعة أيام... كان خلالها يعرب عن مطالبه بالإشارة»[٤].

وقد رثاه الشاعر محمَّد العيد آل خليفة بقصيدة، ارتجلها عندما وقف لأول مرة على قبره، نقشت فيما بعد على رخامة، وعلقت على ضريحه، ومما جاء فيها:

يا قبر طبت وطاب فيك عبير	هل أنت بالضيف العزيز خبير!؟
هذا ابن باديس الإمام المرتضى	عبد الحميد إلى حماك يصير
العالم الفذ الذي لعلومه	صِيتٌ بأطراف البلاد كبير
بعث الجزائر بعد طول سباتها	فالشعب فيها بالحياة بصير

(١) الأصالة: س ٨، ع ٦٨ ـ ٦٩، ص: ٤٩. ٤ ـ ٥ ـ ١٩٧٩م.

(٢) محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: ٨.

(٣) محمَّد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: ٨.

(٤) محمَّد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: ٨.

إلى أن يقول:

نـم هـادئـاً فـالـشـعـب بـعـدك راشـد يـخـتـط نـهـجـك فـي الـهـدى ويـسـيـر
لا تـخشى ضيعة ما تركت لنا سدى فـالـوارثـون لـمـا تـركـت كـثـيـر[1]

وحقيقة كان كذلك الإمام عبد الحميد ابن باديس طوال فترة حياته وجهاده، عاش من أجل إحياء أمة، وبعثها إلى الوجود؛ لتحيا حياة حرة وكريمة.

(١) انظر القصيدة كاملة عند محمَّد العيد آل الخليفة: الديوان، ص: ٤٧٤.



الفَصْلُ الثّاني

جهاد ابن باديس ضدّ الاستعمار الفرنسي

إن التأريخ لجهاد ابن باديس، لا يصح تحديده وبدؤه بتأسيسه ـ مع إخوانه العلماء ـ لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في أيار ١٩٣١م؛ ذلك أن ظهور الجمعية في عقد الثلاثينات من هذا القرن، لم يكن وليد طفرة. بل من الواجب حسبما يستلزمه البحث التاريخي، وتقتضيه معطياته وحقائقه، الرجوع إلى كل المبررات والممهدات، والخطوات العملية والحركية، التي عملها وتحركها وخطاها ابن باديس وغيره، من العلماء المجاهدين منذ أواخر القرن التاسع عشر، وحتى مطلع القرن العشرين، والتي كانت بمثابة أرضية وبذور ولبنات أولى، وضعت في طريق العمل النهضوي الإصلاحي الجهادي بالجزائر، والتي في مجموعها شكلت نواة مرتكز، ارتكزت واعتمدت عليها الجمعية فيما بعد، في ظهورها ونشاطها.

وحتى جهاد ابن باديس مع أخيه في الجهاد محمَّد البشير الإبراهيمي خاصة، وباقي العلماء عامة، ابتداءً من عشرينيات هذا القرن، وإلى غاية تأسيس جمعية العلماء، إنما جاء كمرحلة من مراحل العمل الإصلاحي الجهادي، الذي كان قد شرع فيه ابن باديس مباشرة بعد رجوعه من الحجاز سنة ١٩١٣م، واستقراره بقسنطينة، وعمله بمساجدها.

ويعتبر تأسيس وظهور الجمعية بشكل مؤسسة اجتماعية، تجمع جهود العلماء العاملين، وتنظمها في العمل الإصلاحي الجهادي، بالنظر إلى ما سبقها من جهد وجهاد ابن باديس، ومن سبقه كالشيخ المجاوي والشيخ الصالح بن مهنا، وغيرهما كثير، حلقة متطورة شكلاً ومضموناً، في سلسلة حلقات العمل الإصلاحي الجهادي الثقافي، المتعددة والمتسلسلة والمتكاملة، في تاريخ الجهاد

الثقافي للشعب الجزائري، ضد الاستعمار الفرنسي، والذي تنوعت فيه الجهود بين الفردية والجماعية، بين الحين والآخر.

وعلى هذا الأساس سوف نبدأ التأريخ والدراسة لجهاد ابن باديس، منذ أن خطا الخطوات الأولى في طريق مشروع إصلاحي جهادي طويل المدى، متعدد المراحل، ومتنوع الوسائل والأساليب. ارتسمت واتضحت صورته وملامحه ومراحله وأهدافه في ذهنه، منذ أن بدأ يعمل وهو في أول الطريق، بعدما اتفق مع أخيه الإبراهيمي ـ في الحجاز ـ على الخطوة والمنهج. وذلك إيماناً منا أن العمل الإصلاحي والجهادي الدعوي، مراحل وخطوات تتكيف مع ظروف المعيشة، والأجواء المحيطة. ويتماشى والوسائل المتاحة، والإمكانات المتوفرة والممكنة، والأسباب المتحققة. خصوصاً وأن ابن باديس وإخوانه العلماء، الذين أسسوا جميعاً ـ فيما بعد ـ مؤسسة جمعية العلماء، قد آمنوا إيماناً عميقاً أن جهود الحركة الوطنية عامة في الماضي ـ ومنذ دخول الاستعمار الفرنسي ـ لم تحقق بصورة كاملة الأهداف التي من أجلها وجدت وتأسست، وعلى أساسها قامت وتحركت، واجتهدت وجاهدت، والتي كان يتطلع إليها الشعب الجزائري بكامله.

وبناء على هذا، فإننا سنقسم جهاد ابن باديس ضد الاحتلال الفرنسي والقابلية لاحتلاله، إلى مرحلتين كبيرتين، متميزتين في الشكل والوسائل والأساليب والخصائص، ومشتركتين في الأهداف الاستراتيجية الكبرى لهما وهما:

أولاً: مرحلة الجهاد الفردي.

ثانياً: مرحلة الجهاد الجماعي.

ونبدأ بالمرحلة الأولى:

أولاً: مرحلة الجهاد الفردي

ابتدأ ابن باديس المرحلة الأولى من حركته الإصلاحية الجهادية ضد الاستعمار الفرنسي، مباشرة بعد أن أنهى مرحلة التحصيل العلمي، وعاد إلى قسنطينة سنة ١٩١٣م، في ظروف تاريخية واجتماعية، وثقافية وسياسية عصيبة ومأساوية، كان الشعب الجزائري يعيشها آنذاك. والتي يلخصها لنا ابن باديس

نفسه في سنة ١٩٣٩م بقوله: «لقد كان هذا العبد يجاهد قبل عقد من السنين، في هذا القطر القريب من الفناء، ليست له مدارس تعلمه، وليس له رجال يدافعون عنه، ويموتون عليه. بل كان في اضطراب دائم مستمر، وياليته كان في حالة هناء. وكان أبناؤه يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية، التي لا تعطيهم غالباً من العلم إلا ذلك الفتات، الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف، حتى إذا أخرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم، وقد ينكرونها. هذه هي الحالة التي كنا عليها في تاريخنا الحديث»[1].

وقد بينا في التمهيد، من خلال عرض ملامح الوضع العام المأساوي الذي كان يعيشه الشعب الجزائري، منذ أواخر القرن التاسع عشر، وإلى مطلع القرن العشرين الميلاديين، والذي كان التخلف الحضاري الشامل للأمة من أسبابه البعيدة العميقة، وسياسة الاستعمار الفرنسي الاستيطاني من أسبابه القريبة المباشرة.

هذه السياسة التي عملت ـ بكل ما أوتيت من قوة الحديد والنار والقوانين التعسفية ـ على تخريب العوالم التي تشكِّل المجتمع الجزائري، وتمده بالبقاء والاستمرارية والتميز الحضاري العام؛ وهي عالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وعالم الأفكار، تخريباً شاملاً، والذي يعتبر أفظع شيء أصاب الأمة الجزائرية في تاريخها الحديث. لم تستطع ولم تتمكن ـ بشكل واضح وكامل ـ لا الحركات الثورية، ولا السياسية، ولا الثقافية، الفردية البطولية ـ التي سبقت جهاد ابن باديس ـ من تداركه وتوقيف نخره، واستنزافه لجهود وطاقات وإمكانات المجتمع الجزائري؛ الفكرية والبشرية والمادية.

وعجزت ـ بالتالي ـ عن تحقيق التغيير في بنيته الذاتية؛ مما يؤهله ويمكنه من التحرر من عوامل وأسباب وشروط القابلية للاستعمار، والتي يعني التخلص منها، خطوة أولى أساسية وضرورية، نحو التحرر من الاستعمار نفسه، بكل أشكاله وصوره.

---

(١) البصائر: س ٤، ع ٧١، ص: ٥ ـ ٦.

وأمام هذا الوضع الذي كان يعيشه الشعب الجزائري، وهذا العجز شبه الكلي من الحركات الجهادية المختلفة، السابقة لجهاد ابن باديس، في إحداث تغيير شامل وجذري لهذا الوضع، وإحداث نقلة نوعية، وإقلاع حضاري للمجتمع الجزائري، «فإن اللحظات التاريخية، كانت تنتظر شخصية كشخصية ابن باديس، تقوم بدور ثوري، يعبر عما يختلج في النفوس من قلق وأمل، ويضيء الطريق أمام الحائرين، ويجمع الشتات، ويوجه الطاقات، ويحيي الشخصية الإسلامية التي أتاها البلاء من كل مكان، وأصابها القرح، وتكالبت عليها ذئاب الغرب. وهكذا جاءت الأيام بالمولود الجديد، منقذ الأمة، وقائدها لصنع مصيرها، وخلق تاريخها»[١].

وكان ذلك الوضع وذلك العجز، بمثابة شروط نفسية واجتماعية وفرها الله، وهيأها لظهور الإمام وبداية حركته؛ حتى يجد المجتمع في حالة من الضيق والضنك واليأس، ينتظر معها منقذاً ينقذها وينتشلها منها، ويغير من وضعيتها وطابع حياتها، ويؤهلها لأن تنطلق بقوة نحو استرجاع ما سلب منها، أيام تخلفها وضعفها.

فكانت أول خطوة خطاها الإمام عبد الحميد ابن باديس في حركته الإصلاحية الجهادية، ممارساً للعمل التاريخي، والواجبات الرسالية، قيامه بالتدريس بالجامع الكبير بقسنطينة، بعد أن أنهى مرحلة التحصيل العلمي بالزيتونة. فكان يلقي دروساً على جمهور المصلين، يشرح فيها كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض، وعمره لم يتجاوز آنذاك أربعاً وعشرين سنة.

ولكن تدريسه هذا لم يدم طويلاً؛ إذ سرعان ما حاك له خصوم الإصلاح والتجديد مؤامرة حقيرة، تمثلت في العمل «على إقلاقه ومنعه. وأطفأوا عليه الضوء وهو في الدرس»[٢]. مما دفعه واضطره إلى استئذان أبيه للسفر إلى بيت

---

(١) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٧٢.

(٢) د. عمار الطالبي: المرجع السابق، ص: ٨٠.

الله الحرام، واللحاق بشيخه وأستاذه الشيخ حمدان لونيسي، وملاقاته. فيمكث هناك بضعة أشهر، ويعود بعدها في السنة نفسها ـ سنة ١٩١٣م ـ إلى الجزائر، ويستقر به المقام في قسنطينة، التي شرع فيها بممارسة العمل الإصلاحي الجهادي. ولكن هذه المرة ـ بخلاف الأولى ـ استجابة وتلبية لوصية الشيخ حسين أحمد الهندي؛ الذي أوصاه بالعودة إلى الجزائر، لإنقاذها من مأساتها التي تتخبط فيها منذ زمن طويل. وتنفيذاً وتحقيقاً لما اتفق عليه مع أخيه في الجهاد الشيخ محمَّد البشير الإبراهيمي، في أسمارهما الليلية بالمدينة المنورة.

«فعاد إلى الجزائر عازماً على الإصلاح وفق منهج إسلامي، تكونت أبعاده في ذهنه من مجموعة من المؤثرات الهامة؛ صدرت بعضها عن الواقع، وصدر بعضها عن الثقافة التي تشبع بها الشيخ، وصدر بعضها عن الروح الإسلامية الجديدة التي أشاعها في سماء العالم الإسلامي الإمام محمَّد بن عبد الوهاب، والسيد جمال الدين الأفغاني، وتلميذه وصديقه محمَّد عبده»[(١)].

بدأ التدريس أولاً بالجامع الكبير، ولكنه لم يستمر طويلاً؛ إذ سرعان ما تدخلت الإدارة الاستعمارية ومنعته، وذلك بسعي من المفتي ابن الموهوب. «فكان كلما حضر إلى التدريس منعوه من ذلك»[(٢)] فاستنجد بوالده ،الذي تدخل واستصدر له رخصة من الإدارة؛ نظراً لمكانته وسمعته لديها. وفي هذا يقول ابن باديس «فأذنت لي بالتعليم فيه ـ في الجامع الأخضر ـ بعدما كانت منعتني من التعليم بالجامع الكبير، بسعي المفتي في ذلك العهد، الشيخ المولود بن الموهوب»[(٣)].

فشرع في التعليم بالجامع الأخضر، ورابط فيه مدرساً، وفي كل من مساجد؛ سيدي قموش، وسيدي عبد المؤمن، وسيدي بومعزة، وسيدي

---

(١) عبد الحليم عويس: العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري، ص: ٢١٩.

(٢) جريدة الفجر، ص: ٨، ٧ ـ ١٢ ـ ١٩٨٩م.

(٣) الشهاب: ج ٤، م ١٤، ص: ٣٠٤. ولمعرفة المناصب التي تقلدها ابن الموهوب ومكانته انظر: د. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج ٢، ص: ١٩٤ ـ١٩٥.

فتح الله. يتنقل بينها ليلاً ونهاراً؛ حتى إنه لم يكن يعرف الراحة في ممارسة عمله الإصلاحي الجهادي. «فيعلم الطلاب مختلف الدروس، ويفسر القرآن للمواطنين بالليل. واستمر يتابع دروسه دون ملل، لا يعرف الراحة. ويتنقل عبر الوطن. ويلقي دروس الوعظ والإرشاد في المساجد، والمحاضرات في النوادي، ويجمع حوله الرجال، الذين يتوسم فيهم القدرة على المشاركة معه في النهضة»[١]، لتغطية متطلبات التربية والتعليم، واستيعاب أكبر قدر ممكن من التلاميذ؛ حتى إنه كان يلقي في اليوم الواحد عشرة دروس[٢] أو أكثر، يقضي سحابة نهاره ومعظم ليله، بين التدريس والتعليم والتحضير، والقيام بأعباء العمل الإصلاحي الجهادي الأخرى، والأسفار، والتنقلات. «يبدأ التدريس بعد صلاة الفجر، ويقضي طيلة نهاره مدرساً الأطفال الصغار. وكان لا ينقطع إلا لصلاة الظهر، وبعدها لتناول قليل من الطعام، ثم يواصل تدريسه لهم إلى غاية صلاة العشاء فوجاً فوجاً. ومن التاسعة ليلاً إلى منتصف الليل، ينتقل إلى تدريس الكبار»[٣].

وواصل جهاده في صمت؛ حتى لا ينتبه إليه الاستعمار وعيونه. «وانهال عليه طلاب العلم من الجبال والسهول إلى أن ضاقت بهم المدينة. وأعانه على تنظيمهم وإيوائهم وإطعام المحاويج منهم، جماعة من أهل الخير، ومحبي العلم. فقويت بهم عزيمته، وسار لا يلوي على صائح[٤]».

واندلعت الحرب العالمية الأولى «وهو في بداية الطريق، فاعتصم بالله فكفاه شر الاستعمار»[٥]. وتعاظم عدد الطلبة الوافدين على المعهد الصغير الجامع الأخضر، حتى أصبح «يضم ما يقارب الألف من الطلبة»[٦]. مما دفع الأمر بالإمام إلى التفكير في ضرورة فتح مدرسة؛ لاستيعاب أفواج الطلبة المتزايدة. فيُكوِّن مدرسة ابتدائية، في بناية تقع فوق مسجد سيدي بومعزة

---

(١) محمَّد خير الدين: مذكرات، ص: ١٠٣.
(٢) حسين عبد الرَّحمن سلوادي: عبد الحميد بن باديس مفسراً، ص: ٤٣.
(٣) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ١٧ ـ ١٨.
(٤) الثقافة: س: ١٥، ع ٨٧، ص: ١٩ ـ ٢٠.
(٥) الثقافة : العدد نفسه، ص: ٢٠.
(٦) الأصالة: س ٦، ع ٤٤، ص: ٦٤.

كمرحلة أولى، ثم ينقلها من بعد ذلك إلى مقر الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست عام ١٩١٧م، ولتحول سنة ١٩٣٠م - في مرحلتها الأخيرة - إلى مدرسة، باسم مدرسة التربية والتعليم الإسلامية، «حيث حرر قانونها الأساسي، وقدمه باسمها إلى الحكومة، فصادقت عليه، دون أن تدرك خطورته»[١].

وحَدَّد أهدافها في أنها تسعى «لنشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف العربية والفرنسية، والصنائع اليدوية، بين أبناء وبنات المسلمين»[٢]. وذلك باعتماد الوسائل التالية: تأسيس مدرسة للتعليم، تأسيس ملجأ للأيتام، تأسيس ناد للمحاضرات، تأسيس معمل للصنائع. وكذا العمل على إرسال بعثات طلابية، على نفقة الجمعية؛ للدراسة في الكليات. والتعلم في المعامل الكبرى.

كما يشير قانونها الأساسي، إلى الأسس التي أقيمت عليها الجمعية، والأهداف التي تسعى إليها؛ في أنها «بُنيت من الوجهة التربوية على تربية أبناء وبنات المسلمين الجزائريين، تربية إسلامية؛ بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم. ومن الوجهة التعليمية، على تثقيف أفكارهم؛ بالعلم باللسانين العربي والفرنسي، وتعليمهم الصنائع. ومن الوجهة المالية على تعويد الأمة على العطاء المنظم، وتوسيع نطاق الجمعية بجعل الاشتراك الشهري فيها فرنكين»[٣]. كما أشار القانون الأساسي، إلى نقطة مهمة وأساسية لها مدلول حضاري، ومغزى تعليمي بعيد وعميق. «أن البنين يدفع القادرون منهم واجب التعليم، وأما البنات فيتعلمن كلهن مجاناً»[٤].

ولقد قامت هذه المدرسة بدور حضاري هام في مجال تربية وتعليم الناشئة، حيث؛ «تخرج منها جيل كامل تحت إرشاد ابن باديس»[٥]. كما استقطبت الكبار رجالاً ونساءً. فكان ابن باديس مخصصاً فيها دروساً للعمال يوم

---

(١) د. تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص: ٣٥٤.
(٢) د. تركي رابح: المرجع نفسه، ص: ٣٥٤.
(٣) د. تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص: ٣٥٥.
(٤) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ١١٥.
(٥) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٤٢٢.

الأحد. أما النساء قواعد البيوت، فخصص لهن درساً أسبوعياً، بالجامع الأخضر.

ثم بعد تأسيسه وفتحه لهذه المدرسة، انتقل ابن باديس بالعمل الإصلاحي الجهادي من مجال العمل المسجدي والمدرسي، إلى مجال العمل الصحفي. فإدراكاً منه لأهمية وسائل الإعلام والاتصال، ودورها في الاتصال بالقاعدة الشعبية العريضة بمختلف شرائحها، بحكم أنها عبارة عن مدارس متنقلة، تساهم بشكل فعال في نشر الأفكار والمبادئ. يؤسس جريدة المنتقد الأسبوعية في ١١ ذي الحجة ١٣٤٣هـ ٢ تموز ١٩٢٥م، ويصدرها صبيحة كل خميس من كل أسبوع. تولى بنفسه رئاسة تحريرها، بينما أوكل رئاسة إدارتها إلى السيد أحمد بوشمال. وجعل شعارها (الحق فوق كل واحد، والوطن قبل كل شيء).

جاء في افتتاحية عددها الأول، وفي صفحتها الأولى، بيان لحظة الجريدة وأهدافها ومنهجها في العمل الإصلاحي الجهادي تحت عنوان «مبدؤنا وغايتنا وشعارنا مايلي: بسم الله، ثم بسم الحق والوطن، ندخل عالم الصحافة العظيم، شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون. وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها، لا مقصرين ولا متوانين. راجين أن ندرك شيئاً من الغاية التي نرمي إليها بعون الله، ثم بجدنا وثباتنا وإخلاصنا، وإعانة إخواننا الصادقين في خدمة الدين والوطن»[1].

ثم تشرح الجريدة المبادئ التي تقوم ـ على أساسها ـ وينطلق منها عمل مؤسسيها الصحفي والإصلاحي الجهادي، والتي حدودها في ثلاثة مبادئ هي: المبدأ السياسي، المبدأ التهذيبي، المبدأ الانتقادي.

ولكن الجريدة لم تُعمِّر طويلاً؛ إذ بعد إصدار العدد الثامن عشر من سنتها الأولى سنة ١٩٢٥م، تدخلت الإدارة الاستعمارية، وأوقفتها بقرار تعسفي، أصدرته في ٢٩ تشرين الأول ١٩٢٥م.

---

(١) المنتقد: س ١، ع ١، ص: ١.

ورغم هذا، فإن إرادة وعزيمة ابن باديس لم تنثن، ولم يصبه الوهن بعد توقيف المنتقد الشهيدة. فأصدر بعدها مباشرة جريدة الشهاب الأسبوعية، في ١٢ تشرين الثاني ١٩٢٥م، تحت شعار (تستطيع الظروف أن تكيفنا، ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا). وبقي ابن باديس نفسه رئيس تحريرها، والسيد أحمد بوشمال رئيس إدارتها وصاحب امتيازها. واستمرت في الصدور أسبوعياً، لتتحول ابتداء من شباط ١٩٢٩م إلى مجلة شهرية؛ نظراً لتكاليفها الباهظة، والعراقيل التي كانت تواجهها من قبل الإدارة الاستعمارية، حتى إنها كانت في كل مرة عند إصدارها، تكاد تتوقف، لولا تدخل والده، ومساندته له مادياً وأدبياً.

وحرصاً من ابن باديس على إصدار هاتين الجريدتين بصورة منتظمة، أنشأ المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة سنة ١٩٢٥م، حتى يُؤمِّن لنفسه وسائل طبعهما وصدورهما، ولا يقع ـ بالتالي ـ لا في حرج ولا في مشقة يكونان عبئاً ثقيلاً عليه، يحول بينه وبين القيام بمهامه الإصلاحية الجهادية على أكمل وأتم وجه مطلوب.

وتتوثق الصلة والعلاقة بينه وبين الإبراهيمي فيما بين ١٩٢٠م ـ ١٩٣٠م، وتتعدد اللقاءات بينهما. فكانا يلتقيان «في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر»[١] يتدارسان ويتناقشان أوضاع الإسلام والجزائر. يقول الإبراهيمي عنها «فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن آثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجآت حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها، إرهاصات لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»[٢].

وقد حقق الله وهيأ لابن باديس جملة من الشروط والأسباب، التي مكنته ووفقته ليمارس العمل الإصلاحي الجهادي، من غير أن يحتاج الوظيفة، أو يخاف من بطش الاستعمار به.

---

(١) الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ٢١.

(٢) الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ٢١.

ومن ذلك ثراء أسرته الذي ساعده «على أن يتحرر من الحاجة إلى طلب الوظيفة من الإدارة الاستعمارية، وعلى أن يخصص حياته بأسرها لإحياء الروح الجزائرية»[1]. كما عمل على الاستفادة من وضعيتها ومنزلتها الاجتماعية المعتبرة؛ خصوصاً الوضع الامتيازي لوالده لدى السلطات الفرنسية وأوساطها؛ بحيث استغفلها الإمام احتماءً بأبيه، وكانت النتيجة أن «سكتت عن الابن احتراماً لشخصية الوالد»[2].

وهكذا ظل الإمام ابن باديس يمارس العمل الدعوي الإصلاحي الجهادي فردياً، طيلة الفترة التي امتدت من سنة ١٩١٣م إلى سنة ١٩٣١م؛ السنة التي انتقل فيها الإمام إلى المرحلة التالية من عمله الإصلاحي الجهادي؛ لممارسته جماعياً من خلال تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مع إخوانه العلماء.

ثانياً: حصاد جهاد المرحلة وتقييمها

إن هذه المرحلة الأولى من جهاد ابن باديس في سبيل الدعوة الإصلاحية؛ لإحياء معالم الإسلام، وإنقاذ الأمة من براثن الاستعمار، والتي امتدت على ثماني عشرة سنة من العمل والجهد المتواصل. تمثلت أولاً في مرابطته مدرساً ومعلماً بالجامع الكبير، ثم بالجامع الأخضر من بعده، وفي سيدي قموش، وسيدي عبد المؤمن، وسيدي بومعزة المسجد العائلي، للصغار والكبار معاً. بعد أن «كان التعليم في مساجد قسنطينة لا يشمل إلا الكبار. وأما الصغار فإنهم يتعلمون القرآن فقط في الكتاتيب على طريقة المغاربة، التي يذكرها ابن خلدون في مقدمته»[3].

فكان يعلم الصغار من غير تعطيلهم أو توقيفهم عن الدراسة بالكتاتيب، صباحاً ومساءاً بعد الخروج منها. وفي هذا يقول ابن باديس: «فلما يسر الله لي

---

(١) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ١٥.

(٢) الثقافة: المرجع السابق، ص: ٢٠.

(٣) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ١١٤.

الانتساب للتعليم عام ١٣٣٢هـ ١٩١٣م، جعلت من جملة دروسي تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة، وآخر العشية. فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار»[١] لمبادئ اللغة العربية والدين، وعلومهما.

ولم يكن الإمام وقتئذ يعرف استقراراً بمسجد معين، بل كان يتنقل بين معظم مساجد قسنطينة؛ نظراً لمضايقات الاستعمار وعيونه له، وتألُّب خصوم الإصلاح عليه. إلى أن استقر به المقام في الجامع الأخضر، الذي تحول إلى مؤسسة ومعهد، يضم ما يناهز الألف طالب.

فكانت دروسه «تجتذب أفواجاً من الشباب. ودروس الوعظ والإرشاد كانت تجتذب الجماهير إلى حظيرة الإصلاح، وتحدث كل يوم ثغرة في صفوف الضلال». فيأخذ الجميع من علمه، وينهل من نبعه، ويتربى على يديه، ويتعلم ما يصلح به أمر دينه، ودنياه وآخرته.

فكانت دروسه ـ بحق ـ سبباً قوياً وهاماً في إحياء تعاليم الإسلام وروح العربية، والإحساس بالوطنية في النفوس، «وحجر الزاوية في إقامة صرح النهضة»[٢] الإسلامية والعربية في الجزائر.

واستطاع ابن باديس بعمله التعليمي التربوي المكثف والمنظم والمتواصل، أن يُخرِّج جيلاً من الشباب المتشبع بقيم الإسلام ولغته وآدابها. ويعتبر هو نفسه «أن هذه المجموعة من التلاميذ التي تناهز الألف، هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر»[٣]، التي تخرجت على يديه، وأصبح أفرادها «يَنظِمون الشعر العربي بلغة فصيحة، وتركيب عربي حر. . . ويُحبِّرون المقالات البديعة في الصحف، فلا يقصرون عن أمثالهم، من إخوانهم في المشرق العربي. . .ويعتلون المنابر، فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القول المؤثر، والوصف الجامع، يصفون الدواء الشافي، بالقول البليغ»[٤].

---

(١) د. رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص: ٣٥٣.
(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ١١٤.
(٣) الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ٢٠.
(٤) الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ٢٠.

ويدعم ابن باديس عمله التربوي المسجدي ويوسعه، بتأسيس مدرسة جمعية التربية والتعليم الإسلامية؛ «لنشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف الدينية والعربية، والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين»[1]. فكان هدفها ذا وجهين: علمي، وعملي؛ لمحو الأمية العلمية، وإكساب الصغار المقبلين على الحياة حرفاً وصنائع يستفيدون منها، ويفيدون بها مجتمعهم، الذي هو في أمس الحاجة إلى خدماتهم العلمية والعملية. ويركز في تحقيق هذا على البنات خصوصاً؛ بحكم أن الوضع الذي كن يعشنه، حرمهن من حقهن الشرعي في تعلم العلم، وما يحتجنه من صنائع وحرف منزلية، فيسمح لهن ـ تشجيعاً ـ بالتعلم في المدرسة مجاناً.

وواصلت المدرسة تعليمها للناشئة ذكوراً وإناثاً. «فما كانت تنقضي مدة، حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات، من فِكَر صحيحة، وعقول نيرة، ونفوس طامحة، وعزائم صادقة، وألسن صقيلة، وأقلام كاتبة»[2].

وحققت وعدها، وتحقق أمل القائمين على إدارتها وتسييرها، بإرسال الطلبة المتفوقين علمياً على ـ نفقتها ـ إلى الزيتونة ـ خصوصاً ـ ؛ لإكمال دراستهم العليا بجامعها. والنابغين صنائعياً وجهتهم إلى المعامل الكبرى؛ لإتمام تمرسها الحرفي. لترجع البعثة الطلابية بعد إكمال دراستها بالزيتونة، فيكون «من مجموعها ومما تخرج بعدها، من تلاميذ الأستاذ ومن تلاميذ جامع الزيتونة، جنود الإصلاح وقادته، وألويته المرفرفة، وأسلحته النافذة»[3].

ويقضي ابن باديس مدة ثماني عشرة سنة في التعليم والتربية والعمل الهادئ بعيداً عن الضوضاء، وإحداث الصخب؛ لأنه «كان يحب العمل المنظم الهادف، ولكن دون ضوضاء أو إثارة نعرات؛ سواء منها السياسية التي تثير أحقاد المستعمرين، أو الدينية التي تمزق كلمة المسلمين»[4]. يعلم الصغار ويركز

---

(١) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ١١٤.

(٢) سجل المؤتمر، ص: ٤٨.

(٣) سجل المؤتمر، ص: ٤٨.

(٤) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون: الكفاح القومي والسياسي، ج ١، ص: ١٦٤.

عليهم، ويدرس الكبار ولا يهملهم. ويخرج أفواجاً وكتائب، يضع ويُكوِّن بها أساس ونواة نهضة إصلاحية ودعوية شاملة من بعد؛ «لأن الإصلاح الديني ـ كما يؤكد ذلك الإبراهيمي ـ لا يطمئن به المضجع في هذه الديار ولا ترسخ جذوره إلا إذا مهدت له الأرض ونقيت»[1]. فتكون دعائمه التي يقوم عليها، ويقوى بها وقت الشدة والحاجة، في صف جمعية العلماء في الثلاثينات. نذكر منهم ـ على سبيل المثال ـ «محمد المبارك الميلي، والسعيد الزاهري، والعربي التبسي، ثم حمزة بوكوشة، ومحمد خير الدين، وفرحات الدراجي، وآخرين ممن قاموا بدور بارز، في سبيل نهضة الجمعية، ودعم أركانها»[2].

ولا ننسى في الأخير الإشارة إلى الدور النهضوي الذي أدته كل من جريدتي المنتقد والشهاب؛ من حيث الإعلام، وإيصال أفكار حركة ابن باديس إلى عموم الشعب الجزائري، والاتصال به من خلالهما، وجمع ولَمّ شمل الغيورين على الدين ولغته والأمة من رجال الإصلاح والجهاد، وكذا في إحداث ثورة فكرية وحركة ثقافية وتحول معرفي، اعتبر الأول من نوعه في تاريخ الجزائر الحديث، من خلال طرحهما النوعي؛ المتميز بالشمولية والتجديدية.

وختاماً يمكن القول أن المرحلة الأولى هذه من حركة الإمام النهضوية الإصلاحية الجهادية كانت الخطوة الأولى الأساسية والضرورية؛ لانتقاله بعدها إلى العمل الجماعي الأكثر تنظيماً، والذي يستطيع تحمل أعباء الإصلاح والجهاد الجسيمة، وبالتالي تأتي المرحلة الثانية، والطور الثاني من حركته، مكملاً للمرحلة الأولى ونتائجها، ومتميزاً عنها في نوعية أهدافه، ووسائله وأساليبه التغييرية.

ويمكن تسمية هذه المرحلة بالمرحلة التمهيدية والإعدادية؛ نظراً لما حققته من قاعدة متينة؛ تمثلت في تخريج أعمدة الإصلاح، وأركان الجهاد، من العلماء العاملين. وإيجاد قاعدة شعبية مؤهلة لاحتضان حركته الجهادية، والالتفاف حوله فيما بعد، عند تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣٠م.

---

(١) سجل المؤتمر، ص: ٥٠.

(٢) محمّد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري، ص: ٣٧.

ثالثاً: مرحلة الجهاد الجماعي
(تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)

بعد ثمانية عشرة سنة من الجهاد الفردي لابن باديس، في ميدان التربية والتعليم؛ إعداداً وتكويناً للناشئة، وتخريجاً للطلبة والأساتذة، وإيجاداً للقاعدة الشعبية الناضجة المؤهلة، لتقبل ظهور حركة إصلاحية جهادية جمعوية واحتضانها، وإنجاحها واستفادة منه من تجربة عمله، وتجارب السابقين عليه من العلماء المجاهدين؛ من أمثال الإمام محمَّد بن عبد الوهاب، وجمال الدين الأفغاني، ومحمَّد عبده في الخارج. والشيخ عبد القادر المجاوي، والصالح بن مهنا وغيرهما في الداخل، ومن خلال نظره الفاحص الدارس في تاريخ الجهود الفردية، من رجال المقاومة والحركة الوطنية؛ سواء الثوريين منهم أو السياسيين، والتي آلت في نهاية مطافها إلى التوقف عن العمل إما كلياً، أو الانحصار والإنزواء ـ مكانياً وبشرياً ـ من غير أن تستطيع تحقيق التغيير الجذري، والأهداف الكبرى التي من أجلها قامت.

وتوظيفاً ـ منه ـ لما أعدّه وكوّنه وخرّجه من كتائب ودفعات الطلبة، الذين تخرجوا في الجامع الأخضر، أو في مدرسة التربية والتعليم، أو رجعوا من الزيتونة، بعد إكمال دراستهم العليا بجامعها الأعظم. ومحافظة ـ منه ـ على شمل العلماء والأساتذة ـ الذين لَمَّ شملهم ـ الغيورين على الدين والأمة، والعازمين كل العزم على إحداث حركة نهضوية إصلاحية جهادية تغييرية إسلامية في الجزائر، والذين جمعتهم مدرسة التربية والتعليم، ومن بعدها جريدتا المنتقد والشهاب. وتحقيقاً لأمنيات وآمال الرأي الخاص الذي درسه ابن باديس في مساجد قسنطينة، والعام الذي صنعه بجريدتيه ورحلاته وتنقلاته وأسفاره. وتنفيذاً لما اتفق عليه مع أخيه في الجهاد الشيخ محمَّد البشير الإبراهيمي في الحجاز أولاً، وبعد العودة إلى الجزائر ثانياً[1].

---

(١) انظر كيف تفرغ كل من الإمامين ابن باديس والإبراهيمي، كل في منطقته إلى العمل الإصلاحي الجهادي؛ تمهيداً لعمل جماعي منسق ومنظم. في مجلة الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ١٩ ـ ٢٠.

نظراً لكل هذه الاعتبارات والأسباب والمعطيات، ارتأى ابن باديس الانتقال إلى مرحلة ثانية في حركته الجهادية، تكون امتداد للأولى ومكملة لها، وفي الوقت نفسه سبباً قوياً وصحيحاً لتحقيق الأهداف الكبرى التي يتطلع إليها هو ومجموع العلماء، وعموم الأمة، ويفرضها الواقع بكل معطياته وظروفه وتحدياته العامة. فشرعوا جميعاً في التمهيد لتأسيس جمعية تحقق ذلك كله؛ فتجمع جهود العلماء والغيورين، من علماء وأبناء الأمة؛ لخدمتها، وخدمة دينها ولغتها، والمحافظة على ذاتيتها، وإنقاذها من آلامها ومآسيها التي صنعها الاستعمار والقابلية للاستعمار. وتحقيق آمالها ومطالبها، التي تتطلع إليها.

ولقد تضافرت، وتعددت أسباب كثيرة، مهدت لتأسيس جمعية تضم العلماء، وتجمع شملهم المتفرق، وتوحد منهج عملهم؛ منها على الخصوص:

أ ـ ما سبق الجمعية من جهود العلماء والمصلحين من قبل، والمتمثلة فيما قام به كل من حمدان لونيسي، وعبد القادر المجاوي، والصالح بن مهنا، وعبد الحليم بن سماية، والذين مهدوا جميعاً كل في حدوده وطاقته، الطريق لقيام الدعوة الإصلاحية الجهادية المؤسستية، المتمثلة في جمعية العلماء.

ب ـ الثورة الفكرية التي أحدثتها الصحف والمجلات في الأوساط المثقفة خاصة، وجمهور الشعب الجزائري عامة، والتي من بينها: الجزائر، الإسلام، ذو الفقار، المنار، الإقدام، المنتقد، الشهاب، صدى الصحراء، الإصلاح، وادي ميزاب، وغيرها كثير[1].

ج ـ الإطلاع المحدود لبعض الجزائريين، والمهتمين بالحركات الإصلاحية وجهودها في المشرق على مجلة المنار، التي كان يصدرها الشيخ محمَّد عبده، «واطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القيمة؛ ككتب ابن تيمية، وابن القيم، والشوكاني»[2].

---

(١) لمعرفة معلومات عن هذه الصحف والمجلات نظر د. محمَّد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧م إلى ١٩٣٩م. ففيه تفصيل واف.

(٢) سجل مؤتمر، ص: ٤٧.

د ـ يضاف إليها «الأحاديث المتناقلة في الأوساط العلمية عن الإمام عبده، ولو من خصومه الممعنين في التشنيع عليه، وسبه ولعنه»[1]. هذه الأحاديث التي فعلت «فعلها في النفوس المتبرمة من الحاضر، والمستشرفة إلى تبدله بما هو خير»[2].

هـ ـ ما حققه الإمام ابن باديس من نتائج عظيمة من جهده التعليمي والتربوي الفردي؛ للصغار والكبار معاً. وتأسيسه لمدرسة التربية والتعليم الإسلامية؛ التي خرجت أفواجاً كثيرة وكبيرة من الطلبة«كان من مجموعها، ومما تخرج بعدها من تلاميذ الأستاذ، ومن تلاميذ جامع الزيتونة، جنود الإصلاح اليوم وقادته وألويته المرفرفة، وأسلحته النافذة»[3].

و ـ ما حصل من وعي ونضج للشعب الجزائري، بعد الحرب العالمية الأولى، وما أفرزته من أفكار وطروحات سياسية، واجتماعية وثقافية مفاهيمية، والتي كان من آثارها «انحطاط قيمة المقدسات الوهمية في نظر كثير من الناس»[4]، من أصحاب الوظائف والمصالح الخاصة، وأصحاب التلبيس على العامة.

ز ـ رجوع كثير من الطلبة الجزائريين من الحجاز، ومن الزيتونة، بعد أن أنهوا دراستهم وتحصيلهم العلمي، «وبعد أن تلقوا العلم هناك بفكرة إصلاحية ناضجة متميزة»[5]. من هؤلاء الذين رجعوا البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، ومبارك الميلي، وغيرهم. والذين تفرغ كل واحد منهم للعمل الإصلاحي الجهادي في منطقته. «فلم يمض إلا قليل من الزمن، حتى غمر الأمة شعور عام بلزوم إصلاح عام، يشمل الدين والعلم والاجتماع»[6].

---

(١) سجل مؤتمر، ص: ٤٧.
(٢) سجل مؤتمر، ص: ٤٧.
(٣) سجل مؤتمر، ص: ٤٨.
(٤) سجل مؤتمر، ص: ٤٨.
(٥) سجل مؤتمر، ص: ٤٨.
(٦) سجل مؤتمر، ص: ٥٧.

وانتهج ابن باديس سبيل تحضير الشروط الميدانية الضرورية، قبل تأسيس جمعية العلماء؛ حتى يتفادى ـ مقدماً ـ ما حصل عند تأسيس جمعية الإخاء العلمي، ليأتي ظهورها كنتيجة لعمل الرواد، كل في منطقته يهيئ الأرضية، ويوفر شروط تأسيس مؤسسة جامعة لجهود شمل العلماء. فلم يشأ الرجلان ـ ابن باديس والإبراهيمي ـ أن يعلنا عن تأسيس الجمعية، قبل أن يجربا ما لهما من شعبية واستجابة لدى الجماهير، فانتهزا فرصة احتفال الاستعمار بمرور قرن كامل على استعماره الجزائر. ليكون بمثابة عامل مهم، وسبب مباشر، وظرف ملائم نفسياً واجتماعياً؛ بحكم أنه بمثابة تحد صارخ للشعب الجزائري، ونفسيته وآلامه، التي يثيرها الاحتفال، ويحييها ويذكرهم بها، وبالمآسي التي حصلت له منذ دخول الاحتلال. ليتطلع ـ نتيجة لهذا التحدي ـ الشعب الجزائري، إلى من يأخذ بيده؛ لرد هذا التحدي، ومواجهة العدوان.

١ ـ الاحتفال المئوي للاحتلال الفرنسي للجزائر:

بمرور مائة سنة كاملة على الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠م ـ ١٩٣٠م، أرادت إدارة الاحتلال، إقامة احتفالات ضخمة تخليداً لحدث الغزو، وتجديداً للجراح والمآسي والمظالم، والانتهاكات التي ارتكبوها ـ ظلماً وعدواناً ـ في حق الشعب الجزائري، ومؤسساته، وتحدياً لمشاعرها وجراحها وآلامها ومعاناتها، وتأكيداً لعزمهم على البقاء بقوة الحديد والنار ـ التي سيستعرضونها في احتفالهم ـ جاثمين على صدرها ـ .

وحسب الحقائق التاريخية، فإن الاستعدادات للاحتفال شُرِع فيها «مع بداية العشرينيات، وانطلقت منذ شهر كانون الثاني ١٩٣٠م. ودعت إليها فرنسا الدنيا كلها، حسب تعبير الشيخ البشير الإبراهيمي. وحضر رئيس الجمهورية الفرنسية نفسه؛ ليترأس هذه الاحتفالات الاستفزازية لمشاعر الجزائريين»[١]. وقُدِّر لها أن تستمر إلى غاية ٥ تموز ١٩٣٠م، تاريخ إمضاء الداي لمعاهدة الاستسلام والتسليم.

---

(١) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائري، ص: ٨٩ ـ ٩٠، والثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ٢٢.

كان برنامج احتفال الغزاة «يشتمل على معارض، واستعراضات ومحاضرات، وألعاب، وأفلام، ومطبوعات، وجولات سياحية، وافتتاح منشآت جديدة. . .»[1]، حتى أنهم قدموا «من بين الاستعراضات واحداً، يعيد كيفية دخول الجيش الفرنسي إلى العاصمة سنة ١٨٣٠م»[2]، بلباسه وأسلحته، ومعداته وموسيقاه.

وأنفق في هذه الاحتفالات «حوالي مائة وثلاثين مليون فرنك قديم، في مظاهر الأبهة والبذخ»[3]، في حين ـ وفي مقابل ذلك ـ يداس شعب بكامله تحت أرجلهم وتعسفهم واستكبارهم، ويرمى به إلى الفقر والمرض والجهل؛ لينخروا جسده، ويسلموه إلى حياة البؤس والذل والهوان والاستضعاف. وفي المناسبة هذه «فتح الفرنسيون جروحاً قديمة. ووجهوا ضربة مصدمة، إلى شهامة العنصر المقهور»[4].

ولكن ورغم هذا التحدي الحضاري بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ورغم هذا الاستكبار للاستعمار الفرنسي، الذي كان مأخوذاً ـ في هذه الاحتفالات ـ ومزهواً بنشوة الانتصار الموقوت، ومعجباً بخيله ورَجله وجنده ومعداته الحربية؛ التي أُريد بها تذكير الجزائريين، بالهزائم التي مُنُوا بها على يد هذا الجيش، في معارك الاحتلال خلال، القرن التاسع عشر، حتى لا يفكروا في الثورة على الاحتلال في يوم من الأيام»[5]. تذكيرهم بذلك بلسان حالهم واستعراضاتهم العسكرية، وبلسان مقالهم، من خلال التصريحات التي قيلت فيه. مثل قول أحد قادتهم «إن احتفالنا اليوم ليس احتفالاً بمرور مائة سنة على احتلالنا الجزائر، ولكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام. ويؤكد الكردينال لافيجري بقوله: إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ. وإنه يستمر إلى الأبد»[6].

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية ـ ج ٢، ص: ٣٢٤.
(٢) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه ـ ص: ٣٢٤.
(٣) عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص: ٩٠.
(٤) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص: ٣٢٨.
(٥) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ٩٠.
(٦) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ٢٢.

وبحضور «مئات المشاركين من رجال الدين والقساوسة المسيحيين، من شتى البلاد الأوربية»[١]، أعلنوا جميعاً فرحهم النهائي والكامل بالقضاء «على هذه الدولة الجزائرية، التي كان وجودها مصدر إحراج لأوربا، خلال ثلاثة قرون»[٢]. وبعودة دخول «المسيحية من جديد إلى افريقيا الشمالية»[٣].

ولكن ورغم هذا التحدي الحضاري الجارح، ورغم هذا الاستظهار للقوة. كان الجزائريون يهمسون «إنهم يحتفلون بالقرن الأول، ولكنهم لن يحتفلوا بالقرن الثاني. وقد كان هذا التنبؤ على كل شفة في البلاد»[٤].

ويقف العلماء وعلى رأسهم ابن باديس وأخوه الإبراهيمي؛ ليقطعوا بوقفتهم الرسالية، وموقفهم التاريخي سكون الوطن، وسكوت أهله، وليقطعوا على الاستعمار استكباره على المستضعفين في أرض الجزائر. فباجتهاد منهم ـ كما يقول الإبراهيمي: «استطعنا بدعايتنا السرية، أن نفسد عليها كثيراً من برامجها. فلم تدم الاحتفالات إلا شهرين. واستطعنا بدعايتنا العلنية، أن نجمع الشعب الجزائري حولنا، ونلفت أنظاره إلينا»[٥]؛ لينتظر منا الرد الحضاري العملي، على التحدي الحضاري الفرنسي السافر لنا. والذي جاء في وقته المطلوب، وموعده التاريخي الحاسم، الذي أراده الله، وحدده العلماء ـ تحضيراً وإعداداً وإحكاماً ـ في ٥ أيار ١٩٣١م.

٢ ـ تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

بعد محاولة تأسيس جمعية الإخاء العلمي سنة ١٩٢٤م، وبعد أن انطلق عمل الرواد في الميدان، وفي مناطق مختلفة من الوطن سنة ١٩٢٨م؛ يمهد الأرضية المناسبة والشروط الضرورية، لانطلاق تأسيس الجمعية. طلعت الشهاب

---

(١) محمّد خير الدين: مذكرات، ص: ١١٠.
(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٣٢٤.
(٣) محمّد خير الدين: المرجع السابق، ص: ١١١.
(٤) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص: ٣٢٥.
(٥) الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ٢٢.

في عدد شباط من سنة ١٩٣١م ببيان، تضمن دعوة عامة إلى تكوين جمعية العلماء، بعد أن رأى الإمامان خاصة ـ كما يقول الإبراهيمي ـ تكامل العدد:«الذي نستطيع أن نعلن به تأسيس الجمعية، والمدد من إخوان لنا كانوا بالشرق العربي، مهاجرين أو طلاب علم».

واقتضت الحكمة ومراعاة الحال والظرف، أن توجه الدعوة ـ كما يقول الإبراهيمي أيضاً ـ:«باسم الأمة كلها. ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس؛ لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا، لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم، ووصفنا إياهم بأنهم بلاء على الأمة وعلى الدين؛ لسكوتهم على المنكرات الدينية. وبأنهم مطايا الاستعمار، يذلل الأمة ويستعبدها باسمهم»[١].

ولم يكن من السهل بتاتاً ـ كما يظن الكثير ـ لَمُّ شمل العلماء والفقهاء، وجمعهم في إطار واحد ومؤسسة واحدة، تتحمل أعباء جسيمة؛ «ذلك أن علماء الجزائر كانوا مختلفين في أصل نشأتهم وتكوينهم، فاختلفت ـ لذلك ـ اتجاهاتهم في التفكير، ووسائلهم في العمل»[٢]؛ إذ كانوا منتسبين إلى ثلاث مدارس فكرية وهي:

أ ـ **المدرسة الرسمية الحكومية**: والتي تُكوِّن وتخرج الموظفين في القضاء، والإفتاء والإمامة.

ب ـ **مدرسة الزوايا**: وكانت تخرج شيوخاً يعلمون بالزوايا، ويتفرغون لخدمتها، مع تعصب لها، وجمود على طرائقها وحالتها، التي هي عليها منذ أمد.

ج ـ **مدرسة العلماء الأحرار**: الذين تخرجوا في المدارس والمعاهد الحرة، ومن الجامعات الإسلامية آنذاك، مثل: القرويين، أو الزيتونة، أو الأزهر، أو درسوا بالحجاز.

فهذا الجمع من العلماء وأهل العلم، كان متعدد المشارب والمنازع، وكان

---

(١) الثقافة: المرجع نفسه، ص: ٢٢.

(٢) د. أنيسة بركات درّار: أدب النضال في الجزائر، ص: ٢٢.

«على حالة أسيفة من افتراق الكلمة والتشاجر والعداوة، ولم تكن توجد قبل صحف الإصلاح صحيفة تجتمع فيها أقلامهم، وينشرون فيها أفكارهم»(١). ومن هنا «يصعب جمعهم للعمل في صعيد واحد، إذا لم تكن لهم وراءهم قوة تدفعهم إلى ذلك دفعاً، وتجبرهم جبراً، وهذه القوة هي الشعب، والرأي العام»(٢)، الذي كان يتطلع بشغف إلى مؤسسة تجمع علماءه، وتحقق آماله بانتشاله من آلامه.

ولقيت دعوة الشهاب استجابة واسعة في أوساط العلماء، وأوساط الأمة عامة، ولباها «إثنان وسبعون عالماً بالحضور، واعتذر بالكتابة والقبول نحو خمسين عالماً آخرين»(٣). وكان على رأس الملبين للدعوة والمسارعين في الاستجابة لها: الشيخ محمَّد البشير الإبراهيمي، الشيخ مبارك الميلي، الشيخ محمَّد الطيب العقبي، العربي التبسي، السعيد الزاهري، محمَّد خير الدين، وغيرهم من العلماء والمشايخ والأساتذة وطلبة العلم. حتى «إنك لتجد بينهم حملة الشهادتين الزيتونيتين، وحملة الشهادات الأزهرية، وكثيراً من المتخرجين على الأستاذ عبد الحميد بن باديس، وغيرهم من العصاميين في العلم»(٤). وحصل التقاء الجمع الملبي في ١٧ ذي الحجة ١٣٤٩هـ، الموافق لـ ٥ أيار ١٩٣١م، بنادي الترقي بالجزائر العاصمة. بعد أن ـ كما يقول البشير الإبراهيمي ـ: «حضَّرنا لها قانوناً أساسياً مختصراً من وضعي. أدرته على قواعد من العلم والدين. لا تثير شكاً، ولا تخيف»(٥).

واجتمع الجمع في جمعية عامة، غاب عن شهودها وحضورها الإمام عبد الحميد بن باديس، الذي يعلل الشيخ محمَّد خير الدين سبب غيابه عنها، في أن الإمام أسر إليه وإلى الشيخ مبارك الميلي بسر، وطلب منهما كتمانه؛ وهو «أنه

---

(١) د. أنيسة بركات درّار: أدب النضال في الجزائر، ص: ٢١.
(٢) د. أنيسة بركات، المرجع نفسه، ص: ٢٢.
(٣) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ٩٤.
(٤) محمَّد خير الدين، مذكرات، ص: ٨٣.
(٥) البصائر: س ١، ع ٣٨، ص: ٣.

سوف لا يلبي دعوة الاجتماع، ولن يحضر في يومه الأول، حتى يقرر المجتمعون استدعاءه بصفة رسمية؛ لحضور الاجتماع العام. فيكون بذلك مدعواً لا داعياً»[1].

وحكمة الإمام في هذا التصرف واتخاذ هذا الموقف هي «تجنب ما عسى أن يكون من ردود فعل، تقوم به السلطة الفرنسية في البلاد، وأصحاب الزوايا ومن سار في ركابها، الذين يتحرجون من كل عمل يقوم به ابن باديس، ويؤولونه كما يشاؤون»[2].

ونظراً لغيابه عُيِّن للرئاسة المؤقتة السيد أبو يعلى الزواوي، وتم انتخاب أعضاء المجلس الإداري، وفق شروط ومواصفات، اشترط توفرها في المترشحين لذلك. ولم يتبع في تكوينه «لا الانتخاب السري ولا العلني، بل لجأت إلى طريقة الاقتراح[3]». فعرضت «جماعة معينة، ووقع الإجماع على اختيارها»[4]، لتجتمع فيما بعد، في غياب الشيخ حسن الطرابلسي. وتم انتخاب عبد الحميد بن باديس - غيابياً - رئيساً، والإبراهيمي وكيلاً نائباً عنه، والأستاذ الأمين العمودي كاتباً عاماً بمساعدة الطيب العقبي، والأستاذ مبارك الميلي أميناً للمالية بمساعدة إبراهيم بيوض. ويبقى الأعضاء الباقون من المكتب الإداري هيئة شورية. وفي الحقيقة «لم يكتمل الجمع قوته الحقيقية، إلا عندما وجد رئيساً في شخص الشيخ ابن باديس»[5]. الذي كان بحق - يساوي الجمعية بكاملها، خلال عقد الثلاثينات كله إذ «لولا ابن باديس لما تأسست جمعية العلماء»[6].

وتمت صياغة القانون الأساسي للجمعية من طرف الإبراهيمي، بتكليف من

---

(١) الثقافة: مرجع سابق، ص: ٢٢.

(٢) محمَّد خير الدين: مذكرات، ص: ١٠٤.

(٣) محمَّد خير الدين: المرجع نفسه، ص: ١٠٥.

(٤) محمَّد خير الدين: المرجع نفسه، ص: ١٠٦. وعبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ٩٤.

(٥) وعددها ١٣ عضواً: انظر قائمتهم عند محمَّد خير الدين، مرجع سابق، ص: ١٠٦ - ١٠٨.

(٦) شار اندري جوليان: افريقيا الشمالية تسير، ص: ١٣٤.

المجلس الإداري. فصاغة في مائة وسبع وأربعين مادة «وحرص فيه أن يبعد مواده على أية شبهة سياسية»[1]. ثم تلاه على المجلس الذي أقره، بعد إجراء تعديلات بسيطة عليه. وعرض بعدها على الجمعية العامة، فصادقت عليه بالإجماع. وقررت ترجمته إلى اللغة الفرنسية؛ ليقدم للحكومة التي صادقت، ووافقت عليه من بعد.

وهكذا تأسست الجمعية، وخرجت إلى الوجود «وهي تشمل على المصلحين والطرقيين والمالكيين والإباضيين. لم ينظر فيها إلى مذهب دون آخر، ولا إلى طريقة دون غيرها. ولا غاية للمصلحين، ولا أمل لهم غير الاتفاق والاتحاد؛ نظراً لأن الجمعية جمعية علماء، وهي أقرب الناس إلى الحق، وأعرف الناس بطرق التفاهم»[2].

رابعاً: جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي بعد تأسيس جمعية العلماء

١ ـ تصور ابن باديس لمشكلات الجزائر وأسبابها:

إن أسمار الشيخين ابن باديس والإبراهيمي في المدينة المنورة، كانت بمثابة جلسات تأملية دراسية لأوضاع الجزائر ومشكلاتها، التي كانت تعيشها.

يقول الإبراهيمي عن تلك الجلسات، وما كان يدور فيها من حديث ونقاش: «كانت هذه الأسمار المتواصلة، كلها تدبير للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع للبرامج المعضلة لتلك النهضات الشاملة، التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى في مخيلتنا. وصحبها من حسن النية وتوفيق الله، ما حققها الخارج، بعد بضع عشرة سنة»[3]. وكان من بين ما اتفقا عليه، تأسيس مؤسسة، وتكوين هيئة تجمع جهود العلماء المخلصين من أبناء الجزائر، وتوجهها نحو

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية ، ج ٣، ص: ٨٣.

(٢) محمَّد الطاهر فضلاء، الإمام الرائد البشير الإبراهيمي، ص: ١٦٤.

(٣) البصائر، س ١، ع ٤٦، ص: ٢.

خدمتها، وخدمة دينها ولغتها، بعد تحقيق أسباب بعث هذه المؤسسة الضرورية. فيقول الإبراهيمي «وأشهد الله أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣ميلادية، هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلى في سنة ١٩٣١م»(١).

وكانت مدارسة ابن باديس مع الإبراهيمي لأوضاع الجزائر آنذاك، دراسة معمقة، دامت ثلاثة أشهر بكاملها؛ حيث كان يقضيان الليل كله من بعد صلاة العشاء إلى غاية آذان الفجر في الحوار والنقاش، وتبادل الآراء والأفكار، تمكنا فيها من تحديد تصورهما العام لأزمات الجزائر ومتطلباتها، ووسائل العمل وطرائقه؛ من أجل إصلاح أوضاعها، ومعالجة أمراضها، مع ضبط مراحل ذلك.

يقول الإبراهيمي مبيناً التصور العام الذي اتفقا عليه:«إن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين، آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين، يمتصان دمه ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه.

أ ـ **استعمار مادي**: وهو الاستعمار الفرنسي، الذي يعتمد على الحديد والنار.

ب ـ **استعمار روحاني**: يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه. المتجرون باسم الدين. المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية. وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير، وثقلت وطأته على الشعب، حتى أصبح يتألم، ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد، خوفاً من الله بزعمه. والاستعماران متعاضدان، يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته. ومظهرهما معاً تجهيل الأمة؛ لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات. وتفقيرها؛ لئلا تستعين بالمال على الثورة»(٢).

وبناء على هذا التحليل والتشخيص، كان من سداد تفكير الشيخين «أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثاني؛ لأنه أهون. وكذلك فعلنا»(٣).

---

(١) الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ١٩.
(٢) الثقافة: المرجع نفسه، ص: ١٩.
(٣) الثقافة: س ١٥، ص: ٢٣ ـ ٢٤.

كان هذا الفعل واقعاً تحديداً بعد سنة ١٩٢٢م، ووضوحاً بعد تأسيس الجمعية. عندما رجح وغلب رأي ابن باديس، في وجوب الحملة بقوة على أهل البدع والطرائق المبتدعة أولاً، وقبل المواجهة المكشوفة الشاملة للاستعمار الفرنسي؛ بحكم أن أصحاب الطرق هؤلاء استعمروا روح الأمة وأفكارها وعقولها، فخدّروها وشلوها. ولذلك نص الأصل السادس عشر، من الأصول العشرين لدعوة الجمعية على أن «الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف، ومبناها كلها على الغلو في الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ. إلى ما هناك من استغلال وإذلال، وإعانة لأهل الإذلال... والاستغلال... ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم، وقتل للشعور، وغير ذلك من الشرور»[1].

وعلى أساس هذه الرؤيا، وهذا التصور، توجه جهاد ابن باديس أولاً إلى محاربة الطرقية وتقويض نفوذها، ومحاصرة انتشارها، قبل أن ينتقل إلى مواجهة الاستعمار، الذي يرتكز أساساً في هيمنته واستعماره، على ما تحققه الطرقية من تخدير، وما تشيعه من أفكار مميتة، تعمق في الشعب الجزائري القابلية للاستعمار.

٢ ـ جهاد ابن باديس للطرقية:

يذكر الأمير شكيب أرسلان عن دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية «أن في بر الجزائر بحسب تحقيقات «دوبون» و«كوبلاني» ٢٣ طريقة صوفية، لها ٢٩٥١٨٩ مريداً. وعليها ٥٧ شيخاً و ٦٠٠٠ مقدماً. وعندها ٣٤٩ زاوية. وتجبي من الإخوان كل سنة ما يقدر بسبعة ملايين فرنك»[2]. ويذهب محمّد مبارك الميلي إلى «أن عددها يناهز الألف»[3].

---

(١) الثقافة: المرجع نفسه، ص: ٢٤.

(٢) القانون الأساس للجمعية وأصولها العشرون ملحق سجل المؤتمر، ص ١٦.

(٣) الشهاب: س ١، ع ١٣، ص: ٣. ولمعرفة أهم الطرق الصوفية التي كانت في الجزائر إلى غاية مطلع القرن العشرين، انظر تعليق شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامي للوثروب ستوداود، ج ٢، ص: ٣٩٥ ـ ٤٠٠، وعبد الرّحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج ٣، ص: ٢٤٩ ـ ٢٦١.

ولم يكن هذا فحسب، بل كان رجال الطرق ومشايخها يتمتعون بنفوذ ومكانة، لا يحظى بهما أحد أياً كان. «وأن العلماء والمدرسين والمفتين، والقضاة وأئمة المساجد، لا يكادون يكونون شيئاً بالقياس إلى المرابطين، ومشيخة الطرق»[1]، الذين كانوا يهيمنون هيمنة مطلقة على المجتمع الجزائري بكل فئاته، خصوصاً العامة منهم. حتى أنه لم يكن بوسع عالم سواء أكان مدرساً فقط، أو أراد ممارسة العمل الإصلاحي الجهادي «أداء مهمته من وعظ وإرشاد، والسعي في إصلاح العباد، إلا إذا كان ينتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية، المنتشرة في البلاد؛ لأن العقيدة الراسخة في النفوس، أنه من لا شيخ له، فالشيطان شيخه»[2].

وبالتالي كان من الصعب، وأحياناً من المستحيل التنكر لها، وعدم الاعتراف بها؛ لأن «نكرانها جميعاً وعدم الانتساب إلى واحدة منها، يؤدي إلى الرمي بالمروق من الدين، والإلحاد فيه»[3]. ويدفع بالعامة، إلى الانصراف عن ذلك العالم أو المصلح؛ لأنه «مهما بلغ من العلم والفهم لا يجد في مجتمعه أنصاراً، ولا من يسمع إليه ويقتدي به، إلا إذا انتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية»[4].

أمام هذا الوضع الذي آلت إليه الأمة، والذي أحكمت الطرقية فيه زمامها، حتى أن الاستعمار لما تفطن لقوة نفوذها، عمل على احتوائها واستيعابها؛ لاستخدامها وسيلة لبسط نفوذه وإحكام سيطرته[5]، ارتأى الإمام ابن باديس خاصة، ومن وافقه في الاتجاه، بداية العمل الإصلاحي الجهادي بمواجهتهم أولاً، قبل مواجهة الاستعمار.

فقد صرحوا من أول يوم، بأنهم سائرون بهذه الجمعية على المبدأ الذي

---

(١) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٣.
(٢) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٣.
(٣) جريدة الشعب: ع ٢٢٨٠، ص: ٧، ١٦ ـ ٤ ـ ١٩٧٠م.
(٤) جريدة الشعب: ع ٢٢٨٠، ص: ٧، ١٦ ـ ٤ ـ ١٩٧٠.
(٥) جريدة الشعب: المرجع نفسه، ص: ٧.

كانوا سائرين عليه من قبلها، ومنه محاربة البدع والخرافات والأباطيل والضلالات، ومقاومة الشر من أي ناحية جاء»[1]، والتي استحدثت في الأمة، وألحقت بالدين على أساس أنها منه؛ كبدع المساجد وبدع الجنائز والمقابر، وبدع الاستسقاء، وبدع النذور، وبدع الطرق وضلالتهم. فوقفت من كل ذلك الجمعية «وقفة المنكر المشتد، الذي لا يخشى في الحق لومة لائم . . .فغيرت بالقول وأنارت بالفعل، وبينت بالدليل، وقارعت بالحجة، وطبقت بالعمل. وكان في أعمال أعضائها أسوة حسنة للناس. وشعارها في هذا الباب، أن كل محدثة في الدين بدعة، وكل بدعة ضلالة»[2]، بحكم أن الناس يتخذونها عبادات وقربات بين يدي الله تعالى.

وتنص الجمعية في الأصول الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر، على أن كل ممارسات الطرقية باسم الإسلام، والتي هي محدثة مضافة إلى الدين، تنكرها الجمعية، وتعمل على محاربتها. يقول الأصل الرابع عشر:«اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله في شيء ما شرك وضلال؛ ومنه اعتقاد الغوث والديوان»[3].

ويشير الأصل الخامس عشر، إلى المحدثات التي أحدثت في المقابر عامة وعند قبور بعض العباد الصالحين فيقول: «بناء القباب على القبور، ووقد السرج عليها، والذبح عندها لأجلها، والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية، ومضاهاة لأعمال المشركين. فمن فعله جهلاً يُعلَّم، ومن أقره ممن ينتسب إلى العلم، فهو ضال مضل»[4].

ويبين الأصل السادس عشر موقف الجمعية من الطرق وأعمالها فيقول:

---

(١) انظر كيف عمل الاستعمار على تحقيق ذلك عند: أحمد حماني صراع بين السنة والبدعة، ص: ٦٤ ـ ٦٥، وعند ALI MERADE: le reformisme musulman en algerie, P: 56 - 57.
سجل المؤتمر، ص: ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) سجل المؤتمر، ص: ٦٠.

(٣) ملحق سجل المؤتمر ، ص: ١٥.

(٤) ملحق سجل المؤتمر، ص: ١٥.

«الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف. ومبناها كلها على الغلو في الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ، إلى ما هنالك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال. . .والاستغلال . . . ومن تجميد للعقول، وإماتة لهم، وقتل للشعور، وغير ذلك من الشرور»[١].

هكذا كانت الجمعية ترى الطرقية وأعمالها، على أنها «علة العلل في الإفساد، ومنبع الشرور. وأن كل ما هو متفش في الأمة من ابتداع في الدين، وضلال في العقيدة، وجهل لكل شيء، وغفلة عن الحياة، وإلحاد في الناشئة، فمنشؤه من الطرق، ومرجعه إليها»[٢]. كما كانت ترى أن أصل أدواء المجتمع الجزائري، ومكامنه هو هذه الأباطيل والخرافات، التي أماتته وخدرته وأسلمته إلى نوم عميق؛ أفقده الشعور والإحساس بآلام الأوجاع، والأمراض التي تفتك بكيانه. وفي هذا يقول الإبراهيمي: «ونعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شر، وأننا حين نقضي عليها ـ إن شاء الله ـ نقضي على كل باطل، ومنكر وضلال. ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة الجزائرية، إصلاح في أي فرع من فروع الحياة، مع وجود هذه الطريقة المشؤومة، ومع ما لها من سلطان على الأرواح والأبدان، ومع ما فيها من إفساد للعقول، وقتل للمواهب»[٣].

واتبع العلماء منهجاً حكيماً في محاربة الطرقية. فعند تأسيس الجمعية اتُّبع أسلوب المهادنة مع مشايخها؛ «خوفاً من بطشهم ونفوذهم حتى يشتد ساعد الحركة الإصلاحية»[٤] الجهادية. ولأن الإمام «كان لا يريد أن يترك فرصة للاستعمار؛ ليستغل الخلافات بين المصلحين والطرقيين»[٥]. فمد يده لهم للتعاون معهم «في ميادين الحياة على شريطة واحدة: وهي أن لا يكونوا آلة مسخرة، في يد نواح اعتادت تسخيرهم»[٦]. قائلاً لهم:«فكل طرقي مستقل في

---

(١) ملحق سجل المؤتمر، ص: ١٦.
(٢) ملحق سجل المؤتمر، ص: ٦١.
(٣) ملحق سجل المؤتمر، ص: ٦٢.
(٤) د. عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري، ص: ٥٨٧.
(٥) د. عبد الله الركيبي: المرجع نفسه، ص: ٥٨٧.
(٦) الشهاب: ج ٢، م ١٤، ص: ٧.

نفسه عن التسخير، فنحن نمد يدنا له؛ للعمل في الصالح العام، وله عقليته، لا يسمع منا فيها كلمة. وكل طرقي ـ أو غير طرقي ـ يكون أذناً سماعة، وآلة مسخَّرة، فلا هوادة بيننا وبينه، حتى يتوب إلى الله»[1].

وكل ذلك محاولة من ابن باديس للاستفادة من جهود المخلصين والصادقين منهم؛ ليشد بهم عضده في حركته الإصلاحية الجهادية، وحتى لا يبقوا آلة في يد الاستعمار يضربه بهم. «إلا أن كثيراً من الطرق وقع تحت تأثير الاستعمار، الذي درس ظروفها عن طريق جواسيسه وعلمائه المشتغلين بدراسة التصوف، واستطاع أن يدخلها في فلكه»[2]، ويوظفها في صالحه. فيقوموا بأول عمل مضاد لحركة الإمام ابن باديس في عامها الثاني، في محاولة منهم لتفجيرها داخلياً، واحتوائها وتحريفها عن مسارها وخطها الأصيل. ولكن محاولتهم المدعومة بتخطيط الإدارة الفرنسية باءت بالفشل، مما دفعهم إلى تأسيس جمعية خاصة بهم؛ لموازاة ومنافسة عمل العلماء، ولكن حتى هذه المحاولة الثانية منيت بالفشل الذريع.

وهكذا «لما لجأت إلى المستعمر أظهرها ـ العلماء ـ بمظهر الخيانة، ففقدت سلطانها على الشعب، ولم تعد ذات نفع للحكومة الفرنسية في الجزائر، بل غدت عبئاً عليها»[3]. ووقفوا لها بمرصاد العمل والتضحية في صمت، لعزلها عن الشعب والتأثير فيه «فبينما كان المرابطون يجمعون المال من الأوقاف والزيارات وغيرها، ويوزعون على أتباعهم أو يعيشون منه عيشة رغدة. كان العلماء يجمعون الأموال من الشعب ويبنون بها المساجد والمدارس، وينشرون بها الصحف والكتب، ويدفعون منها أجور المعلمين والوعاظ، ونحوهم»[4].

وبمرور الوقت وبجهاد واجتهاد العلماء المنظم المخطط، استطاعوا محاصرة الطرقية وأضاليلها «فخمدت نيران أهل الزردة، وزالت عن البلاد حمى

---

(١) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٧.
(٢) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ٤٨ ـ ٤٩.
(٣) محمود قاسم: المرجع نفسه، ص: ٦١.
(٤) د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٩٣.

الدراويش، وتخلصت منها الجماهير، بعد أن ظلت طوال خمسة قرون ترقص على دقات البنادير، وتبتلع العقارب والمسامير، مع الخرافات والأوهام»[1].

وتحرر عقل الأمة الجمعي من الأضاليل والأحلام الممتعة المسكرة، التي كان يشيعها شيوخ الطرق ومريدوهم، «وذهبت بذهابهم تلك الجنة التي وُعدَها المريدون، بلا كد ولا عمل، إلا ما يتلمسون من رضا الشيخ ودعواته. وحلت مكانها جنة الله، التي وَعدَها المتقين العاملين»[2].

وأسلمت الأمة زمام أمرها للعلماء الحريصين على إعادة الحياة لها، «وأتيح للإصلاح أن يمسك مقاليد النهضة الجزائرية، وأمكنه أن يبعثها خلقاً آخر بالروح الإسلامية، التي تخلصت من كابوس الأوثان»[3].

٣ ـ المحافظة على مقومات الشخصية الإسلامية الجزائرية، ومقاومة التجنس:

لقد عمل الاستعمار الفرنسي منذ استيطانه، بكل ما في وسعه لتغريب المجتمع الجزائري، وسلخه عن قيمه الذاتية الأصيلة، حتى يتمكن من محو مقاومات شخصيته التي تميزه عنه، أو تشويهها وإلحاق التخريب بعناصرها؛ لأنه كان يعلم جيداً، أنه ما دام هذا الشعب متمسكاً بإسلامه وعربيته وتاريخه وحضارته وقيمها، فإن الخطر يبقى دائماً يتهدد وجوده ومصالحه، وحاضره ومستقبله وإن طال الزمن.

فيحرم الشعب الجزائري حتى من أبسط حقوق الحياة، التي يحفظ بها وجوده البيولوجي ونوعه. ويشترط على من يريد أن يمن بها عليه، أو يفوز ببعض ما يتمتع به أبناء الاستعمار خاصة والأوربيين عامة من امتيازات، أن يترك جنسيته الدينية والوطنية والحضارية، ويلحق بجنسيته.

ولكن الدعوة إلى التجنس بالجنسية الفرنسية، لم تلق قبولاً واسعاً في أوساط المجتمع الجزائري المحافظ على إسلامه والمتعصب له ولو وراثياً، وعن

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٢٨.
(٢) مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص: ٢٩.
(٣) مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص: ٢٩.

جهل وتقليد. ولم يتجنس إلا أفراد قلائل أغراهم عطاء الاستعمار؛ حيث تشير الإحصائيات الرسمية إلى أنه «لم يتقدم لطلب التجنيس غير ١١٣١ شخصاً، في مدة تمتد من ١٨٦٥م حتى ١٨٩٩م، وحوالي ٣٦٠ شخصاً، ما بين سنة ١٩٢٠م و ١٩٣٠م »(١)؛ وذلك من أجل «قضاء حاجات مادية، والحصول على بعض الامتيازات السياسية؛ مثل بعض المعلمين في المدارس الرسمية، والعسكريين الذين يعملون في الجند الفرنسي»(٢)، والراغبين في الفوز بمقاعد انتخابية في المجالس المنتخبة.

وهذا العدد القليل جداً والذي لا يكاد يذكر، لم يرض بضآلة وقلة سواده نسبة إلى مجموع الشعب الجزائري، الذي عض بنواجذه على إسلامه، ولو قتله الفقر والجوع والمرض، وفتك به الجهل. فلجأ إلى عقد الاجتماعات بين الحين والآخر؛ يطالب فيها بتسهيل التجنيس، وتيسير شروطه على من يريده ويطلبه «ومعنى هذا يسعون لتكثير عددهم، بما يطلبون من الحكومة من وسائل الإغراء والترغيب في التجنس»(٣).

هذا السلوك المشين من الذين تجنسوا، دفع بالإمام ابن باديس إلى أن يصرح قائلاً لهم، ومخاطباً إياهم «إننا لا نستجيز السكوت عنهم، إذا رأينا منهم دعاية لتوسيع نطاق التجنس؛ إذ في ذلك محاولة إضعاف الإسلام، باختطاف الضعاف من بنيه، ومجاوزة لحدود النظر لأنفسهم، بالإغراء لغيرهم»(٤).

ويحتج عليهم بلسان الإسلام ناصحاً «لهم بالكف عن كل دعاية في هذا المعنى، والتفرغ لاستحصال جميع الحقوق الجنسية التي اعتنقوها، وارتكبوا ما ارتكبوا لأجل نيلها، والتي ينالها كلها أحط أوربي لمجرد التجنس، وهم ما يزالون يحاولون استكمالها»(٥).

---

(١) د. محمَّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٣٦٢.

(٢) د. محمَّد ناصر: المرجع نفسه، ص: ٣٦٢.

(٣) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٢٦٤.

(٤) د. عمار الطالبي: المرجع نفسه، ص: ٢٦٤.

(٥) د. عمار الطالبي: المرجع نفسه، ص: ٢٦٤.

ووصلت بهم الدعاية إلى التجنس بالجنسية الفرنسية إلى إصدار جريدة (الصوت الأهلي) سنة ١٩٢٩م بقسنطينة، والتي كان يشرف عليها زعيمهم الربيع زناتي. فكانت «المنبر الرسمي للمتجنسين، ينشرون فيها مقالاتهم، ويهاجمون منها الفكرة الإصلاحية، التي طالما وقفت في وجوههم»(١).

ولكن الإمام ابن باديس، ومن خلال الجمعية وقف بالمرصاد في وجه هذه الدعوة ودعاتها، يدعو إلى الاعتصام بالإسلام، والمحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية، ويبين للأمة كلها - في وقت عز وقل فيه من يتكلم باسم الوطن والوطنية والأمة - أن لها جنسية قومية تميزها عن غيرها من الشعوب والأمم. فيكتب مقالاً في شباط سنة ١٩٣٧م بعنوان (الجنسية القومية والجنسية السياسية) يقول فيه: «تختلف الشعوب بمقوماتها ومميزاتها، كما تختلف الأفراد. فالجنسية القومية هي مجموع تلك المقومات وتلك المميزات. وهذه المقومات والمميزات هي اللغة التي يعبر بها ويتأدب بآدابها. والعقيدة التي يبني حياته على أساسها. والذكريات التاريخية التي يعيش عليها، وينظر لمستقبله من خلالها. والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات(٢).

ويؤكد حقيقة وخاصية امتاز بها هذا الشعب الجزائري المسلم على مر التاريخ، وينص عليه بقوله: «وبعد فنحن الأمة الجزائرية، لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتها القومية. وقد دلت تجارب الزمان والأحوال، على أننا من أشد الناس محافظة على هذه الجنسية القومية، وأننا ما زدنا على الزمان إلا قوة فيها، وتشبثاً بأهدابها، وإنه من المستحيل إضعافنا فيها، فضلاً عن إدماجنا أو محونا»(٣).

وعلى هذا الأساس، وبهذا الاعتبار «ناهض الشهاب التجنس والاندماج، وناضل عن الشخصية الإسلامية، غير مبال بما يعترضه من غلاة الاستعمار أكلة

(١) د. محمّد ناصر: المرجع السابق، ص: ٣٦٥.
(٢) الشهاب: ج ١٢، م ١٢، ص: ١.
(٣) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ١.

الأمم، ولا من صرعاهم من ضعاف النفوس، ولا من صنائفهم خربي الذمم، حتى أصبحت الأمة اليوم، وهي مجمعة بجميع طبقاتها، على لزوم المحافظة على شخصيتها، وعدم التنازل عن شيء منها، ولو حرمت كل حق، بيد الظلم والعدوان»[1].

وكحل نهائي من الإمام؛ لإيقاف دعوة التجنيس ودعاتها عند حدودهما، فلا يتجاوزانها. طلبت لجنة الفتوى في الجمعية، والتي يرأسها الشيخ العربي التبسي، من الإمام ابن باديس، إصدار فتوى في حق التجنس والمتجنسين. فبحث الإمام الموضوع، ودرسه دراسة واقعية وأصولية شرعية، ولم يُلقِ اعتباراً لما سينجم عن إصدارها. وأصدر فتواه الشهيرة فيه، في جريدة البصائر؛ السنة الثالثة العدد ٩٥ في ١٤ كانون الثاني ١٩٣٨م، والتي نصها كما يلي: «بسم الله الرَّحمن الرحيم: التجنس والتوبة منه.

التجنس بجنسية غير إسلامية، يقتضي رفض أحكام الشريعة، ومن رفض حكماً واحداً من أحكام الإسلام، عد مرتداً عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع.

والمتجنس ـ بحكم القانون الفرنسي ـ يجري تجنسه على نسله، فيكون قد جنى عليهم، بإخراجهم من حظيرة الإسلام. وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه، وإثمها متجدد ما بقي له نسل في الدنيا، خارجاً عن شريعة الإسلام بسبب جنايته.

فإذا أراد المتجنس أن يتوب، فلا بد لتوبته من إقلاع، كما هو الشرط اللازم بالإجماع في كل توبة. وإقلاعه لا يكون إلا برجوعه للشريعة الإسلامية، ورفضه لغيرها.

ولما كان القانون الفرنسي يبقى جارياً عليه، رغم ما يقول هو في رجوعه. فإقلاعه لا يتحقق عندنا في ظاهر حاله، وهو الذي تجري عليه الأحكام بحسبه، إلا إذا فارق البلاد، التي يأخذه فيها ذلك القانون، إلى بلاد أخرى، تجري عليه فيها الشريعة الإسلامية.

---

(١) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٣ ـ٤.

قد يكون صادقاً في ندمه فيما بينه وبين الله، ولكننا نحن في الظاهر، والذي أمرنا باعتباره في إجراء الأحكام، لا يمكننا أن نصدقه، وهو ما يزال ملابساً لما ارتد من أجله من أحكام تلك الجنسية، ولهذا لا تقبل توبته، ولا تجري عليه أحكام المسلمين.

والذي يقع عليه القضاء بحكم يتحقق، أنه هو حكم الشريعة الإسلامية، فيسعى في نقضه بحكم من غيرها، هو برفضه لذلك الحكم، وطلبه لغيره، مرتد عن الإسلام.

وتوبة هذا بإقلاعه عن طلب الحكم الآخر، أو بتنفيذه لحكم الإسلام إن كان غيره قد وقع ومن جعل (التيسطاما)[١] وهي قسمة ماله بين من يشاء بعد موته، على غير القسم الإسلامي، رافضاً للحكم الإسلامي، فهو مرتد عن الإسلام، وتوبته بإبطال تلك (التيسطاما) ، ورجوعه إلى الحكم الإسلامي.

ومن يتزوج بامرأة من جنسية غير إسلامية، فقد ورَّط نفسه في الخروج من حظيرة الشريعة الإسلامية. فإن كان راضياً لهم ذلك، ومختاراً له على بقائهم في حظيرة الشريعة الإسلامية. فهو مرتد عن الإسلام، جان عليهم، ظالماً لهم. وإن كان غير راض لهم بذلك، ولا مختاراً لهم ذلك على شريعة الإسلام، وإنما غلبته شهوته على ذلك الزواج، فهو آثم بجنايته عليهم وظالم لهم. لا يُخلِّصه من إثمه العظيم، إلا إنقاذهم مما أوقعهم فيه، بهجرته بهم...»[٢].

كما نجد الإمام يلخص في كلمة موجزة قيْمة الأساس المنطقي، الذي ينبغي أن تقوم عليه العلاقات بين الأمم المتباينة، في جنسيتها القومية فيقول: «لا تتطور العلاقات وينمو الود، إلا إذا تعاملنا بصفاء على قاعدة: أنت أنت، وأنا أنا، أما أن تصبح أنت أنا، وأنا أنت، فذلك عين المستحيل»[٣].

وبهذا الإجراء الأخير من ابن باديس بإصداره لهذه الفتوى، فشلت سياسة

---

(١) التيسطاما (Le testamant) : كلمة فرنسية ومعناها بالعربية: وصية الميت قبل موته.

(٢) البصائر: س ٣، ع ٩٥، ص: ٢.

(٣) د. محمَّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٢٦٣ ـ٢٦٤.

التجنس، التي دعمتها الإدارة الاستعمارية بكل الوسائل والتسهيلات، والإغراءات المادية والمعنوية.

٤ ـ مراحل جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي:

إن جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي يتطلب دراسة متأنية، وتتبعاً دقيقاً، وتحليلاً عميقاً؛ وذلك نظراً للاعتبارات والملاحظات الآتية:

أولاً: الامتداد الزمني الكبير، الذي استغرقته حركة ابن باديس الجهادية؛ والذي استغرق سبعاً وعشرين سنة؛ من سنة ١٩١٣م إلى ١٩٤٠م. والذي يتطلب متابعة جهاد ابن باديس على مداره كله.

ثانيـاً: انتظام جهاد ابن باديس على مدى هذه الفترة الكبيرة، في عمل مرحلي منظم مخطط مدروس، لم تكن الطفرة أو الارتجال أو الاستعجال من خصائصها. وهذا يتطلب منا استقراء لخطة ابن باديس في جهاده ضد الاستعمار الفرنسي؛ سواء في منطلقاتها وأهدافها، أو في وسائلها وأساليبها ومراحلها، وطبيعة متطلبات وتحديات وظروف كل مرحلة. وكذا طبيعة مواقف إدارة الاستعمار وتغيرها، والتي كان يأخذها ـ بشكل جيد محسوب ـ ابن باديس في الحسبان.

ثالثـاً: استحالة فصل مواقف وتصريحات ابن باديس، في خطبه ومقالاته وكتاباته السياسية منها على الخصوص، عن الظروف الزمانية، والملابسات والمعطيات الظرفية التي صدرت فيها، والتي تعطيها القراءة السليمة، والتفسير الصحيح؛ بحكم أن هذه المواقف والتصريحات، لم تكن مطلقة صالحة لكل زمان ومكان ومناسبة، بل كانت مقيدة ومحكومة بظروفها التي صدرت عنها، وقيلت فيها، وهذا ما يتطلب منا الرجوع إليها؛ لفهم ما صدر فيها عن ابن باديس، وتعليله.

رابعـاً: خصوصية ابن باديس الفكرية والعلمية؛ فبحكم تكوينه العلمي والشرعي ـ خصوصاً ـ كانت رؤيته للتغير الاجتماعي، والإصلاحي الفكري، ولمقاومة الاحتلال تنطلق من هذه الخصوصية، ومن التكوين الفكري والنفسي

الذي صاغ فكره، وكون شخصيته، وميزه ـ عن غيره تميزاً واضحاً ـ بمنهج خاص به في ذلك كله.

خامساً: خصوصية ابن باديس السياسية، والتي قامت في ـ بعض مراحلها خصوصاً ـ على أساس السياسة الشرعية، أخذاً بمبدأ شرعي قرره فقهاء الشريعة المتقدمون؛ وهو (المداراة السياسية). والذي مكن ابن باديس من التحرك المرن، وهو يجاهد ضد الاحتلال الفرنسي. هذا المبدأ إذا جهلناه في دراسة مواقف وتصريحات ومقالات ابن باديس السياسية، سنقع في سوء قراءة وفهم، وتفسير لها.

وبناء على هذه الاعتبارات والملاحظات، وبحسب ما توفر لدينا من مادة علمية، ومراعاة لسياقها الزماني وتطورها المرحلي. فإنا سنقسم مواقف ابن باديس من الاستعمار الفرنسي وجهاده له، إلى ثلاث مراحل؛ متباينة في مراحلها الزمانية وخصائصها، ومختلفة في طبيعة لغة خطابها، وأساليب مواقفها، تبعاً لطبيعة كل مرحلة وتحدياتها، وظروفها ومعطياتها.

أ ـ مرحلة إظهار الأمل في فرنسا، ومداراتها سياسياً:

وتمتد هذه الفترة من جهاد ابن باديس من بداية نشاطه وحركته الفردية سنة ١٩١٣من إلى غاية انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري، في حزيران ١٩٣٦م.

في هذه المرحلة الأولى من جهاده، حرص ابن باديس على تنفيذ ما تم الاتفاق عليه بينه وبين أخيه الإبراهيمي، خطوة خطوة من غير لفت أنظار وآذان الاستعمار إلى نشاطهما وحركتهما؛ لأن إدارة الاحتلال كانت تراقب وتتبع حركتهما عن كثب، وسعت بمحاولات متكررة، وبأساليب تنوعت بين الترغيب والترهيب لمنعهما من مواصلة عملهما. لكن الإمام ابن باديس تحصن من بطش الاستعمار به بأسرته عامة، وبوالده خاصة؛ الذي كان يتمتع بمنزلة محترمة لدى الإدارة الاستعمارية. ولكن «جهاد الشيخ كان يقلق الاستعمار الفرنسي كثيراً، وقد حاولت إغراءه ببعض المناصب، كما حاولت تسميته شيخ الإسلام، ولكنه رفض هذا وذلك. وقد اضطُرَ ـ كما يقول شاهداً بذلك أخوه عبد الحق ـ والدي الذي كان يشتغل في الزراعة وبيع المواشي إلى فرنسا، إلى بيع مزرعة هامة في وادي

زناتي؛ حتى يستطيع تسديد الديون؛ لأن الحكومة الفرنسية ضغطت على البنوك؛ لكي لا تتعامل مع والدي، بسبب جهاد الشيخ عبد الحميد»[١].

أما الشيخ الإبراهيمي فيقول عن مضايقات الاستعمار وكيف واجهها: «فكنت أتغطى لها بألوان من المخادعة؛ حتى أني تظاهرت لها عدة سنين بتعاطي التجارة، وغشيان الأسواق، لإطعام من أعولهم من أفراد أسرتي. ولكنها لم تنخدع ولم تطمئن إلى حركتي، فكان بوليسها يلاحقني بالتقارير، ويُضيِّق الخناق على كل من يزورني، من تونس أو الحجاز. كل هذا، وأنا لم أنقطع عن الدروس لطلاب العلم بالليل»[٢].

فلم يكن من السهل بتاتاً ممارسة عمل إصلاحي جهادي بشكل علني، وفي إطار مكشوف، والإدارة لا تفعل شيئاً، وتبقى تتفرج.

ولذلك تظاهر ابن باديس للاستعمار بالاحترام والعلاقة الطيبة، من غير مهاجمته، لكن من غير تخل عن المواقف المبدئية، ومبادئ حركته الإصلاحية الجهادية، ومقومات الأمة التي لا مساومة فيها، ولا تخل عنها، مهما كلف الأمر من ثمن باهظ. فنجده مثلاً سنة ١٩٢٥م، وفي العدد الأول من المنتقد[٣]، وفي الصفحة الأولى منه، يتكلم لفرنسا بلغة المداراة المحنكة فيقول: «إن الأمة الجزائرية أمة ضعيفة ومتأخرة، فترى من ضرورتها الحيوية أن تكون في كنف أمة قوية عادلة متمدنة؛ لترقيها في سلم المدنية والعمران، وترى هذا في فرنسا التي ربطتها روابط المصلحة والوداد. فنحن نخدم للتفاهم بين الأمتين، ونشرح للحكومة رغائب الشعب الجزائري، ونطالبها بصدق وصراحة بحقوقه لديها، ولا نرفع مطالبنا أبداً إلا إليها. ولا نستعين عليها، إلا بالمنصفين من أبنائها»[٤].

---

(١) جريدة الشعب: ع ٧٩٣٠، ص: ٩، ٣٠ ـ ٤ ـ ٨٩ من شهادة أخيه عبد الحق.

(٢) مجلة الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ٢١.

(٣) والتي كان شعارها يدل على حرص ابن باديس على مداراة الاستعمار (جريدة حرة وطنية تعمل لسعادة الأمة بمساعدة فرنسا الديمقراطية. وأنها جريدة سياسية تهذيبية انتقادية. شعارها الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء).

(٤) المنتقد: س ١، ع ١، ص: ١.

فابن باديس يحدد العلاقة في أنها قائمة بين أمتين، بكل ما تحمل كلمة أمة من معاني التميز والتمايز والانفصال، والحضور أيضاً. ولا علاقة تربطهما، إلا علاقة المصلحة، والمطالبة بالحقوق المسلوبة عنوة بالقوة.

ويبقى الإمام يعتمد نفس الخطاب مع فرنسا. فنجده عند تأسيس الجمعية يحرص على أن لا يُضمِّن قانونها الأساسي ما يثير شكوكها، وبالتالي يدفعها حقدها إلى البطش والفتك بها، وهي في المهد. فينص على أن هدفها تهذيبي تربوي لا غير، وأنها تتقيد به، ولا تتدخل في السياسة مهما كان الأمر. خصوصاً وأن رجال الاستعمار ـ وفي أوج انتفاشهم بقوتهم، وبما حققوه في الجزائر ـ كانوا قد صرحوا في الاحتفالات المئوية، بأن هدف الاحتفال هو الفرح بالاحتلال الذي «قضى على هذه الدولة الجزائرية، التي كان وجودها مصدر إحراج لأوربا خلال ثلاثة قرون»[1]. فيقول ابن باديس مبيناً نظر حركته لطبيعة العلاقة التي تربط الجزائر بفرنسا: «إن ارتباط الجزائر بفرنسا اليوم، صار من الأمور الضرورية عند جميع الطبقات، فلا يفكر الناس اليوم إلا في الدائرة الفرنسية، ولا يعلقون آمالهم إلا على فرنسا، مثل سائر أبنائها. ورغبتهم الوحيدة كلهم، هي أن يكونوا مثل جميع أبناء الراية المثلثة في الحقوق، كما هم مثلهم في الواجبات»[2].

ويؤكد هذا المنحى في معاملة فرنسا والتظاهر لها بالأمل فيها، فيقول في تموز سنة ١٩٣٣م: «أفظننتم أن الأمة الجزائرية ذات التاريخ العظيم، تقضي قرناً كاملاً في حجر فرنسا المتمدنة، ثم لا تنهض بجنب فرنسا تحت كنفها، يدها في يدها . . . أخطأتم يا هؤلاء التقدير، وأسأتم الظن بالمُربِّي والمُربَّى، وبعدتم عن العلم بسنن الكون في نهضات الأمم بعضها ببعض، عند الاختلاط، أو التجاور، أو الترابط بشيء من روابط الاجتماع»[3].

ولكن وفي الوقت نفسه ـ وكما نلاحظ هذا أيضاً في النص السابق ـ يؤكد

(١) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٣٢٤.
(٢) الشهاب: ج ٨، م ٨، ص: ٤٠٥.
(٣) الشريعة المطهرة: س ١، ع ١، ص: ١.

ابن باديس على أن الجزائر أمة، ولها وطن، ولها تاريخ، ولها قيم ودين، يستحيل عليها التخلي عنها، أو سلخها منها، فيقول مؤكداً ذلك: «إن الأمة التي صبغها الإسلام وهو صبغة الله، وأنجبتها العرب وهي أمة التاريخ، وأنبتتها الجزائر وهي العاتية على الرومان والفاندال، لا تستطيع ولن تستطيع أن تمسحها الأيام، ونوائب الأيام»[1].

وهكذا يتظاهر الإمام في حركته بالحرص على بقاء العلاقة الظاهرية مع الاستعمار طيبة حسنة؛ ليطالبه بحق الشعب الجزائري في تعلم دينه ولغته، والسماح لعلمائه بتربيته وتهذيبه، مع تذكيره بأن الأمة متميزة عنه حضارياً، وستبقى كذلك.

خصوصاً وأن ساعد الحركة الجماعية ما زال في مهده لم يقم، ولم يقو بعد ويشتد. ولذلك يقرر باسم الجمعية «على إبقاء باب المفاهمة مع الحكومة بالتي هي أحسن، مفتوحاً على مصراعيه؛ حتى يتهيأ لها الظفر بنيل كل مطالبها الحقة، والوصول إلى ما تتمناه الأمة الجزائرية، وترغب الحصول عليه؛ كأمة مسلمة لها دينها ولسانها الخاص، وحقها العام في الحياة. مع مراعاة ما لحكومة فرنسا من سلطتها العليا في الوطن، ونفوذها العام»[2].

وينبه العلماء إلى وجوب الاهتمام بالعمل في صمت، من غير انتباه ولا اشتغال بباطل الاستعمار وأعوانه؛ حفاظاً على خطة العمل، وتحقيق أهدافها القريبة والبعيدة، وحتى لا يضيع الوقت والجهود في الرد عليهم. فيقول لهم منبهاً إياهم ومحذراً: «ولكننا نعجب لأنفسنا ولكم؛ إذا أقمنا لتلك المعارضات والمكائد وزناً، أو شغلنا بها حيزاً من نفوسنا، أو أضعنا فيها حصة من أوقاتنا. وإن أدنى ما يغنمه المبطل، أن يضيع الوقت على المحق. وإني أوصيكم ونفسي في هذا المقام، بأن يكون في حقكم، شاغل عن باطل المبطلين. فإذا قام حقكم واستوى، قضيتم على المبطلين وباطلهم»[3].

---

(١) الشهاب: ج ٤، م ١٠، ص: ١٤٢.

(٢) البصائر: س ١، ع ١، ص: ٨.

(٣) الشهاب: ج ١٠، م ٩، ض: ٣٩٢.

ويُذكِّر إخوانه العلماء والأساتذة، وأبناءه الطلبة، بأن يكونوا مثله «يضرب الضحية في مقاتلها، من غير أن يسيل لها دماً، أو يترك أثراً يلفت الأنظار، ويدل عليه»[١].

ب ـ مرحلة التاكيد على المقومات الذاتية للأمة، وتميزها الحضاري:

والتي امتدت على طول سنة ١٩٣٦م، بعد أن اشتد ساعد الحركة الإصلاحية الجهادية وقوي، واكتسح ربوع الوطن، وتغلغل في أوساط الأمة كلها. فنجد الإمام في مطلع هذه السنة، وفي شهاب شهر كانون الثاني، وبمناسبة شهر رمضان، يكتب مقالاً تحت عنوان (عيد الحرية) يفتتحه بقوله: «حق كل إنسان كحقه في الحياة، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية، المُتَعدَّى عليه في شيء من حريته، كالمُتَعدَّى عليه في شيء من حياته. وكما جعل الله للحياة أسبابها وآفاتها، جعل للحرية أسبابها وآفاتها. ومن سنة الله الماضية أنه لا ينعم بواحدة منهما، إلا من تمسك بما لها من أسباب، وتجنب وقاوم ما لها من آفات»[٢].

بهذا الأسلوب، وبهذه اللغة، يخاطب الأمة الجزائرية؛ ليوقظها وينبهها إلى قيمة حريتها، وأسباب وشروط الحصول عليها. ويوجه في الوقت نفسه خطاباً صريحاً جريئاً إلى الاستعمار، يختلف في مضمونه ولغة خطابه، عما كان يخاطبه به من قبل هذه المرحلة. هذا الاستعمار الذي يستعمل أساليب ماكرة لاستفزاز الأمة، فيقول له: «اسمعوا: إننا لن نرضيكم أبداً، وإننا لن نعمل على إرضائكم، إننا لن نخشاكم، ولن نعمل عملاً يوقعنا تحت طائلة أيديكم. نحن سائرون على منهاجنا وفي طريقنا، لا يضرنا صراخكم، ولا ينفعنا سكوتكم. فقولوا ما شئتم، فلن تنالوا منالاً، ولن نتزعزع عن عقيدتنا. إنما ننصحكم نصيحة خالصة؛ أن لا تعودوا لمثل هذا العمل الممقوت. فسياسة وخز الدبابيس تنتهي غالباً بفقد الشعب لصبره، وإخراج الحليم عن حلمه. وإننا لنَسُدُّ في أوجهكم هذا الباب، إلا إن كسرتموه، والأمر بعدئذ لله»[٣].

---

(١) من شهادة الشيخ محمَّد العربي بوزيد، محادثة شخصية بتاريخ: ١٢ ـ١ ـ٨٩ بقسنطينة.
(٢) الشهاب: ج ١٠، م ١١، ص: ٥٤٦.
(٣) الشهاب: ج ١٢، م ١١، ص: ٦٨٥.

ويُذكِّره بتميز المجتمع الجزائري أفراداً وأمة عنه، تميزاً في مقوماته الذاتية، ونموذجه التاريخي والحضاري، وأنه من عين المستحيل تحويل أو سلخ هذا الشعب عن شخصيته؛ لأن الانفصال بين الأمتين انفصال كلي وتام فيقول: «إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد؛ في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها. لا تريد أن تندمج. ولها وطن محدود معين، هو الوطن الجزائري، بحدوده الحالية المعروفة»[1].

وهذا التأكيد على التميز والانفصال، لا ينفي معه الإمام بقاء العلاقات طيبة بين الأمتين، مع التعاون المحترم في السراء والضراء، وتقديم يد المساعدة للجزائر؛ لأن تنهض من تخلفها، وتتقدم حضارياً كما تقدمت فرنسا، لكن في إطار من التفاهم والتقدير المتبادل «نحترم حكومتهم وقوانينهم، ونطيع أوامرهم ونواهيهم، ونريد منهم أن يحترموا ديننا ولغتنا، ويحفظوا كرامتنا، ويأخذوا بأيدينا في طريق النهضة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهكذا نعيش وإياهم أصدقاء مخلصين. إذا جاءت ساعة الموت، في سبيل الدفاع عن الوطن الفرنسي، وعن الوطن الجزائري وجدونا في صفوفهم الأولى؛ لنموت إلى جانبهم موت الأصدقاء المخلصين. وعلى هذا الأساس توضع الأمور في مواضعها، ويحصل التفاهم، ويزول كل التباس»[2]. وتتحقق العلاقة الواضحة الصحيحة في «أن الوطن الجزائري الإسلامي، صديق لفرنسا مخلص. وإخلاصه إخلاص قلبي، لا إخلاص ظاهري؛ مخلص لها إخلاص الصديق لصديقه، لا إخلاص التابع لمتبوعه»[3].

ويعاتب الإمام عتاباً شديداً دعاة الإدماج؛ الذين يريدون سلخ الشعب الجزائري من مقوماته الذاتية، وإذابته في الذاتية الفرنسية الغربية، عن طريق

---

(١) الشهاب: ج ١، م ١٢، ص: ٤٦.
(٢) الشهاب: ج ١، م ١٢، ص: ٤٧.
(٣) الشهاب: ج ١، م ١٢ان ص: ٤٧.

الإدماج، والتخلي عن الجنسية القومية. فيقول للأستاذ فرحات عبّاس ومن معه: «وقلنا له ولمن معه: إنكم عندما تسمعون لسياسة الاندماج ، وتحبذون التجنس، وترضون ضياع حقوقنا الإسلامية، مقابل حق الانتخاب، وتريدون ـ خلافاً للطبيعة ـ بأن يصير جمهور المسلمين بهذه البلاد جمهوراً فرنسياً بحتاً، لا يختلف عن الجماهير الفرنسية في شيء. إنكم عندما تسمعون وتحبذون هذا، لا تمثلونا، ولا تتكلمون باسمنا. وإنكم في واد، والأمة في واد آخر»[1].

وتلقت الأمة موقف الجمعية من الاندماج ودعاته، وفتوى ابن باديس في التجنس بالقبول الحسن. وعن هذا يقول الإمام دائماً:«فقد حبذوا خطتنا، وشكروا لنا صراحتنا، وحمدوا لنا هذا الموقف، الذي وقفناه ضد محاولات التجنس الخائبة، ومحاولات هدم القومية واللغة والدين المُجرِّمة»[2]؛ لأننا مجتمع قائم بذاته، ومتميز بذاتيته «نريد ونستطيع أن نحافظ على ذاتيتنا الخاصة، وما فيها من مميزات اللغة والدين والإخلاص والثقافة، ولا نريد بأي حال من الأحوال، ولا نستطيع أن ننسلخ طوعاً واختياراً، أو كرها وجبراً، عن تلك الذاتية وما فيها من مميزات، وما لها من حقوق»[3].

وفي المؤتمر الإسلامي في حزيران ١٩٣٦م تشارك الجمعية بعلمائها، ويشارك ابن باديس فيه باسمه الخاص، وينخدع معظم السياسيين الجزائريين بمشروع بلوم فيوليت؛ الذي أغراهم بإعطائهم بعض الحقوق. ولكن الإمام كان على يقين تام من أن الحقوق لا تعطى، وإنما تنتزع. وتفطن إلى أن المشروع في حقيقته ما هو إلا وسيلة؛ لامتصاص واستيعاب النهضة الإسلامية، الآخذة في النمو والانتشار. فيذكر الشيخ أحمد حماني كاشفاً ومؤكداً هذه الحقيقة: «وأذكر ـ والشهادة لله ـ أننا كنا ذات ليلة في مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، وكان ذلك أيام اغترار بعض الزعماء السياسيين ببرنامج بلوم فيوليت، وترويجهم له في الشعب، والشعب وراءهم. فأخذا الشيخ يحدثنا عن هذا (البروجي)، ويكشف

(١) الشهاب: ج ٣، م ١٢، ص: ١٤٢.

(٢) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ١٤١.

(٣) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ١٤١.

من مساويه ما كان خافياً عنا، وكان الشهاب ساكتاً عن بعضه. فقلت: يا أستاذ لماذا لا تكشف للشعب هذه المساوئ؟: !

فأجاب رحمه الله: الشعب اليوم مغتر بما يعرض عليه، وهو سراب. فدعه حتى يضربه الحائط، وتصيبه الخيبة، فيستيقظ، ويكون رد فعله أعنف»[1].

ومدَّ ابن باديس ومعه الشعب أيديهم إلى فرنسا، كآخر أمل ظاهري فيها قائلاً: «إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا، وفتحنا قلوبنا، فإن مدت إلينا يدها، وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد. وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه، فإننا نقبض أيدينا، ونغلق قلوبنا، فلا نفتحها إلى الأبد»[2].

ويُذكِّر الشعب الجزائري، بأن هذا الموقف من الجمعية في المؤتمر هو خطوة في طريق طويل، تتبعه فيه خطوات أخرى. فيقول له: «أيها الشعب! لقد عملت، وأنت في أول عملك. فاعمل ودم على العمل، وحافظ على النظام. واعلم أن عملك هذا على جلالته، ما هو إلا خطوة ووثبة، ووراءه خطوات ووثبات، وبعدها إما الحياة وإما الممات»[3] ، من أجل نيل الحرية المنتزعة منه ظلماً وقهراً؛ بقوة الحديد والنار. والتي يُذكِّر الشعب بها، وبطرق الحصول عليها قائلاً له: «أيها الشعب! إنك بعملك العظيم الشريف، برهنت على أنك شعب متعشق للحرية، وهائم بها. تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا، منذ رَكَنَّا نحن الحاملين للوائها. وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها، وكيف نحيا ونموت من أجلها»[4].

ج ـ مرحلة الياس من فرنسا:

بعد انعقاد المؤتمر الإسلامي في حزيران ١٩٣٦م، وبعد أن ماطلت الإدارة الاستعمارية في تحقيق مطالب المؤتمر، التي رفعها الوفد إليها. يرد ابن باديس

(١) الشعب، ع ٨٢٣٠، ص: ٨، ١٦ ـ٤ ـ١٩٩٠م.
(٢) الشهاب: ج ٦، م ١٢، ص: ٢٧٢.
(٣) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٢٧٢.
(٤) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٢٧٢.

عليها فيقول: «كذب رأي السياسة وساء فألها. كلا والله لا تسلمنا المماطلة إلى الضجر؛ الذي يقعدنا عن العمل. وإنما تدفعنا إلى اليأس؛ الذي يدفعنا إلى المغامرة والتضحية»[1].

ويبين كيف أن الشعب الجزائري عامة، أدرك مقصد الاستعمار من هذه المراوغات، والتي حققت مراد الإمام وهدفه، وما كان يأمل تحقيقه في الشعب بعد المؤتمر فيقول: «وأما نحن الجزائريين، فإننا نعلم من أنفسنا أننا أدركنا هذا الإخلاف العرقوبي، وأدركنا مغزاه. وأخذ اليأس بتلابيب كثير منا، وهو يكاد يعم. ولا نتردد في أنه قد آن أوانه، ودقت ساعته»[2].

ويدعو الشعب باسم الجمعية إلى التبصر والانتباه، إلى ما تحاك ضده من مؤامرة رهيبة بعد المؤتمر، قائمة على التلاعب بمطالب الشعب، وصم الآذان عن سماعها، فيقول له: إن الجمعية «تدعوك إلى التبصر والتثبت والاتحاد، والتجمع والتنبه والتيقظ. وتحثك على الاعتماد على الله وحده، ثم على نفسك والصادقين من أبنائك»[3].

ويردد عليه أبيات الشاعر محمَّد العيد آل الخليفة؛ التي يقول فيها فاضحاً الوعود الكاذبة للاستعمار:

ولــعــل مــن نــظــم الــســيــا	ســة أن نــغــش وأن نُــغَــرّ
ولــعــل مــنــهــا أن يــدس	لــنــا ونــجــذب لــلــحــفــر
ولــعــل مــنــهــا أن يــبــس	لــنــا لــنــحــلــب كــالــبــقــر
ولــعــل مــنــهــا أن نــمــا	طــل كــي يــســاورنــا الــضــجــر[4]

وليطلع الإمام على الأمة، في شهر آب من سنة ١٩٣٧م، بمقال جعل له عنواناً خاصاً بذلك الظرف، وبتلك المرحلة ومعطياتها؛ (هل آن أوان اليأس من فرنسا؟ : !) يقول في خاتمته:

---

(١) الشهاب: ج ٦، م ١٣، ص: ٢٧٢.
(٢) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٢٧٢.
(٣) البصائر: س ٢، ع ٧٩، ص: ١ ـ٢.
(٤) الشهاب: المرجع السابق، ص: ٢٧٣.

«أيها الشعب الجزائري !

أيها الشعب المسلم !

أيها الشعب العربي الأبي !

حذار من الذين يُمثُّونك ويخدعونك ! حذار من الذين ينومونك ويخدرونك! حذار من الذين يأتون بوحي من غير نفسك وضميرك، ومن غير تاريخك وقوميتك، ومن غير دينك وملتك، وأبطال دينك وملتك.

استوح الإسلام، ثم استوح تاريخك، ثم استوح قلبك. اعتمد على الله، ثم على نفسك، وسلام الله عليك»[1].

وليقول في آخر المطاف للأمة كلها، بعد حصول اليقين في اليأس من سياسة إخلاف الوعود، موجهاً نداءاً لها ولنوابها:

«أيتها الأمة الكريمة ! أيها النواب الكرام !

اليوم وقد آيسنا من غيرنا، يجب أن نثق بأنفسنا.

اليوم وقد تُجُوهِلت قيمتنا، يجب أن نعرف نحن قيمتنا.

اليوم وقد خرست الأفواه عن إجابة مطالبنا، يجب أن نقول نحن كلمتنا.

اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا، يجب أن تتحد صفوفنا»[2].

وهكذا أعلن الإمام ابن باديس للشعب عبر جريدته الخاصة الشهاب، أن لا اعتماد إلا على النفس، وأن لا اتكال إلا على الله. بعد أن بلغ اليأس ذروته ومنتهاه. «وليس أمام اليأس إلا اللجوء لسلاح اليائسين. ومن المعلوم أن سلاح اليائس هو الثورة»[3]، والانفجار بعد طول صبر ومصابرة، واجتهاد وجهاد في صمت وهدوء.

---

(١) الشهاب: المرجع السابق، ص: ٢٧٣.

(٢) الشهاب: ج ٧، م ١٣، ص: ٣٢٥. سبتمبر ١٩٣٩م.

(٣) الشعب: : ع ٨٢٣٠، ص: ٨، من شهادة الشيخ أحمد حماني: ١٦ ـ ٤ ـ ٩٠.

ولقد أحدث مقال الإمام الداعي إلى اليأس من فرنسا، والاعتماد على المقدرات الذاتية للأمة؛ لانتزاع حقوقها المسلوبة، أثراً طيباً وكبيراً في نفسية الشعب الجزائري «ذلك؛ لأنه صادف هَوىً في قلوب الأمة، وعبر عن إحساسها وشعورها، وترجم عن عاطفتها التي طلقت الأمل في عدالة فرنسا السريعة، وركنت إلى جانب اليأس من ذلك»[1].

وأزاح ابن باديس من جريدته الشهاب، شعار (الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق، للذين قاموا بجميع الواجبات). ووضع مكانه شعار (لنعتمد على أنفسنا، ولنتكل على الله).

واعتبر الإمام أن من حق الشعب أن ييأس، ويلجأ إلى سلاح اليائسين، والانتقال بذلك إلى مرحلة جديدة، من تطور موقف حركة الإمام والأمة، من الاستعمار الفرنسي: «فلقد كان صاحب هذه المجلة ـ ولا يزال ـ يرى، أنه لا يحق للأمة أن تستمر على السياسة القديمة؛ سياسة المطالبة والانتظار؛ إذ قد ظهرت النوايا جلية واضحة، وتحقق للناس أجمعين، أن وعود هذه الحكومة، كوعود الحكومة السالفة؛ إنما هي من فصيلة الوعود التي أمطرت القطر الجزائري، منذ أيام الإمبراطورية إلى الآن: وعود السراب بعينه»[2].

وبقي هذا الموقف من ابن باديس، إلى أن اندلعت الحرب العالمية الثانية، في ٣ أيلول ١٩٣٩م. وفي اجتماع للمجلس الإداري للجمعية، اقترح الشيخ الطيب العقبي، إرسال برقية تأييد ومساندة لفرنسا في حربها مع الحلفاء ضد ألمانيا؛ «حتى لا تتعرض فرنسا لنشاط الجمعية، وتمنعها من ممارسة أعمالها»[3].

ولكن الإمام اقترح عرض الاقتراح على تصويت أعضاء المجلس؛ ليحدد الموقف الشخصي، والخاص لكل واحد منهم. فكانت النسبة ١٢ إلى ٤ ضد إرسال برقية المساندة، واحتفظ الإمام بصوته ليعلن أمامهم فيما بعد أنه «لن

---

(١) الشهاب: ع ٧، م ١٣، ص: ٣٢٤.

(٢) الشهاب: ج ٧، م ١٣، ص: ٣٢٤.

(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٩٩.

يرسل البرقية، وأن فرنسا لا تستطيع أن تنال من روح المصلحين. وإن كانت تستطيع أن تزج بهم في السجون، وأن تقتلهم إذا شاءت. وأضاف أنه قرر الاحتفاظ بالصمت، ولو قطعوا رأسه»[1].

ثم قال للشيخ العربي التبسي: «أما أنا فوالله لو قال لي الاستعمار: قل: لا إله إلا الله محمَّد رسول الله ما قلتها. إني لن أُمضِي برقية تأييد لفرنسا ،ولو قطعوا رأسي. وماذا تستطيع فرنسا أن تعمله؟ إن لي حياتين: حياة مادية، وحياة أدبية روحية. فتستطيع القضاء على حياتنا المادية؛ بقتلنا ونفينا وسجننا وتشريدنا، ولن تستطيع القضاء على عقيدتنا وسمعتنا وشرفنا، فتحشرنا في زمرة المتملقين»[2].

هكذا كان موقف الإمام ابن باديس في حركته الجهادية ضد الاستعمار الفرنسي؛ تباين في المراحل تبعاً لطبيعتها وظروفها ومعطياتها. فكانت مواقف تكتيكية مبنية على معطيات الواقع، ومتطلبات المرحلة وتحدياتها. وثابتة ومبدئية في مبادئها؛ المتمثلة أساساً في دعوة الأمة وتعبئتها ،لتعض بنواجذها على قيمها الذاتية، ومقومات شخصيتها، وتميزها الحضاري. مع مطالبة فرنسا ـ مرحلياً ـ باحترامها، كما هو الشعب الجزائري يحترمها.

ويخاطب الاستعمار والذين اغتروا به؛ الذين أنكروا وجود هذه الأمة واحتفاظها بمقوماتها، ليقول لهم؛ رداً على ادعاءاتهم الباطلة «إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ، وفتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة، كما تكونت ووُجدّت كل أمم الدنيا. ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة، وعوائدها وأخلاقها، بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمة في الدنيا»[3].

ويطرح ابن باديس، ويستعمل ويوظف الكلمات والألفاظ التاريخية والوطنية؛ مثل: الأمة الجزائرية العربية المسلمة، الوطن الجزائري، مقومات

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص: ١٠٠.

(٢) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس، ص: ١٤٢.

(٣) الشهاب: ج ١، م ١٢، ص: ٤٥ ـ٤٦.

الشخصية القومية. يقول: هذا في زمن «ما كانت هذه اللفظة ـ الوطن مثلاً ـ يومئذ تجري على لسان أحد بمعناها الطبيعي الاجتماعي العام، لجهل أكثر الأمة بمعناها هذا، وعدم الشعور به، ولخوف أقلها من التصريح به»[1].

ولم يكن من السهل واليسير ـ بمكان ـ على أحد في تلك الظروف العصيبة، التي كان فيها الاستعمار في أوج قوته، وعنفوان تسلطه، أن يتلفظ بها أو ينادي. ولكن الإمام «نادى بالقومية العربية الإسلامية، في وقت ما كان يجرؤ فيه أكثر المواطنين تهوراً، أن يناصب هذه الدولة الاستعمارية العداء»[2]، ويخاطبه بهذه الكلمات، التي تعبر عن عمق الرفض، وقوة الاستجابة لتحديها الحضاري، والتي لا يستطيع أحد أن يمنحها «قيمتها التاريخية الحقيقية، إلا إذا عاش الواقع الجزائري»[3] آنذاك، ورجع إليه وعرف أحواله وظروفه وملابساته؛ حتى يدرك قيمة وعظمة مخاطبة ابن باديس، الاستعمار بها.

ولم يكن الإمام ابن باديس، لا متعجلاً ولا مندفعاً، ولا حارقاً للمراحل التي قطعتها حركته الإصلاحية الجهادية، في تلك الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي كانت تحيط بها، والتي كان الإمام جد منتبه إليها، آخذاً إياها بعين الاعتبار، وقارئاً لها حساباتها مقدماً، ومن هنا «فلا يبدو أن ابن باديس كان يخفى عليه، أنه يطالب باجتماع نقيضين وهو مستحيل. ولكنه أراد ألا يبقي الظروف الموضوعية في الواقع القائم، وأن يمد حبال المودة، كما يسوق عند الاقتضاء نُذُر المواجهة، ولكل مقام مقال، ولكل ظرف ما يناسبه من موقف، على قدر الوسع والإمكان»[4].

ولذلك فلا عجب إذا وجدناه في بعض الخطب، والمواقف التكتيكية، يظهر الود لفرنسا، ويمدحها في قانونها الأساسي، ويتظاهر باحترام قوانينها

---

(١) الشهاب: ج ٢، م ١٤، ص: ٢ ـ ٣.
(٢) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ٢٦.
(٣) د. عبد الحليم عويس: العقل المسلم، ص: ٢١٦.
(٤) د. محمَّد فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية المعاصرة، ص: ١١٣.

السارية المفعول، على الجزائريين بالقوة والقهر؛ لأنه اضطُر «شأن السياسي المحنك، ألا يثير ريبة المستعمر. فأقحم على هذه المبادئ بعض العبارات، التي يمتدح فيها فرنسا، حتى يسهل عليه حصارها، وفضح أساليبها أمام الجزائريين والعالم كله، وأتاحت له هذه الحنكة، أن يتجنب البطش المفاجئ، والدعوة في بدء أمرها»[١]، وهو في أمس الحاجة الظرفية، إلى أجواء تمنحه حرية العمل والتعليم، والاتصال بالشعب الجزائري، والتنقل بين أرجاء الوطن؛ تبليغاً للدعوة، وجمعاً للأمة وعلمائها عليها.

وحرص ابن باديس من خلال حركته الجهادية الجماعية، في مؤسسة جمعية العلماء، على حسن التوفيق بين تحقيق أهداف الجمعية، وإجراءات الرقابة والمتابعة، وإصدار القوانين التعسفية المعرقلة لحركته، ونشاط الجمعية ككل، فكان العلماء من جهة «يريدون تحقيق مبادئهم وأهدافهم، بأية وسيلة مشروعة. ومن جهة أخرى كانوا واقعين تحت طائلة إجراءات استثنائية، مستعدة لعرقلة سيرهم، بل لوضعهم في قفص الاتهام. لذلك كانوا يناورون ما وسعتهم الحيلة والمناورة، ويجاملون، ولكنهم لا يتنازلون عن مبادئهم. ومن أجل ذلك اصطدموا مرات بالإدارة»[٢].

فيرفع شعار المساواة في الحقوق السياسية، لا القومية مع الفرنسيين؛ حتى يتيح لحركته مجال تحرك واسع، يستطيع من خلاله «تعزيز مقومات الشخصية الوطنية، وتدعيم فرص بقائها وثبوتها ـ أمام محاولات التذويب والمسخ ـ، وبالتالي التمهيد للانفصال بها عن فرنسا»[٣]. ويرفع هذا الشعار ليحقق مطلباً مرحلياً وظرفياً، يساعده ويمكنه من السعي نحو التحقيق الفعلي والمنهجي للأهداف الاستراتيجية البعيدة الكبرى؛ «فكان يرفع هذا الشعار، وعينه لا تفارق مواقع الشعب. وكان هذا المطلب عنده وسيلة فقط، تسخر لغاية أبعد وأهم؛ وهي تحقيق انفصال الجزائر عن فرنسا»[٤].

---

(١) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ٢٦.
(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٩١.
(٣) محمَّد الميلي: ابن باديس، ص: ٢٢.
(٤) محمَّد الميلي: المرجع نفسه، ص: ٢٣.

كما أن ابن باديس ـ ومعظم إخوانه من العلماء ـ كان في كثير مما يقول، أو يقف، يفرق بين فرنسا الفرنسية كدولة، يتمتع أبناؤها بكامل حقوقهم، وبين فرنسا الاستعمارية في الجزائر، والتي سيطر على إدارتها المعمرون، وأصحاب المصالح الكبرى في الجزائر؛ لحفظ مصالحهم الخاصة «فبينما نجدهم يحسنون الظن بالجمهورية الفرنسية، وينزهونها عن الظلم والجبروت. نجدهم في الوقت نفسه، يحملون حملة شعواء على السلطات الاستعمارية في الجزائر، ويحملونها جريرة العسف الإذلال، التي تنزل على رؤوس المسلمين وحدهم. وأنه لا يخفى ما في هذا الأسلوب من بعد نظر، وذكاء وحذر»[1].

وهكذا تظهر حنكة الإمام، وفطانته في مداراة الاستعمار ومناورته؛ إدراكاً منه أن الدول الراسخة في العمران، يُقضى عليها في عملية التدافع بين الأمم، بالمطاولة، لا بالمناجزة والصراع الجزافي غير المتكافئ القوي. والناظر البسيط لحركته الجهادية، لا يعدها منحصرة في التربية والتعليم فحسب، بحكم أن ـ وكما تؤكد ذلك حقائق التاريخ وتحليلنا لها، ويؤكد ذلك أيضاً الأستاذ حمزة بوكوشة، والسيد ديبارمي ـ الإمام «كان هدفه الآني هو تعليم اللغة العربية والقرآن للجزائريين، ومكافحة الخرافات والأمراض الاجتماعية بينهم. ولكن هدفه البعيد المدى كان وطنياً سياسياً»[2].

ويحرص على إنضاج الثورة على نار هادئة، يستجمع فيها قوى الأمة، ويوفر الشروط الضرورية النفسية والاجتماعية والعَدَدية والعُدَدية والزمانية، للدخول في المواجهة المسلحة الشاملة المنهجية، وجهاً لوجه ضد الاستعمار الفرنسي؛ ولذلك «لم يستبعد قط ابن باديس من معجمه في التحرك السياسي (المغامرة والتضحية)، إنما الأمور مرهونة بأوقاتها. وهو يُؤثِر توقي المغامرة والتضحية، في غير وقتها، إلا أن يُضطَر إلى ذلك، ويدفع إليها دفعاً»[3].

---

(١) د. محمّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٣١٠.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٢، ص: ٤١٤.

(٣) د. محمّد فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس، ص: ١١٩.

٥ ـ حركة الإمام ابن باديس الجهادية، ومبدأ الاستقلال:

لقد كانت نظرة الإمام ابن باديس إلى الواقع الجزائري المؤلم، وواقع الاستعمار الفرنسي وسياسته الاستعمارية، مبنية على دراسة منهجية تحليلية، ورؤيا واقعية محلية، وخطة مدروسة، نأت بها عن الارتجال والعفوية والاندفاعية.

وهذا ما نجده في نظرته وموقفه، من مبدأ العمل من أجل أن يسترجع الشعب الجزائري سيادته الوطنية الكاملة؛ المتمثلة في مظهرها الجلي، التحرر من ربقة الاستعمار بكل تفاصيله، ونيل الاستقلال كاملاً غير منقوص. ففي المؤتمر الإسلامي، وعندما وقف بعض الأمة رافضاً لمشروع فيوليت، مطالباً بالحصول الفوري على الاستقلال. بين لهم الإمام أن هذا المطلب لا يخصهم هم وحدهم فحسب، حتى ينفردوا به، وبالمطالبة بتحقيقه، ويغاروا عليه. قائلاً لهم: «ونحن نحترم رأي هذه الأقلية، ونُؤمِّل بقاءها على رأيها، وهي تطالب بالاستقلال. وأي إنسان يا سادة لا يحب الاستقلال؟ إن البهيمة تحن إلى الاستقلال، الذي هو أمر طبيعي في وضعية الأمم»[1].

هذا هو تصور الإمام ابن باديس لمبدأ الاستقلال، الذي يفصل الحديث عنه فيقول: «إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا. وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة. ولسنا من الذين يدَّعُون علم الغيب مع الله، ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد». ويعلل ذلك من خلال نظره الفاحص المعتبِر في تاريخ الجزائر، فيقول: «فكلما تقلبت الجزائر مع التاريخ، فمن الممكن أن يأتي يوم، تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي، وتتغير فيه السياسة الاستعمارية عامة، والفرنسية خاصة» فتُمنَح الجزائر استقلالها، وتسلك فرنسا معها «مسلك انكلترا مع استراليا وكندا، واتحاد جنوب افريقيا. وتصبح بلاد الجزائر مستقلة استقلالاً واسعاً، تعتمد عليها فرنسا، اعتماد الحر على الحر»[2]. هذا هو النوع من الاستقلال الأولي الجزئي، الذي كان يريده ابن باديس في منتصف الثلاثينات، ومع الوقت، يتطور نحو الاستقلال التام والنهائي.

---

(١) البصائر: س ٢، ع ٧١، ص: ٤ ـ ٥، ١٨ ـ ٦ ـ ١٩٣٦م.

(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

وهو تصور الإمام الأولي ـ أيضاً ـ لمسألة ومبدأ الاستقلال، وإن كانت نظرته العميقة والبعيدة له؛ تتمثل في أنه لا يمكن أن يتحقق من غير تحرير الشعب من القابلية للاستعمار، المتجذرة فيه، وفي هذا يقول: «الاستعمار ما مكن لنفسه في بلاد المسلمين؛ إلا بقوة المسلمين. فلو أنهم قطعوا عنه قوتهم لا نكمش، وانقلب إلى أهله مذموماً مدحوراً»[١].

ولذلك ـ وكأمر استراتيجي عملي ـ جعل الإمام كل اهتمامه منصباً ومحصوراً في العناية بالتعليم، وتفريغ كامل جهوده ـ وجهود إخوانه علماء وأساتذة ـ فيه، وكان يقول: «أنا أحارب الاستعمار؛ لأني أعلم وأهذب. ومتى انتشر التعليم والتهذيب في أرض، أجدبت على الاستعمار، وشعر بالنهاية بسوء المصير»[٢] ؛ لأنه بالتعليم يتغير الإنسان، ويبدأ يحس بحريته وكرامته، وبجدارته في أخذ قسطه من الحياة الحرة الكريمة، والتي فطره الله عليها. «فإذا حررنا أرواحنا وعقولنا، فقد حررنا كل شيء»[٣] ؛ لأن «الشعب الجزائري، هو الذي يستطيع أن يغير كل شيء. ومتى نفض الشعب عن نفسه غبار الجهل والغفلة، وأدرك وجوب تسيير شؤونه بنفسه، وأخذ يضع كل شيء موضعه، لم يجد أين يضع الاستعمار، إلا حيث توضع الأطمار البالية»[٤]. ولا يمكن أن يتحرر شعب من ربقة الاستعمار، ويصير جديراً، بالحرية وحياة الكرامة، «إلا بتحول نفسي، يصبح معه الفرد شيئاً فشيئاً، قادراً على القيام بوظيفته الاجتماعية. جديراً بأن تحترم كرامته، وحينئذ يرتفع عنه طابع (القابلية للاستعمار)، وبالتالي لن يقبل حكومة استعمارية تنهب ماله، وتمتص دمه. فكأنه بتغيير نفسه، قد غير وضع حاكميه تلقائياً، إلى الوضع الذي يرتضيه»[٥].

وبذلك وحده يتمكن ابن باديس ـ مع مرور الزمن ـ من خلال عمل و

---

(١) صلاح الدين الجورشي: تجربة في الإصلاح، ص: ٢١.
(٢) صلاح الدين الجورشي: المرجع نفسه، ص: ٣٣.
(٣) الشهاب: ج ١٠، م ١١، ص: ٥٤٧.
(٤) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس، ص: ١٢٢.
(٥) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٣١.

فعالية حركته الإصلاحية الجهادية الفردية والجماعية، من تحقيق شرطي التغيير النفسي والاجتماعي للمجتمع الجزائري؛ مما يؤهله لأن يخوض به ثورة مسلحة - فيما بعد - ، ينتزع بها حريته واستقلاله الكاملين. وهكذا كان الإمام حريصاً على العمل على إنضاج الثورة «على نار هادئة، وهذه النار الهادئة؛ هي تطوير الفكر الثوري بالعلم والمعرفة، حتى لا تضيع التضحيات سدى، وحتى لا تسيل الدماء هدراً»[1].

ولذلك لم يكن ليشغل نفسه، ويضيع وقته، ويبدد جهده وجهود إخوانه في التغني بشعارات فارغة من محتواها، ومضمونها الحقيقي. وكان موقفه «تكتيكياً؛ لا يطالب بالاستقلال التام، وقد يثير فرنسا فتحكم قبضتها، في وقت بدأت تنكشف فيه نُذُر الصراع العالمي. لكن يجعل من مطالبه في الحفاظ على الشخصية الجزائرية الإسلامية العربية، ما يكفل تفريغ الاستعمار من محتواه ومعناه، حتى يأتي أوان سقوط الشكل، كما فرغ المضمون»[2]؛ لأن ابن باديس لم يكن مقتنعاً باستقلال فارغ من محتواه؛ لأنه لا قيمة «لاستقلال، لا تؤيده مقومات السيادة الحقيقية»[3].

وبهذه الصورة يتحقق الإنجاز التاريخي، الذي يتجاوز بمنهجه العملي التغييري العمل البطولي سريع الزوال؛ لأن تحرير الجزائر طريقه طويل وعر، لا بد أن تتظافر عليه الجهود، وتتتابع الأجيال. «وإنما تبلغ المسيرة غايتها، حين يقوم جيش من الشباب، يحمل فكرة الجمعية وعقيدة الإسلام، وأن يكون تلاميذ ابن باديس نقط جذب لمئات الآلاف، أنصاف الفكرة، حملة العقيدة، ممن يجمعهم إيمان واحد، وفكرة واحدة»[4].

والإمام في منهجه هذا، كان يريد الابتعاد عن المهاترات «الحزبية التي كانت تدور في فلك حدده المستعمر سلفاً، ونسج خيوطه كصمام أمان لحالة

---

(١) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس، ص: ١٢٤.
(٢) د. محمَّد فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس، ص: ١١٣.
(٣) مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، ص: ٨٨.
(٤) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ٢٣.

السخط، التي عمت الجزائر بسبب الحرمان الاقتصادي والاجتماعي»[1]، والدخول ـ انجرافاً ـ «في تيارات السياسة العاتية، في صراع غير متكافئ، أو في وقت غير موات»[2].

وهكذا تنضج الثورة في هدوء وصمت، وتكتمل أسبابها وتتحقق شروط اندلاعها مع الزمن؛ «لأنها اطراد طويل ،يحتوي على ما قبل الثورة، والثورة نفسها، وما بعدها. والمراحل الثلاث هذه لا تجتمع فيه بمجرد إضافة زمنية، بل تمثل فيه نمواً عضوياً، وتطوراً تاريخياً مستمراً. وإذا حدث أي خلل في هذا النمو، وفي هذا التطور، فقد تكون النتيجة زهيدة، تخيب الآمال»[3].

واقتضت خطة الإمام ابن باديس ـ أيضاً ـ في محاربة الاستعمار، محاصرته «في رفق وعزم صارم، في الوقت الذي تظن هي فيه أنها تحاصر الجزائر»[4]. وآتت الخطة نتيجتها؛ بحيث «لم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة، إلا بعد فوات الأوان. فوجدت نفسها محاصرة، بعد أن نحى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى»[5]؛ لأن العلماء الذين وافقوا ابن باديس في محاربة الطرقية أولا، قبل محاربة ومواجهة الاستعمار «ارتأوا أنه من السياسة، الإجهاز على العدو الداخلي أولاً، حتى يضمنوا بذلك سلامة الجبهة من الداخل، ويأمنوا على أنفسهم من أن يؤخذوا على غَرَّة»[6]. وبذلك يحقق الإمام خطته في «أن يضرب أعداء الشعب؛ عدواً بعد آخر»[7]، محافظة على الجهود والوقت. وتجنباً لمواجهة الأعداء جميعاً مرة واحدة ـ وهو عين المستحيل ـ مقارنة بالإمكانات المحدودة والبسيطة، لحركة الإمام الجهادية.

---

(١) محمود قاسم: المرجع نفسه، ص: ٢٧.

(٢) د. محمَّد فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس، ص: ٩٩.

(٣) مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، ص: ١١ ـ١٢.

(٤) محمود قاسم: المرجع السابق، ص: ١٥.

(٥) محمود قاسم: المرجع السابق، ص: ١٥.

(٦) د. محمَّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ١١٠.

(٧) أساتذة: نوابغ العرب، ص: ٤٥.

ورغم هذا الالتزام بمنهجية العمل والحركة تصوراً وتطبيقاً، وباحترام الإجراءات المرحلية في مواجهة الأعداء واحداً واحداً، فإن نفسية الإمام وأشواقه الروحية ،كانت تواقة إلى التضحية في سبيل هذه الأمة بالنفس والروح، بعد أن قدم لها حياته وعمره، وأوقفهما على إصلاح أوضاعها وتغييرها، وجهاد أعدائها. يذكر الأستاذ إبراهيم الكتاني، أنه كان في خريف سنة ١٩٣٧م في تلمسان، بمناسبة تدشين مدرسة (دار الحديث) بها، وقد رافق الإمام ابن باديس الوفد، إلى حيث أطلال مسجد المنصورة؛ حيث حرر نداء يدعو فيه الأمة الجزائرية، للصيام وملازمة المساجد؛ بمناسبة ذكرى مرور مائة سنة على احتلال قسنطينة، ولما قرأه على الوفد، جعل أحد تلامذته يثبط عزيمته، ويحذره مغبة نشره. فغضب ابن باديس وقال: «يا أبنائي! إنكم تعلمون أني لم أطلب أي شيء لنفسي، ولكني اليوم أطلب لنفسي شيئاً واحداً؛ هو أن تسمحوا لي أن أكون أول ضحية في سبيل الجزائر، عندما يحين الوقت للتضحية في سبيلها»[١].

ثم التفت إلى الأستاذ إبراهيم الكتاني، قائلاً له: «هنيئاً لكم أنكم تجدون في المغرب السبيل للتضحية في سبيل بلادكم، أما نحن في الجزائر، فإننا نتحرق على التضحية في سبيلها، ولا نجد للتضحية سبيلاً»[٢].

ولم يكن يتحرج ـ أبداً ـ من الإفصاح بالهدف الاستراتيجي البعيد من وراء حركته الجهادية لتلاميذه؛ عندما يسألونه طالبين منه الإعلان بالثورة والمطالبة بالاستقلال. فيذكر الشيخ محمَّد خير الدين «أنه ذات يوم من عام ١٩٣٣م، التف نفر من الشباب المتحمس حول الإمام ابن باديس بنادي الترقي، وطلبوا منه أن يرفع صوته قوياً مدوياً عالياً؛ مطالباً باستقلال الجزائر وحريتها. فقال لهم: وهل رأيتم أيها الأبناء إنساناً يقيم سقفاً، دون أن يشيد الجدران؟

فقالوا: كلا، ولا يمكن هذا.

فقال لهم: إن من أراد أن يبني داره، فعليه أن يبني الأسس ويقيم الجدران

---

(١) محمَّد خير الدين: مذكرات، ج ١، ص: ٤٠٧.

(٢) محمَّد خير الدين: المرجع نفسه، ص: ٤٠٧.

أولاً، ثم يشيد السقف على تلك الجدران. ومن أراد أن يبني شعباً، ويقيم أمة فإنه يبدأ من الأساس، لا من السقف».

ويبين لهم بأن هذا هو التفكير السليم، الذي يجب أن يفكر فيه ـ وبه ـ العاملون في سبيل رفعة الأوطان، وبناة الأمم، والنهوض بهما. ويدلل على صحة منهجه في العمل، وخطته من أجل تحقيق هذا الهدف الاستراتيجي البعيد المدى، بمراحل دعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليستنتج في الأخير أن هذه سنة طبيعية في الكون «فلا يكفي أن ينادي بالإسلام، فيصبح الناس مسلمين، أو ينادي بالاستقلال فيصير الشعب حراً مستقلاً. وبالتالي؛ فإن طريقنا إذن هو أن نشيد البنيان، ونرفع الجدران؛ لنضع السقف عليها بحكم. «أننا نربي ونعلم، ونهيئ الأمة؛ لتصير جديرة بالحرية، وقادرة على أخذها بالقوة. لأن الاستقلال لا يطلب بالكلام، أو بالشعارات، بلل ينتزع بالقوة وبذل الدماء. ويوجه الدعوة للعمل الإعدادي لذلك فيقول: «فلنوحد الصفوف، ونجمع الأمة على كلمة واحدة، فتصبح في منعة من بطش عدوها، ونُكوِّن المجاهدين، فيصبحوا قادرين على الجهاد. ثم نتجه بعد ذلك إلى تحقيق الاستقلال. ولا نكون من الخياليين الذين عناهم الشاعر العربي بقوله:

لنا الآمال نبنيها قصوراً على عُمَد الكلام فهل تقام؟ ![1]

وهذا الكلام نفسه الذي أجاب به تلاميذه، قاله لمصالي الحاج؛ الذي كان يطالب بالاستقلال بنص «وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل، أن يتركه بدون سقف. وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال»[2].

كما كان ابن باديس، كلما سأله إخوانه وتلاميذه «كيف يمكن خلاص الجزائر من قبضة الاستعمار؟ فكان يشير إلى الجبال قائلاً: هناك سيكون الخلاص»[3].

(١) محمَّد خير الدين: مذكرات، ص: ٣٤٨ ـ ٣٤٩ بتصرف.
(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٨٩.
(٣) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ٧٤.

ويذكر الشيخ أحمد حماني، أن الإمام صرح أمامه عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، قائلاً: «لو استشاروني لأشرت عليهم بالصعود إلى جبال أوراس، وشن الثورة منها على الاستعمار. ثم أخذ يستعد لتنفيذ ما صرح به. وقد سمعت من الشيخ محمَّد الصالح بن عتيق، أنه انفلت من الرقابة الاستعمارية، المضروبة عليه بقسنطينة ، وزار الميلية خفية، وسأله عن درجة استعداد الأمة فأجاب: إن رجال الميلية سيجدهم (رجال البارود). ودعاه إلى النزول فاعتذر؛ بأن الزيارة قصيرة، لا تسمح له بطول الإقامة»[1].

واجتمع بجمع من إخوانه العلماء أنصار حركته الجهادية؛ طالباً منهم معاهدته «فلما أُعطِي له العهد بالمصافحة. قال: إني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها إيطاليا الحرب»[2]، وذلك لقرب هذه الأخيرة من الجزائر وإمكانية استمداد الأسلحة منها.

ويمتنع عن إرسال برقية المساندة لفرنسا، عند دخولها الحرب ،قائلاً لأعضاء المجلس الإداري للجمعية: «إننيّ لا أوافق على إرسال هذه البرقية أبداً، ولو قطعوا رأسي، وأشار بيده إلى عنقه؛ لأن ذلك يعتبر قبولاً مني، بتجنيد أبناء هذه الأمة في الحرب»، ويشرح للحاضرين، الذين وافق معظمهم على سبب امتناعه «وكيف أوافق وألوان الاضطهاد ما تزال تنصب على الأمة، وتنال من دينها ولغتها وقوميتها؟ ! . وأنا لا أنتظر إلا إحدى الحسنيين: فإما حياة السعادة، وإما الفوز بالشهادة». ولكن عضواً من المجلس رد عليه قائلاً: «إذا كنت تحب الذهاب إلى السجن. . .فالناس لها أولاد.

فيجيبه الشيخ: إذا كان عندك أولاد. .فأنا أعتبر أن أولاد الأمة كلهم أولادي»[3].

وكإجراء عملي، أُوقِفت البصائر عن الصدور، بإرادة من مجلس الجمعية؛

---

(١) الشعب: ع ٨٢٣٠، ص: ٨.

(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٨٩.

(٣) من شهادة لعلي مرحوم: الأصالة: س ٤، ع ٢٤، ص: ١١١.

«حتى لا تقع في حالة الطوارئ. وحتى لا تتعرض للضغوط والمساومات»[1]، من قبل الإدارة الاستعمارية؛ لتمنحها الموافقة والتزكية، في تجنيدها لآلاف الجزائريين - قهراً - ضمن قواتها، والذين كان ابن باديس يعلق عليهم آماله «عندما يحين الوقت لحمل السلاح في وجه المستعمر الغاصب»[2]. كما كان يعلق آماله على تلاميذه الذين يدرسهم، والكبار الذين يزورهم ويعظهم. فيلح على الجميع «في دروسه ومحاضراته على الاستعداد المادي والمعنوي؛ لمواجهة هذا العدوان في يوم ما»[3].

(١) من مقدمة: مجموعة البصائر، س ١، ص: ج.
(٢) محمَّد خير الدين: مذكرات، ص: ٤٠٧.
(٣) جريدة الفجر، ٧ - ١٢ - ٨٩، ص: ٨.

الفصل الثالث

وسائل وأساليب ابن باديس في جهاده ضد الاستعمار الفرنسي

لقد كان ابن باديس يملك تصوراً واسعاً وأفقاً رحباً، لما يمكن أنْ يعتمده أي مصلح يبتغي ممارسة العمل الإصلاحي الجهادي؛ لإحداث تغيير اجتماعي شامل وعميق في أوضاع المجتمع؛ حتى يعد ويؤهل لمواجهة العدوان، وإزاحة تسلطه الجاثم فوق صدره منذ أمد بعيد. فنجد ابن باديس يقول مبيناً أن ميدان الدعوة وأسبابه واسعة، فليتخير ـ بناء على ذلك ـ كل داع الميدان الذي يناسبه، والسبب الذي أمكنت به الظروف، وتيسرت به الأحوال. مع مراعاة أن الظروف ـ مهما كانت عوائقها ـ تكيف الإنسان ولا تتلفه، «فمن الدعوة إلى الله دروس العلم كلها، مما يفقه في دين الله؛ فالفقيه الذي يبين حكم الله وحكمته داعٍ إلى الله، والطبيب المشرح الذي يبين دقائق العضو ومنفعته داعٍ إلى الله، ومثلهما كل مبين في كل علم وعمل. ومن الدعوة إلى الله مجالس الوعظ والتذكير؛ لتعريف المسلمين وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، على ما جاء به»[1].

ووفق هذا التصور، تحرك ابن باديس في دعوته وحركته الجهادية، وعلى أساسه تم تحديد ـ فيما تبعد ـ وسائل عمل الجمعية؛ لتحقيق أهدافها وغاياتها؛ عندما نص الفصل الخامس من قانونها الأساسي على «أن الجمعية تتذرع للوصول إلى غايتها، بكل ما تراه صالحاً نافعاً، لها غير مخالف للقوانين

(١) الشهاب: ج ١، م ١١، ص: ٤ ـ ٥.

المعمول بها؛ ومنها أنها تقوم بجولات في القطر في أوقات مناسبة»[١].

ويبين ـ أيضاً ـ الفصل السادس ذلك؛ بنصه على «أن للجمعية أن تؤسس شعباً في القطر، وأن تفتح نوادي ومكاتب للتعليم الابتدائي»[٢].

وباستقراء حركة ابن باديس الجهادية على مدى ما استغرقته من زمن طويل ـ ٢٧ سنة ـ نجد أن ابن باديس لم يترك وسيلة أتيحت له للعمل بها، أو أمكنته إمكاناته المحدودة من توظيفها وتسخيرها، لتحقيق أهداف حركته الإصلاحية الجهادية الواسعة، إلا وظفها واستعملها بفعالية قصوى. مع الاعتماد ـ أساساً ـ على وسائل أربعة أساسية هي المسجد، المدرسة، النادي، الصحافة.

«فالمسجد كان للوعظ والإرشاد، وبطريقة العلماء الجديدة في فهم الدين ودوره في الحياة. والمدرسة كانت لتربية وتعليم النشء الجديد، وتخريج إطارات الثقافة العربية الإسلامية. والنادي كان للتوعية والتوجيه الوطني؛ بالخطب والمحاضرات والمسامرات، والمسرحيات والأشعار والأناشيد. والصحافة كانت لنشر المبادئ والهداف، والدعوة إلى اليقظة، والدفاع عن الجمعية ضد خصومها؛ سواء كانوا من الإدارة الفرنسية، أو من قطاعات المجتمع الأهلي»[٣].

وأضيف إليها وسائل أخرى، أوجبتها وفرضتها إرادة العمل والتضحية، واقتضتها الظروف والتحديات، وأتاحها الزمن والمناسبات؛ من ذلك الاحتجاجات، ومقابلة المسؤولين، وإرسال الوفود، والرحلات، والمشاركة في التجمعات العامة ونحوها؛ من استغلال المآتم والأعياد والأفراح العامة، والأسواق الأسبوعية. كما أن حركة الإمام «لم تكن تتقيد بالتعاون مع حزب من الأحزاب، بل كانت تعمل مع الكل، وتستغل الحركات القائمة لنشر دعوتها وأفكارها، في أنصار كل هيئة وكل حزب»[٤].

---

(١) ملحق سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص: ٦.
(٢) ملحق سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص: ٦.
(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٨٧.
(٤) علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ص: ١٥.

وسنعرض الآن بشيء من التفصيل، للوسائل التي اتخذها ابن باديس في حركته الجهادية الفردية والجماعية دعوة للإصلاح، وعملاً على إحداث تغيير في بنية المجتمع الجزائري الفكرية والثقافية والعلمية والسلوكية، تأهيلاً له لأداء واجباته الرسالية، ووظائفه التاريخية، ومهماته الوطنية الكبرى التي تنتظره.

أولاً: الوســـائل

١ ـ الدروس المسجدية:

كلنا يعرف الدور الحضاري لمؤسسة المسجد، وأهميته في إحياء الأمة وبعثها إلى الحياة «فإذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم، فإن العامة التي تنتاب تلك المساجد، تكون من العلم على حظ وافر، وتتكون منها طبقة مثقفة الفكر، صحيحة العقيدة ،بصيرة بالدين، فتكمل هي في نفوسها، ولا تهمل ـ وقد عرفت العلم وذاقت حلاوته ـ تعليم أبنائها. وهكذا ينتشر العلم في الأمة، ويكثر طلابه من أبنائها وتنفق سوقها فيه. أما إذا خلت المساجد من الدروس. . .فإن الأمة تنفض عن العلم والدين، وتنقطع علاقتها به، وتبرد حرارة شوقها إليه، فتجسوا نفسها وأبنائها، وتمشي والدين فيها غريب»[١].

انتصب ابن باديس مدرساً في كل من المساجد التالية ـ بعد استقراره بقسنطينة سنة ١٩١٣م: المسجد الكبير، سيدي قموش، سيدي عبد المؤمن، سيدي بومعزة، الجامع الأخضر، سيدي فتح الله.

فكان يعلم الصغار والكبار ابتداء من صلاة الفجر، وانتهاء بعد صلاة العشاء فوجاً بعد فوج. فدروسه العلمية «تجتذب أفواجاً من الشباب، ودروس الوعظ الإرشاد كانت تجتذب الجماهير إلى حظيرة الإصلاح، وتحدث كل يوم ثغرة في صفوف الضلال»[٢]. يشرح فيها كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وكتاب الموطأ، ويفسر القرآن الكريم آيات آيات، وفق طريقة السلف الصالح ومنهج تجديدي، يضفي على القرآن الحركة والفعالية، ويترك الناس تتجاوب مع

(١) الشهاب: ج ١١، م ٦، ص: ٦٩٢.

(٢) سجل مؤتمر جمعية العلماء: ص: ٥٢.

هداياته، وتنفتح عليها كلية. ويخطب في الأمة ويعظها، ويعلمها إسلامها، وفق طريقة «تذكر بكتاب بالله، تشرحه وتستجلي عبره. وبالصحيح من سنة رسول الله تبينها وتنشرها. وبسيرته العلمية تجلوها، وتدل الناس على مواضع التأسي منها. ثم سير الصحابة وهديهم. ثم سير حملة السنة النبوية، وحملة الهدي المحمدي، في أقوالهم وأعمالهم كذلك»[١].

مع التزام الأساليب الجديدة في العرض والطرح، والتي تهتم وتركز على «العناية بالمعنى، والنفوذ إلى صميمه من أقرب طريق يؤدي إليه، وتجليته للسامعين بالصور العملية التطبيقية، والإعراض عن اللفظيات والخلافات، وكل ما يشوش ويبعد عن تصور المعنى المقصود»[٢]. ويلحق الإمام بالمسجد فرعاً لتعليم «الأميين من الكبار مقدار ما يرفع الأمية عنهم»[٣]، بشكل عملي، فعال يتجاوز محاربتها بالخطب الحماسية العتابية، التي لا تغير في الأمر، وحقيقته الواقعة قيد أنملة. وبالتالي، بهذا العمل الحضاري العلمي، يساهم المسجد بصورة فعالة في جذب الناس إلى ارتياده وتعميره، والالتفاف حول حركة ابن باديس التي كان ينطلق إشعاعها فيه، فيعم أرجاء البلاد ويغمرها بنورها. وفيها يتعلم أساسيات إسلامه وضروري دينه؛ فينتشل بذلك من أميته الدينية والفكرية واللغوية، وتحيا روحه وعقله بالغذاء، الذي يتلقاه على يد العلماء فيها.

٢ ـ تعليم الناشئة، وتربية الأجيال:

على الإسلام ولغته وتاريخه وبهم جميعاً، إيماناً من ابن باديس بأن وضع الشعب الجزائري المأساوي لا يمكن أن يتغير أو يتحقق إصلاحه، إلا إذا تغير أفراده وأبناؤه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٤]. وفي هذا يقول الإمام: «صلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به. وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم» الذين كيفما يكونوا يكون

(١) سجل مؤتمر جمعية العلماء: ص: ٥٢.

(٢) المرجع نفسه: ص: ٦٥.

(٣) المرجع نفسه: ص: ٦٦.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١١.

عموم المسلمين «فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم، وابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون»، وبالتالي لا صلاح لهم إلا بإصلاح علمائهم «فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم. . . ، لأن العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلَح صلَح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله» مؤكداً أن لاصلاح لعلماء الأمة، إلا إذا تم إصلاح أمر التعليم فيها؛ لأنه «هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره. فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم. ونعني بالتعليم؛ التعليم الذي يكون به المسلم عالماً من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناس دينهم، ويقتدون به فيه»[1].

هذا هو الهدف البعيد المدى، والتصور الناضج للإمام للتعليم؛ تخريج العلماء النافعين للأمة، الذين يكونون بمثابة القدوة العلمية والعملية الصالحة، والطيبة لهم.

ويبين ابن باديس أن الإصلاح الجذري للتعليم لا يتحقق «إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته؛ فيما كان يعلم صلى الله عليه وسلم، وفي صورة تعليمه. فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم أنه قال: «إنما بعثت معلماً»[2]. حتى يتمكن التعليم بذلك من أداء دوره الرسالي والحضاري، في «نشر العلم لكل أحد؛ للكبير والصغير، والمرأة والرجل. بحلق الدرس، ومجالس الوعظ، وخطب المنابر، وبكل طريق موصل»[3]، إلى تحقيق أساس التغيير الذي يقوم على تربية الأبناء والطلبة ،على العلم الصحيح والخلق المتين، الذي «ينبغي أن ينطلق من داخل الذات، أو الضمير الإنساني، لا من المؤسسات الاجتماعية. فإن إصلاح الذوات الفردية، هو الذي يجر بالضرورة إصلاح المجتمع كله»[4]. وهو أصل كل انطلاقة حضارية لأي مجتمع، وصانعها.

---

(١) الشهاب: ج ١١، م ١٠، ص: ٤٧٨.

(٢) الشهاب: ج ١١، م ١٠، ص: ٤٨٠.

(٣) جمعية العلماء: الصراط السوي، س ١، ع ٢، ص: ٥.

(٤) د. فهمي جدعان: أسس التقدم الاجتماعي، ص: ٤٥٤.

وعلى هذا الأساس، وانطلاقاً من هذا المنطلق، اتجه ابن باديس في بداية عمله وحركته إلى التعليم، وفرَّغ كامل قواه فيه؛ إيماناً منه أن الإصلاح ينبغي أن ينصب «على العقل أولاً؛ أي إصلاح العقائد. وعلى الأخلاق ثانياً؛ أي تقويم النفس وبناء الفضائل. لأن الباطن أساس الظاهر، والعلم مبدأ العمل والباعث عليه. ولأن الإصلاح ينبغي أن يكون ذاتياً لا خارجياً، ولأن مبادئ الإسلام هي أصلاً مبدأ الإصلاح، فقد لزم في رأي ابن باديس، أن تتحقق النهضة بما هو ذاتي»[1].

فبدأ تعليمه للصغار في المسجد أولا، الذي حوَّله إلى معهد للدراسة وتخريج أفواج الطلبة منه. ثم لما تزايد العدد وكثر، ولم يعد المسجد قادراً على استيعابهم، انتقل إلى تأسيس وفتح المدارس الحرة. وكان هدفه من حركته التعليمية الواسعة، تخريج جيل قرآني «يتقن حفظ القرآن وأداءه، ويحسن فهمه والعمل به، ويتخلق بأخلاقه، ويتربى على هديه. ثم ينشر بواسطته دين الله، في أرض الله»[2].

ولتحقيق ذلك، كان الإمام ابن باديس يربي تلامذته على القرآن الكريم وهداياته، فيقول مؤكداً ذلك: «فإننا ـ والحمد لله ـ نربي تلامذتنا على القرآن الكريم من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يُكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم. وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينها تلتقي جهودنا وجهودها»[3]؛ حتى يصير المسلم الجزائري المربى والمُغَيَّر على يد حركة ابن باديس الإصلاحية الجهادية «رجلاً عزيزاً قوياً، عالماً هادياً، محسناً كسوباً، معطياً من نفسه آخذاً لها، عارفاً بالحياة سباقاً في ميادينها، صادقاً صابراً. هيناً إذا أريد منه الخير، صلباً إذا أريد على الشر»[4]. وإذا صار كذلك من تربية العلماء له «يحسن إدراكه

(١) د. فهمي جدعان: المرجع نفسه، ص: ٤٥٤ ـ٤٥٥.
(٢) سجل المؤتمر، ص: ٦٦.
(٣) الشهاب: ج ٤، م ١٤، ص: ٢٩١.
(٤) البصائر: س ١، ع ٣٧، ص: ٧.

للأشياء، وفهمه لمعنى الحياة، وتقديره لوظيفته فيها، وعلمه بحظه منها، وينضج عقله وتفكيره، ويلم بزمانه وأهل زمانه، ويتقاضى من أفراد المجموعة البشرية، ما يتقاضونه منه من حقوق وواجبات. ويرى لنفسه من العزة والقوة، ما يرونه لأنفسهم»[1].

وكان الطلبة عندما يقصدون إما للدراسة على يديه، والتعلم في المساجد التي يعلم فيها، أو المدارس التي كان يشرف عليها، أو أشرفت عليها الجمعية كمؤسسة ـ فيما بعد ـ يخاطبهم عند الانتساب إليها؛ مبيناً لهم طبيعة الدراسة، ومراحلها وهدفها قائلاً لهم: «إنكم جميعاً أبنائي، وخير لي ولكم أن تكون الرابطة بيننا ـ منذ الآن ـ . لهذا يجب أن تعلموا من أنكم مطالبون بقضاء فترة هنا عندنا، لا تقل ولا تزيد عن ثلاث سنين. وبعدها تختارون أحد أمرين:

الالتحاق بالمعاهد العلمية خارج الوطن لإتمام الدراسة. أو التجند في كتائب المعلمين لأبناء هذه الأمة، والعمل في ميادين الجهاد من أجلها، ومن أجل المحافظة على دينها ولغة دينها». ويترك لهم أمر الاختيار الحر المسؤول، ليذكرهم بعد تحديده قائلاً: «أنتم الآن أطفال صغار، وغداً إن شاء الله رجال كبار. وأنا لا أريد من هذه الرجولة إلا الشجاعة، وشدة البأس في الحق والخير والفضيلة. فخذوا حظكم من الشجاعة منذ الآن، وحددوا معالم حياتكم منذ البدء. إن أمتكم وبلادكم بحاجة إليكم، فاقرأوا هذه الآية الكريمة من كتاب الله (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون) ثم اعملوا في صبر ومثابرة، وجلد على تحصيل العلم، الذي به تهيئون أنفسكم لما أنتم عليه مقدمون»[2].

وانتظم الطلبة أفواجاً أفواجاً في المساجد والمدارس، التي يعلم فيها ابن باديس وإخوانه العلماء، والتي تضاعف عددها حتى «بلغ نحو المائة والخمسين مدرسة. تسيرها لجنة مؤلفة من خيرة المعلمين، وتشرف عليها وتتفقدها»[3]،

---

(١) الإبراهيمي: الآثار، ج ١، ص: ٢١٥.

(٢) محمّد الطاهر فضلاء: قال الشيخ الرئيس ابن باديس ص: ١٧ ـ١٨.

(٣) أندري جوليان: افريقيا الشمالية تسير، ص: ١٣٧.

وتوزعت على نواحي الوطن، واستوعبت المئات من البنين والبنات. واقتضى الأمر من العلماء إبقاء الإمام ابن باديس في قسنطينة، وتخصيص الشيخ الطيب العقبي للجزائر العاصمة، والشيخ البشير الإبراهيمي لتلمسان في الغرب. واستطاعت الحركة العلمية الحرة التي أحدثتها حركة الإمام، وخصوصاً من خلال الجمعية؛ أن تدك التعليم بالمدارس الفرنسية، وتتفوق عليه كماً ونوعاً «وبدأت تخرج من الشبان، من يختلف عن هؤلاء الذين أرادت الحكومة إعدادهم لمناصب الإمامة والقضاء»[1]. وتخطو حركة الإمام خطوات عظيمة، نحو أهدافها الكبرى، فتتجاوز تأسيس وفتح المدارس الإعدادية إلى فتح المعاهد والثانويات؛ كدار الحديث بتلمسان.

ولم يكن هذا هدف ابن باديس فحسب في حركته العلمية التعليمية، بل «كان الهدف الأسمى الذي لم يبلغ، هو إنشاء جامعة كبرى بعاصمة الجزائر، على غرار الجامعة الزيتونية؛ تكون مركز إشعاع للثقافة العربية»[2]، وتخرج كبار العلماء وحاملي الشهادات العليا. ولكن الموت عاجل الإمام قبل أن يحقق المشروع في الميدان.

وكانت البرامج التعليمية، والكتب والطرق التي اعتمدها العلماء في مدارسهم، تتسم بالتجديد ورفض الجمود والتقليد؛ حيث «لم يتجمدوا بالدعوة إلى التعليم الديني فقط، واللغة العربية فحسب، بل نادوا بتعليم كل العلوم، وجميع اللغات الحية ،ولكن على أساس أنها مكملة لتعاليم الإسلام، والثقافة العربية»[3].

وتنتقي حركة الإمام في تعليمها وبرامجها، الكتب المقررة في المواد الدراسية انتقاء دقيقاً؛ فتختار «ما هو أقرب إلى الإفادة، وأعون على تحصيل الملكة العلمية، وتجتنب الكتب الجامدة المعقدة التي لا تفتق ذهناً، ولا تبعث في نفس الدارس نشاطاً. وتختار للمطالعة في مختلف العلوم الكتب الحية السهلة»[4].

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب العربي الكبير، ج ٢، ص: ٢١٩.
(٢) أندري جوليان: المرجع السابق، ص: ١٣٦.
(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٣٦.
(٤) سجل المؤتمر، ص: ٦٦.

ومجموع العلوم التي كانت تدرس للناشئة، في مدارس ومساجد الحركة هي: التفسير، الحديث، الفقه ،الفرائض، العقائد، الأدب، المواعظ، التجويد، الأصول، المنطق، النحو، الصرف، البلاغة، محفوظات، مطالعات، دراسة الإنشاء، الحساب، الجغرافيا ،التاريخ.

و يوصي الإمام بقراءة ومطالعة الكتب التاريخية النافعة؛ ككتاب الأستاذ أحمد توفيق المدني (محمَّد عثمان باشا داي الجزائر سنة ١٧٦٦م ـ ١٧٩١م)؛ والذي فيه ذكر لما كانت عليه الجزائر من قوة وعمران، وما أصابها من تخريب وتدمير بعد الاحتلال، فيقول: «وإنه يتحتم على كل مسلم جزائري أن يقرأ هذا الكتاب . . .وإنك إذا ختمته أيها المسلم الجزائري، لا بد أن تخرج منه تحب من يجب أن تحب. . . وتبغض من يجب أن تبغض. . .لأن الحب والبغض سلاحان لازمان في الحياة، ولا بقاء لأمة بدونهما إذا استعملتهما في محلهما»[١].

ويقرر على الطلبة تدريس مقدمة ابن خلدون، لأهميتها العظمى؛ ليصيغ بها عقولاً ناضجة راشدة، تعرف كيف تتحرك بالمبادئ من أجل خدمتها، وتحويلها واقع حياة. وباعتبارها «أساس لتربية عقلية منهجية متفتحة، وإدراك بصير لسنن الاجتماع والعمران، وحياة الدول وخطط السياسة والملك، وفكر ناقد للأخبار والمعلومات. وتنمي الحاسة التاريخية، والقدرة على إدراك التطور، وديناميكية التاريخ والمجتمعات الإنسانية، مع ملاحظة السنن الثابتة، وتتابع المقدمات والنتائج»[٢].

ولا يستثني من اهتماماته التعليمية، وبرامجه الدراسية، تعليم الفرنسية للطلبة؛ لأنها ـ كما يقول ـ «هي سبيلنا إلى آداب الغرب وعلومه وفنونه، وفهمه من جميع جهاته»[٣]. مع تشجيع الطلبة على إبراز ما منحهم الله من مواهب. «فكان إلى جانب الدروس المعهودة، كان الشيخ يدرب تلامذته على الخطابة

---

(١) الشهاب: ج ٧، م ١٣، ص: ٣٢١.

(٢) د. محمَّد فتحي عثمان: من تاريخ الحركات الإسلامية، ص: ٨٤.

(٣) البصائر: س ٣، ع ١٣٦، ص: ١.

والكتابة، وينشر ما ينتجه بعضهم، تشجيعاً لهم»[1].

ويحرص بالغ الحرص على «دعوة الطلبة إلى الفكر والنظر في الفروع الفقهية ،والعمل على ربطها بأدلتها الشرعية، وترغيبهم في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين»[2].

ولا يُبقي تعليم المرأة ـ كما كان ـ مهملاً، لا تنال معه حظها من العلم والمعرفة الإسلامية الضرورية، والعامة التثقيفية؛ حتى لا تبقى ـ بذلك جاهلة ولا تخرج نتيجة لذلك إلا رجالاً جاهلين. فيقول: «فإذا أردنا أن نُكوِّن رجالاً، فعلينا أن نكون أمهات دينيات. ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليماً دينياً، وتربيتهن تربية إسلامية. وإذا تركناهن على ما هن عليه من الجهل بالدين، فمحال أن نرجو منهن أن يُكَوِنَّ لنا عظماء الرجال. وشر من تركهن جاهلات بالدين، القاؤهن حيث يربين تربية تنفرهن من الدين، أو تحقره في أعينهن، فيصبحن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهن. ولئن تكون الأم جاهلة بالدين محبة له بالفطرة، تلد للأمة من يمكن تعليمه وتداركه، خير بكثير من أن تكون محتقرة للدين، تلد للأمة من يكون بلاء عليها، وحرباً لدينها»[3].

ولذلك أدخلها مدارسه، وخصص لها أقساماً منها، وجعل تعليمها مجاناً، بخلاف الطلبة الذكور. «كما فتح للمرأة ـ ربة البيت ـ باب الجامع الأخضر؛ تتلقى فيه دروس الوعظ والإرشاد، وواجبها بصفتها ربة البيت. ودعا غيره من العلماء أن يقتدوا به في هذا»[4].

حتى تخرجت من مدارسه طالبات كثيرات، بعضهن صرن معلمات بمدارسه. ويعتبر هذا العمل واجباً من الواجبات الكبرى والمهمة، التي يجب القيام والاعتناء بها، فيقول: «فمن الواجب علينا ـ ولنا كل الحق في المحافظة على ديننا ومقوماته ـ أن نعتني بتعليم بناتنا، تعليماً يحفظ علينا مستقبلنا، ويُكوِّن

---

(١) علي مرحوم: الأصالة، س٤، ع ٢٤، ص: ٩٩.
(٢) جمعية العلماء: السنة النبوية، س ١؛ ع ٣، ص: ١.
(٣) الشهاب: ج ٨، م ١١، ص: ٤٤٤ ـ ٤٤٥.
(٤) الصالح ابن عتيق: جريدة النصر، ص: ٢، ١٦ ـ ٤ ـ ٨٧.

لنا الرجال العظماء والنساء العظيمات. وإلا فالمستقبل ليس كالماضي فقط، بل شر منه لا قدر الله»[1].

٣ ـ إرسال الطلبة المتفوقين للدراسة بالزيتونة:

في جامعها العظيم، لنيل شهادة التطويع في العلوم الشرعية، كما نالها هو من قبل سنة ١٩١٣م. فكان ابن باديس يحرض طلبته، ويحثهم على الالتحاق بجامع الزيتونة «للاستزادة من العلم، وعدم الاكتفاء بالمبادئ التعليمية الأولية، التي يجري تلقينها في الكتاتيب والمدارس. ويحمل الآباء على توجيه أبنائهم للدراسة في المعاهد التونسية؛ حرصاً منه على إبقاء جذوة الطموح متوارثة، موصولة من جيل إلى آخر. والزيادة في أعداد المتخرجين، وزرعهم بعد تخرجهم في كل الآفاق الجزائرية، التي حزمت أبسط وسائل التعليم والتثقيف»[2].

وقد استطاع الإمام بدء إرسال دفعات الطلبة إلى الزيتونة، منذ سنة ١٩١٣م، سنة عودته من الحجاز واستقراره بقسنطينة، وانتصابه للتعليم بمساجدها. ثم تلتها سنوياً بعثات إلى الزيتونة.

ويفعل الإمام ذلك بجرأة وشجاعة ومن غير خوف، «على الرغم من قيود السلطة الاستعمارية الفرنسية هناك»[3] في تونس. تنضاف إلى ذلك مشاق ومتاعب السفر الطويل، المرهقة والمكلفة؛ حيث كان الطلبة «يشدون الرحال إلى تونس تارة على الأقدام، وطوراً على المطايا عابرين الحدود، معرضين أنفسهم لكل المخاطر والمجازفات. وبعد قطع المسافات الطويلة، كانوا لا يجدون من يخفف عنهم أعباء الغربة والانتقال، غير المتطوعين القلائل من الطلبة المتقدمين عنهم في السن والرتبة، الذين يبادرون إلى تقديم ما يتوفر لديهم من المعونة»[4].

(١) الشهاب: ج ٨، م ١١، ص: ٤٤٥.
(٢) محمَّد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري، ص: ٤١.
(٣) محمَّد فتحي عثمان: من تاريخ الحركات الإسلامية، ص: ٨٧.
(٤) محمَّد صالح الجابري: المرجع السابق، ص: ١٠٠.

وكانت الدفعات الأولى التي أرسلها الإمام ابن باديس، والتحقت بالزيتونة، تعاني مشاكل جمة بعد وصولها واستقرارها؛ حيث كان أفرادها «مشتتين وغير متمرسين بالأعمال التنظيمية، تنخرهم الحاجة والفاقة، وتستبد بهم الغربة، ويعوزهم قلة الوعي وصلابة القيادة»[1].

مما دفع بالجمعية إلى إرسال الشيخ الإبراهيمي لتفقد أحوالهم، والعمل على حل ـ ما أمكن ـ من مشاكلهم، وذلك سنة ١٩٣٢م. «فاجتمع بالطلبة والعمال، ولاحظ أمارات البلبلة والتردد المستبدة بهم. وأدرك ـ أنئذ ـ أن الأوان قد آن لجمع هذا الشتات، وتحويله إلى قوة مؤثرة ،تلعب دورها المرسوم، في حركة النضال الوطني الجزائري»[2]. وفعلاً نظمت الجمعية صفوفهم، وجمعت شملهم، ووحدت تفرقهم، ووفرت لهم تنظيماً قانونياً ليمارسوا العمل المنظم من خلاله، وتأسست جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين سنة ١٩٣٤م.

ويزورهم فيما بعد الإمام ابن باديس نفسه سنة ١٩٣٧م، فيلقى ترحيباً واسعاً لدى التونسيين والزيتونيين عامة، والطلبة الجزائريين خاصة، ويخطب فيهم ـ بعد تفقد أحوالهم، والإطلاع على وضعيتهم ـ قائلاً: «وأنتم يا أبناء الجزائر! يا أبناء الأمة المنكوبة ! يا أبناء الأمة التي لا علم لها.

ماذا أعدت لكم الجزائر؟ أعدت لكم الجزائر فقرها، وأعدت لكم الجزائر جهلها، وأعدت لكم الجزائر سجونها. فهل أنتم مستعدون؟ . فأجابه الجميع بأنهم مستعدون»[3]. ولم يكن عددهم ـ أنئذ ـ بالهين اليسير، بل كان «يربو على مئتي طالب»[4].

وعندما ينهوا دراستهم بالزيتونة، ويرجعوا إلى الوطن. كان الإمام نفسه يستقبل خريجي الجامع، ويقيم على شرف الدفعة المتخرجة حفلاً تكريمياً؛ يلقي فيه ـ على مسامعهم ـ كلمة توجيهية. فيذكر لنا ـ على سبيل المثال ـ الشيخ علي

---

(١) محمّد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري، ص: ١٠٢.
(٢) محمّد صالح الجابري: المرجع نفسه، ص: ١٠٢.
(٣) الشعب: ع ٨٢٨٠، ص: ٨، ١٦ ـ ٤ ـ ٩٠.
(٤) محمّد صالح الجابري: المرجع السابق، ص: ١٠٢.

مرحوم جزءاً من واحدة منها؛ والتي كان قد ألقاها ابن باديس في الدفعة التي تخرجت في تموز ١٩٣٩م. «إنكم رجعتم إلى وطنكم تحملون شهادات علمية، ومن أجل ذلك كنتم جديرين بهذا التكريم. ولكن لا تظنوا أنكم ستجدون مصاعب الحياة قد أزيلت من طريقكم. يجب أن تعلموا ـ يا أبنائي ـ أنكم مقبلون على خوض معركة شديدة؛ من أجل خدمة أمتكم ووطنكم، بما أحرزتم عليه من علم.

وإذا كان أبناء الشقيقة تونس، يدرسون العلم في الزيتونة ليصبحوا موظفين في بلادهم. فإن فضلكم الوحيد هو أنكم تقرأون العلم للعمل، وليس للوظيفة، وهو فضل كبير. فكونوا عند حسن ظن أمتكم بكم. وكونوا على استعداد لأداء واجبكم نحو وطنكم»[١]. وكان يسميهم ويطلق عليهم «أقمار الجزائر»[٢].

وفعلاً كان للعائدين من الطلبة تأثير كبير في أوساطهم الأسرية والاجتماعية؛ حيث يساهمون بصورة فعالة، في إزالة وساوسهم وتشجيعهم «على ضم أبنائهم إلى هذه البعثات»[٣]. وكانوا يقومون في كل صائفة بواجبات كبيرة؛ تدريساً وتعليماً، تحرمهم حق الراحة في عطلتهم السنوية. «فكانوا يستغلون عطلهم الصيفية؛ لإلقاء دروس عامة في المساجد والكتاتيب، والبيوت الخاصة، وكثيراً ما كانوا يختارون عن طواعية الانتشار في الآفاق البعيدة بعد تخرجهم؛ لأداء الرسالة على الوجه الأكمل، والمساهمة في إحياء المناطق، التي لا يرغب في الالتحاق بها معلموا المدارس الرسمية. واندفع بعضهم أحياناً إلى تأسيس المدارس العربية والقرآنية، متجشماً أعباء التدريس، مكرساً جهده لنشر العربية»[٤].

وكان هذا الاجتهاد المضني منهم لا يذهب سدى، من غير جدوى في وسط الأمة، التي كانت تقدر ـ بحق ـ تضحياتهم، فتقبل عليهم، وتلتف بهم

---

(١) الأصالة: س ٤، ع ٢٤، ص: ١٠٦ ـ١٠٧.

(٢) الشعب: ع ٨٢٨٠، ص: ٨.

(٣) محمّد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري، ص: ٤٢.

(٤) محمّد صالح الجابري: المرجع نفسه، ص: ٤٢ ـ٤٣.

«ويقطعون لذلك المسافات الشاسعة بين القرى والمدن، بدافع الرغبة الجامحة في التعليم»[1].

وهكذا كان لهذه البعثات العلمية، التي كونها الإمام في مدارسه، وأرسلها إلى الزيتونة، دور رسالي وحضاري هام وكبير في الأمة؛ تربية وتدريساً وتعليماً وتوجيهاً، سواء في فترة دراستها وتحصيلها العلمي، أو بعد تخرجها وعودتها إلى الوطن، واستقرارها تفرغاً للعمل الإصلاحي والتعليمي.

٤ ـ إصدار الصحف والمجلات:

ومن الوسائل الهامة والفعالة التي اتخذها الإمام في حركته، ومارس من خلالها وبواسطتها عمله الإصلاحي الجهادي، إنشاء الصحف، وإصدار الجرائد والمجلات؛ لتكون بمثابة مدرسة شعبية متنقلة، وهمزة وصل بينه وبين الأمة بمختلف شرائحها. ينشر فيها ما يسعى إليه من الأهداف، وما يراه ملائماً ومناسباً وضرورياً لحال الشعب الجزائري، من التهذيب والتعليم. ويربيها بواسطتها، ويبلغها مبادئ دعوته الإصلاحية الجهادية. ويدفع بها عن نفسه ما قد يلصقه به المتقولون والمرجفون.

ولذلك دخل عالم الصحافة قائلاً: «باسم الله، ثم باسم الحق والوطن، ندخل عالم الصحافة العظيم، شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه. مستسهلين كل صعب، في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون»[2].

ولم تكن أول ممارسة لابن باديس للعمل الصحفي، بتأسيس المنتقد سنة ١٩٢٥م، بل سبقتها بدايات أولى له. «فقد استهل حياته الصحفية بمقالات متواصلة، كان ينشرها في جريدة النجاح لأول عهدها. ولعل الكثير لا يعرف ذلك، من أن ابن باديس كان يتخفى يومئذ لمقالاته، إمضاء مستعاراً هو (العبسي). مستمداً ذلك الاسم من شهامة وهمة وإقدام، وعنترة بن شداد العبسي»[3].

---

(١) محمَّد صالح الجابري: المرجع نفسه، ص: ٤٣.

(٢) الأصالة: ص ٦، ع ٤٤، ص: ٦٦.

(٣) محمَّد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: ١٣.

وحتى يكون نشاطه الصحفي ناجحاً من بدايته، عمل الإمام على توفير أقصى ما أمكنه من شروط نجاحه واستمراريته، «بواسطة تأمين مطبعة تكون ملكاً له؛ حتى لا تكون طباعة الجريدة عبئاً عليه. ومن هنا سعيه ونجاحه في إنشاء المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة» سنة ١٩٢٥م، والتي كان لها دور أساسي وفعال بتيسيرها «سبيل النشر، الذي هو أخطر الوسائل، في بناء النهضات الوطنية»[(١)].

فكانت أول جريدة أنشأها الإمام، هي المنتقد في ٢ تموز ١٩٢٥م. وكان شعارها (أنها جريدة حرة وطنية، تعمل لسعادة الأمة الجزائرية، بمساعدة فرنسا الديمقراطية). وأنها جريدة سياسية تهذيبية انتقادية، شعارها الحق فوق كل واحد، والوطن قبل كل شيء. تصدرها نخبة من الشبيبة الجزائرية، صبيحة الخميس من كل أسبوع. «وليس من المبالغة بشيء، القول بأن المنتقد، كان أول صحيفة جزائرية طلائعية بالعربية»[(٢)]. وذلك لأن ابن باديس استطاع أن يجمع ويضم إليها «خيرة الأقلام العربية آنئذ؛ مثل: مبارك الميلي، الطيب العقبي، الفرقد، وأبي اليقظان، ومن الشعراء محمَّد العيد، ومحمَّد الهادي السنوسي»[(٣)]، وآخرين من الشباب المسلم، العائد من جامعتي الزيتونة والأزهر، ومعاهد الشام والحجاز، بعد الحرب العالمية الأولى.

وتحملت المنتقد مهمة وفكرة الإصلاح الإسلامي «بتنزيه الإسلام عما أحدثه فيه المبتدعون، وحرفه الجاهلون. وبيانه كما جاء في القرآن العظيم، والسنة المطهرة، وعمل به السلف الصالحون... وتلفت المسلمين الجزائريين إلى حقيقة وضعيتهم بين الأمم، بأنهم أمة لها قوميتها ولغتها، ودينها وتاريخها. فهي بذلك أمة تامة الأممية، لا ينقصها شيء من مقومات الأمم. وأنهم إلى ذلك مرتبطون بأمة عظيمة، ذات تاريخ مجيد، ومدنية راقية، وحكومة منظمة»[(٤)].

---

(١) الأصالة: س ٤، ع ٢٤، ص: ١٠١.

(٢) محمَّد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: ١٣.

(٣) محمَّد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، ص: ٥٤.

(٤) الشهاب: ج ١، م ١١، ص: ١.

ولكن المنتقد لم تعش طويلاً؛ نظراً «للهجتها الحارة، وجملتها الصادقة، ضد الخرافات والبدع، والتي أثارت حفيظة الطرقيين عليها، وساندهم في ذلك بعض رجال الدين الرسميين. فأخذوا يسعون في الوشاية لدى السلطات الفرنسية ضدها، حتى عطلت بأمر حكومي، بعد أن دامت أربعة أشهر أصدرت خلالها ثمانية عشر عدداً. كانت في بنيان النهضة ثمانية عشر سنداً»[١].

ويقول الإمام ـ أيضاً ـ مبيناً طبيعة لهجة جريدته، فاضحاً وكاشفاً سبب سعي السعاة لتعطيلها: «ولكن أثار الذين اعتادوا التملق صدقها. وكبر على الذين تعودوا النفاق صراحتها. وهال الذين اعتادوا الجبن من الرؤساء، أو اعتادوا الجمود من الأتباع صرامتها. فأجمعت هذه الطرائف أمرها، وأخذوا يسعون في الوشاية ضدها، وحمل الحطب للمراجع العليا لحرقها، حتى عطلت»[٢]، بعد صدور العدد الأخير منها، في ٢٩ تشرين الأول ١٩٢٥م. ولم يتعجب الإمام من قرار تعطيل المنتقد عن الصدور، ظلماً وعدواناً؛ لأن الجريدة أهلية، وسور الأهلي قصير.

على إثر تعطيلها مباشرة، أصدر ابن باديس جريدة الشهاب، في ١٢ تشرين الثاني ١٩٢٥م. الجريدة التي يوحي عنوانها «بالطموح إلى إضرام النار في القديم البالي الميت، الذي يريد أن يتحكم في الأحياء، وفي المستقبل. وإلى إنارة الطريق للجيل الصاعد؛ نظراً لما للشهاب من معاني النار والضوء»[٣].

وخوفاً من الإمام على الجريدة من التعطيل، وحذراً منه على ذلك، اصطنع وانتهج ـ مداراة وتمويهاً ـ «في تحريرها نوعاً من المرونة السياسية؛ فكان يلين القول، ويخفف اللهجة مع السلطات الحاكمة في فرنسا، بينما يغلظه ويحتد فيه مع أقطاب الاستعمار؛ من معمرين ومستشرقين ومن لف لفهم، من المتفرنسين، والخونة في الجزائر»[٤]. فكان شعارها في بدايتها وأول أمرها، (مبدؤنا في

---

(١) د. محمّد ناصر: المرجع السابق، ص: ٥٤.
(٢) الشهاب: س ١، ع ١، ص: ١.
(٣) محمّد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائري، ص: ١٢.
(٤) د. محمّد ناصر: الصحف العربية، ص: ٥٨.

الإصلاح الديني والدنيوي: لا يصلح آخر هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها. وأسفل منه (الحق والعدل والمؤاخاة، في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات). وفي أركان الغلاف الأربعة، نجد العبارات التالية: الحرية، العدالة، الأخوة، السلام: وكانت تسعى وتبحث في كل ما يرقي المسلم الجزائري.

وكان ابن باديس يشير بهذا الشعار، إلى المرحلة السياسية، التي كان يطمع فيها الجزائريون، أن تقدر فرنسا مساعداتهم، التي قدموها لها إبان الحرب العالمية الأولى. لكن بعد حصول اليأس منها، بعد رجوع وفد المؤتمر الإسلامي، وابتداء من أيلول سنة ١٩٣٧م، استبدل الإمام الشعار السابق، بشعار (لِنُعوِّل على أنفسنا، ولنتكل على الله).

وبقي الشهاب تابعاً للإمام وخاصاً به، مستقلاً به عن الجمعية بعد تأسيسها؛ مما أتاح له استقلاله «أن ينشر فيه من الآراء والنداءات، ما قد يعارض فيه بعض أعضاء الجمعية أو أغلبيتهم». ومثال ذلك؛ النداء الذي وجهه الإمام لسكان قسنطينة سنة ١٩٣٧م، يدعوهم فيه لمقاطعة الاحتفال المئوي على احتلالها. ولما خافوا من نشره أجابهم قائلاً: «الشهاب ليست مجلة الجمعية، ولا تنطق باسمها. فإذا نشرت النداء بها، فسأحكمه باسمي الشخصي، وليس بوصفي رئيساً للجمعية»[١].

ونظراً لما لاقته من مضايقات، وحصار وأزمة مالية. تحولت ابتداء من شهر شباط سنة ١٩٢٩م إلى شهرية، بعد أن كانت جريدة أسبوعية، ثم نصف شهرية. «ويبدو أنه كان لأبيه، وأخويه فضل في دفع الأذى عن مجلته؛ لمكانتهم المعروفة لدى السلطات المحلية الحاكمة»[٢]. فساندوه مادياً ومعنوياً، وأزاحوا عن طريقه كبرى المعوقات والحواجز.

واستمرت الشهاب في الصدور، إلى أن أوقفها الإمام من تلقاء نفسه، في

---

(١) محمَّد الميلي ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: ١٥.

(٢) د. محمَّد ناصر: الصحف العربية، ص: ٥٨.

أيلول من عام ١٩٣٩م؛ تفادياً ـ منه ـ للرضوخ للسلطة الاستعمارية، التي كانت تسعى لكسب تأييده، ومساندته في الحرب العالمية الثانية، في دخولها إلى جانب الحلفاء ضد ألمانيا.

وقد ساهمت الشهاب في مواصلة الخط الإصلاحي الجهادي، والمنهج الدعوي، والمبدأ السياسي الذي ابتدأته وانتهجته والتزمته المنتقد قبلها، في المحافظة على حقوق الأمة، والدفاع عن مقوماتها. «فكانت لا تتسامح مطلقاً مع أي شخص كان، يحاول المساس بها، أو النيل منها»(١). وكانت لها سمعة طيبة، تعدت حدود الوطن. فمن حيث «المحتوى والعقيدة والاتجاه الإصلاحي والسياسي، تعتبر ثالث مجلة في العالم العربي والإسلامي، بعد العروة الوثقى للسيد جمال الدين الأفغاني ومحمَّد عبده والمنار للسيد رشيد رضا»(٢).

ثم أصدرت الجمعية صحيفة باسم (السنة النبوية المحمدية)، فكانت جريدة أسبوعية، يشرف عليها الإمام ابن باديس، ويرأس تحريرها الأستاذان الطيب العقبي، والسعيد الزاهري. يقول الإمام مبيناً سبب إصدارها، في أنه «لتنشر على الناس ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته العظمى، وسلوكه القويم، وهديه العظيم»(٣)، وبذلك «يكون المسلمون مهتدين بهدي نبيهم، في الأقوال والأفعال، والسير والأحوال، حتى يكونوا للناس، كما كان هو صلى الله عليه وسلم، مثالاً أعلى في الكمال»(٤).

ولذلك جعل شعارها آية وحديثا؛ الآية قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٥). والحديث قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «من رغب عن سنتي فليس مني»(٦).

---

(١) د. تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص: ١٩١.
(٢) د. تركي رابح: المرجع نفسه، ص: ١٩١.
(٣) السنة النبوية: س ١، ع ١، ص: ١.
(٤) السنة النبوية: المرجع نفسه، ص: ٢.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٦) الحديث رواه البخاري.

ونحسب أن الدافع الحقيقي لإبراز هذه الجريدة وإصدارها، هو الوقوف بحزم أمام النشاط المعادي للعلماء، الذي بدأت تطبقه وتمارسه ـ وبدعم الاستعمار ـ جمعية علماء السنة، المنشقة عن جمعية العلماء، منذ أيلول ١٩٣٢م، والتي أصدرت جريدة المعيار في ١٦ كانون الأول ١٩٣٢ م. ثم الإخلاص في ١٩ كانون الأول ١٩٣٢م. وليس أدل على نية حركة ابن باديس هذه؛ من اتخاذها اسماً لها (السنة النبوية)، وهو «تعريض واضح، لمن أطلقوا على أنفسهم علماء السنة. وهم يسيرون في ركاب الاستعمار»[1]، والذين سعوا لديه؛ من أجل إيقافها عن الصدور. «فما كان من رجال السلطة؛ إلا أن أرسلوا شرطتهم، صبيحة أول تموز من سنة ١٩٣٣ لحجز الأعداد الموجودة منها في السوق. وبالتالي توقف صدورها.

بعد توقيفها، تم إصدار جريدة الشريعة المحمدية في ٧ تموز ١٩٣٣من تحت إشراف نفس الهيئة، التي كانت تشرف على إصدار جريدة السنة. ونلمس في افتتاحية عددها الأول، التي كتبها الإمام، نوعاً من التعلق بالجمهورية الفرنسية ـ آنذاك ـ وقد يكون هذا الموقف مناورة سياسية؛ يهدف من ورائها إلى ضرب المتربصين بالجمعية، بعد أن حققوا بعضاً من مراميهم حين صدور قرار منع العلماء من الوعظ والإرشاد في المساجد، في ١٦ شباط ١٩٣٢م، وتعطيل جريدتهم، ولسان حالهم بدون موجب قانوني.

ورغم ذلك صودرت الجريدة في ٢٨ آب ١٩٣٣م، بعد حوالي شهر ونصف فقط من إصدارها. وعلى إثرها صدرت جريدة الصراط السوي الأسبوعية، بتاريخ ١١ أيلول ١٩٣٣م، ولكنها عطلت هي أيضاً، في بداية كانون الثاني ١٩٣٤م.

وهكذا في مدى سنة واحدة فقط، أنشأت حركة الإمام ابن باديس الجهادية، من خلال جمعية العلماء ثلاث جرائد. أوقفتها لها الحكومة تباعاً. ورغم ذلك لم تنثن إرادة العلماء، وعلى رأسهم الإمام ابن باديس في مواصلة

---

(١) د. محمَّد ناصر: الصحف العربية، ص: ١٣١.

إصدار الجرائد، والصحف والمجلات. فبعد تعويض المستشرق «مرانت» بالمستشرق «ميو»، أعادت الجمعية في عهده طلبها الرخصة القانونية لها؛ بإصدار جريدة تكون لسان حالها. فوعدها بالنظر في طلبها وبعد مدة ليست بالقصيرة، أذنت الإدارة الاستعمارية للعلماء، بإصدار جريدة البصائر. بعد أن كانت ـ هيئتهم ـ تستخدم لنشرياتها، مجلة الإمام ابن باديس (الشهاب) فقط.

صدر العدد الأول من البصائر، والتي كانت كأخواتها ـ جريدة أسبوعية ـ في ٢٧ كانون الأول ١٩٣٥م، برئاسة وإدارة الشيخ الطيب العقبي، والسعيد الزاهري، وصاحب الامتياز فيها، الشيخ محمَّد خير الدين.

«وقد عمدت الجريدة إلى خطة ذكية مزدوجة، ظاهرها مسالمة الحكومة الفرنسية، وإظهار الثقة بها؛ لكونها حكومة ديمقراطية، يسيرها رجال ينتمون إلى الجبهة الشعبية. وباطنها عداوة متحكمة وشديدة للموظفين الرسميين، ورجال الطرق والأحزاب، المعادية لجمعية العلماء»[١].

وكان لها انتشار واسع في الداخل والخارج، وبلغت «ما لم تبلغه أية جريدة عربية في الجزائر؛ إذ كانت تُطبع حوالي أربعة آلاف نسخة. وهو رقم قلماً بلغته جريدة أخرى، في تلك الظروف»[٢].

واستمر صدورها حتى قيام الحرب العالمية الثانية. حيث أوقفت الجمعية جميع صحفها، التزاماً منها السكوت وقت الحرب؛ لئلا تنجر إلى مواقف التملق والتخاذل، الخادمة للاستعمار، الذي طلب منها أن تعلن باسمها، وتكتب في صفحاتها، تصريحات ومقالات ضد دول المحور ألمانيا وإيطاليا»[٣]. وكان أمر التعطيل خيراً من نشر الأباطيل على حد تعبير الإبراهيمي. لتعود إلى الصدور بعد الحرب العالمية الثانية، بإشراف وإدارة رئيس الجمعية، الشيخ محمَّد البشير الإبراهيمي.

---

(١) د. محمَّد ناصر: الصحف العربية، ص: ١٩١.

(٢) د. محمَّد ناصر: المرجع نفسه، ص: ١٩٨.

(٣) محمَّد خير الدين: مذكرات، ج ١، ص: ٢٩٩.

ويمكن أن نشير في الأخير، إلى أن هذه المجموعة الكبيرة من الصحف والمجلات، التي أصدرتها حركة الإمام ابن باديس، في مرحلة عملها الدعوي والإصلاحي الجهادي ،الفردي والجماعي، من خلال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قد أدت دوراً هاماً أساسياً وفعالاً ورائداً، في اتساع مساحة عمل الحركة زمانياً ومكانياً، واستطاعت أن توصل الحركة بواسطتها المشروع الإصلاحي الجهادي؛ إلى أبعد نقطة في الوطن، وأبسط إنسان في المجتمع. وأن تكون بحق مدارس متنقلة؛ تنشر مبادئ وأهداف المشروع الإصلاحي، وتحقق في الوقت نفسه تعريفاً بحركة ابن باديس، في أوساط وعموم الأمة. وفي الوقت نفسه تعمل على تبرئة ساحتها، من كل ما يحاك ضدها من مؤامرات، وما يلصق بها من اتهامات؛ زوراً وبهتاناً.

ويمكن اعتبار هذه الصحف من خلال مضامينها، وأساليب معالجاتها، وطبيعة خطابها السياسي الناضج، والدعوي الإصلاحي الراشد. ومن خلال معطيات الزمان والمكان، التي ظهرت وتحركت وعملت فيها. واعتباراً للتحديات الذاتية والموضوعية، التي وقفت عوائقاً، في وجه تحقيق وتبليغ رسالتها. يمكن اعتبارها ـ رغم كل هذا ومعه ـ ووضعها «في مصاف أرقى مجلاتنا»[١] الوطنية والعربية والإسلامية، في العصر الحديث.

٥ ـ استغلال النوادي، وفتحها:

لاتخاذها وسيلة من وسائل الدعوة والإصلاح والجهاد. فكانت حركة ابن باديس تعتبرها «همزة وصل بين المدرسة والمسجد؛ لأن هناك أعداداً هائلة من الشبان الجزائريين، لم تجد الجمعية أية وسيلة لتبليغهم المبادئ الإسلامية، والثقافة العربية إلا فيها»[٢]. كما كانت تعتبر النوادي العربية والإسلامية، رمزاً للوحدة الوطنية والاجتماعية.

ويعد نادي الترقي على رأسها؛ بحكم «أنه أول ناد أنشئ على النظام

(١) من شهادة مسعود علم الندوي، د. فتحي عثمان: من تاريخ الحركات الإسلامية المعاصرة، ص: ٤١.

(٢) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ١٦٣.

الحديث. وكان له من النظام والاتساع وحسن الإدارة، ما جعله يسهم بدور فعال في تاريخ الجزائر الحديث. فقد احتضن الحركة الوطنية منذ ١٩٢٥م؛ حيث عقدت فيه المؤتمرات الهامة، وانبثقت عنه كثير من الأفكار الوطنية، كفكرة جمعية العلماء، والمؤتمر الإسلامي، ومشروع البصائر. وإلى جانب ذلك كان ملتقى السياسيين وجمهور العلماء والمثقفين. وكان مثابة الأدباء والشعراء تلقى فيه الخطب الحماسية والقصائد الرائعة، والأبحاث الهامة في مستواها الشعبي أحياناً، وفي مستواها العلمي أحياناً أخرى»[١]. ولم يكن للجمعية هذا النادي فحسب، بل يذكر الشيخ الإبراهيمي «أنه كان لدى جمعية العلماء وحدها، أكثر من سبعين نادياً، تحمل رسالتها، وتضم أتباعها»[٢]، وتأسست في الوطن كله باسم الشباب، حتى أنك لا تجد شاباً في الغالب في ذلك الوقت، إلا وهو منخرط فيها أو في مدارس الجمعية.

وكان الشباب يجد في نوادي الجمعية «مختلف أشكال الثقافة الدينية والاجتماعية والرياضية، عن طريق المحاضرات والدروس، وما يعقد فيها من ندوات وتجمعات ومؤتمرات»[٣]، تدعو فيها الجمعية الشباب خاصة، والأمة عامة، إلى فهم إسلامه والاعتصام به، وإتقان لغته والمحافظة عليها، والعيش من أجل الجزائر وخدمتها. ولجأ العلماء إلى الاستفادة من النوادي القائمة، وفتح أخرى جديدة، لما رأوا «أن أكثر طبقات الأمة وأهمها من الشباب، لا تستطيع أن تلقاها في المساجد، حتى لو كانت مباحة. فشرعت في فتح الأندية بكل مدينة، وبكل قرية مستجيبة للدعوة، يجتمع فيها الشباب وغير الشباب، يسمعون العلم، ويُذكَّرون بالحياة والحرية»[٤]. واستطاعت هذه النوادي بنشاطاتها المكثفة والفعالة، أن تؤدي دوراً فاق بكثير، ما أدته المدارس والمساجد، التي كان ينشط فيها العلماء، كما يؤكد ذلك الفضيل الورتلاني[٥].

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: ١٢٣.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص: ١٢٤.

(٣) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ١٦٣.

(٤) الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، ص: ١٤٥.

(٥) انظر، الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، ص: ١٩٨.

وكانت تعتمد في تمويلها - حتى تتمكن من داء رسالتها، وتحقيق أهدافها المنوطة بها؛ الثقافية والتربوية - «على الاشتراكات، التي يدفعها أعضاؤها من ناحية، وعلى أرباح بيع المشروبات لروادها من ناحية أخرى، ومن هذين الموردين الماليين، كانت الجمعية تنفق على أوجه أعمالها؛ الثقافية والاجتماعية»[1].

٦ - حضور التجمعات والمؤتمرات العامة، والدعوة إليها:

لم يكن ابن باديس يترك فرصة أي تجمع أو اجتماع عام، تجتمع فيه الناس وتلتقي، إلا ويحرص على شهوده وحضوره، إما مفرداً باسمه الشخصي، أو باسم الجمعية، أو مع ما يتسير من إخوانه العلماء. وذلك إدراكاً منه لأهمية هذه التجمعات؛ في أنها تجمع الناس الأباعد والمتفرقين، وتكون بالتالي فرصة سانحة للإمام، للاحتكاك بالأمة مباشرة، ولقائها مجتمعة لا متفرقة أفراداً ووحداناً. فكان يستغل حضوره فيها في الدعوة إلى الحركة وتبليغ رسالتها، وتعريف الناس بأهدافها ومقاصدها، وترغيبهم في الانضمام تحت لوائها، وحمل دعوتها. ويزيل - في الوقت نفسه - بشهوده لها، ما يلصق بها - زوراً وبهتاناً - من اتهامات وشبهات تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين.

ومن أهم التجمعات العامة التي شهدها الإمام، تجمع المؤتمر الإسلامي في حزيران ١٩٣٦م بالجزائر العاصمة، والذي كان أساساً - في فكرته - من اقتراحه هو؛ حيث دعا ابن باديس المكتب الدائم للجمعية، لحضور اجتماع طارئ في أواخر سنة ١٩٣٥م، وفيه قال الشيخ لأعضاء المكتب - والذي كان الشيخ محمَّد خير الدين، أحد المدعوين لحضوره - «نظراً لتدهور الحالة العامة في الجزائر، والبلبلة السياسية السائدة، واختلاف الأحزاب والهيئات الوطنية وتشتتها. رأيت أن أدعو إلى مؤتمر إسلامي جزائري عام، يجمع الشمل ويوحد الصف، ويحدد الهدف؛ لأن المرجع في أمور الأمة يعود إلى الأمة، والواسطة لذلك هي المؤتمرات والندوات، التي تفحص فيها الأمور، وتحصحص النتائج.

(١) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ١٦٤.

والإجماع أصل من أصول تشريعنا الإسلامي، فلماذا لا نعمل به في السياسة؟ . لهذا جمعتكم، لأستطلع رأيكم، وأطلب منكم الموافقة، على توجيه الدعوة باسم رئيس جمعية العلماء، إلى مثقفي العربية والفرنسية، والنواب والأحزاب، وكل من يهمه أمر البلاد والعباد، من الطوائف والمنظمات الوطنية؛ لعقد هذا المؤتمر في العاصمة؛ لمناقشة الحالة الراهنة، وتدارس أبعادها، ونتائجها السلبية والإيجابية»[1].

فوافقه الحاضرون، ونشرت الدعوة في جريدة الدفاع الفرنسية، (LA DEFENSE) التي كان يديرها السيد الأمين العمودي. وانعقد المؤتمر بتاريخ ٥ حزيران ١٩٣٦م، «وضم أكثر الفئات المتواجدة على الساحة آنذاك. ولذلك اعتبر المؤتمر أول تجمع من نوعه في الجزائر منذ الاحتلال؛ إذ جمع أكبر حشد سياسي عرفته البلاد، وإن كانت نوايا المشتركين متباينة الاتجاهات السياسية»[2].

وكان فرصة تاريخية وهامة لأن يحضره ابن باديس، برفقة مجموعة من إخوانه العلماء منهم؛ الإبراهيمي، والعقبي، ومحمَّد خير الدين. . .وتقدم فيه بمطالب باسم الجمعية؛ تخص المطالبة بحرية تعليم اللغة العربية في المدارس الحرة، وتسليم المساجد للأمة؛ للإشراف عليها وتسييرها تسييراً ذاتياً حراً. وحرية التعليم الديني، وبناء كلية لتخريج الرجال الذين يقومون به. وإعادة القضاء الإسلامي إلى ما كان عليه، من مكانة محترمة وفعالة قبل دخول الاستعمار. ومطالب أخرى قدمها الإمام باسمه الشخصي؛ نظراً لخطورتها ولطابعها السياسي الصرف، وحتى لا يلحق أضراراً بمؤسسة الجمعية، فيلحق ضرر هذه المطالب شخصه ولا يمسها.

وتمثلت مطالبه في «إلغاء المعاملات الخاصة بالجزائريين (قوانين الاندجينا)، والمجالس العسكرية، وأعطيات الجندية، وتسوية نواب الجزائريين بنواب الفرنسيين في جميع المجالس، وتوحيد النيابة البرلمانية بكلا المجلسين؛

---

(١) محمَّد خير الدين: مذكرات، ص: ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٢) محمَّد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة، ص: ١٣٨.

(مجلس الجزائريين، ومجلس النواب المعمرين). والمساواة في الحقوق والواجبات»[1].

وقد كان لحضور وفد العلماء برئاسة الإمام ابن باديس، دور كبير في المؤتمر تنظيماً وتسييراً، ونجاحاً في لف الأمة وجمعها حوله. وكأنه لم يلق شرعية وقبولاً لديها، إلا عندما كان العلماء والإمام ـ خاصة ـ على رأسه. وبمشاركتهم فيه، استطاعت حركة الإمام الجماعية، ممثلة في مؤسسة جمعية العلماء، أن تبدد «الاعتقاد السائد لدى خصومها ومن يجهل حقيقتها، بأن مهمتها لا تخرج عن مسائل الصلاة، ونواقض الوضوء»[2].

واكتسى هذا المؤتمر أهمية بالغة وكبرى؛ بحكم أنه «كان يمثل أهم مرحلة في تطور الشعب الجزائري السياسي، بعد الحرب العالمية الأولى. كما كان يمثل بالنسبة للاستعمار، أخطر الظروف التي عرفها في سياسته الجزائرية منذ ١٨٣٠م»[3]. حتى أن الإبراهيمي أطلق عليه اسم (يوم الجزائر المشهود)؛ الذي استعادت فيه نفسها وحياتها، وأدركت وجودها وقيمتها، وتبينت فيه طريقها الصحيح، الموصل إلى تحقيق أهدافها وآمالها.

ومن الاجتماعات الهامة التي عمل ابن باديس على تحقيقها، والدعوة إلى حضورها، الاجتماع بالحجيج توديعاً واستقبالاً. فكان «يقترح عليهم عند العودة، أن يتجمعوا في الجامع الكبير بقسنطينة؛ لاستقبال من يأتون للسلام عليهم. وبذلك يوفر لهم من الأموال، ما يبذلونه في إقامة الولائم والاحتفالات. كما يوفر لهم الراحة. . .وكما هي العادة يستغل الإمام ابن باديس مثل هذه الفرص، للحديث إلى المسلمين، ونشر مبادئ الإصلاح»[4]، وتلاوة القرآن الكريم، وإلقاء الخطب المتضمنة لما يناسب المقام، وما يتم ويتحقق به صلاح أمر الأمة في دينها ولغتها ودنياها. ويحرض المسلمين على الانكفاف عن الذهاب إلى

---

(١) الشهاب: ملحق، ج ٤، م ١٢، ص: ٢١٠ ـ٢١٢.

(٢) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ١٦٩.

(٣) مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص: ٦٤ ـ٦٥.

(٤) محمَّد خير الدين: مذكرات، ص: ٣٥٤.

الحجاج في بيوتهم، إلا من كان من أقاربهم؛ لما في ذهابهم من التثقيل عليهم، والكلفة لأهاليهم.

٧ ـ الدعوة الشعبية والاتصال بالجماهير:

في إقامته وتدريسه، وفي أسفاره ورحلاته وتنقلاته. كان ابن باديس لا يعرف ولا يؤمن ـ إطلاقاً ـ بالانعزال عن الشعب بكل فئاته وشرائحه. فكان ـ بحق ـ «حركياً شعبياً في دعوته الإصلاحية»[١]، التي كان يؤمن إيماناً مطلقاً، بأنها من الأمة وبالأمة وإلى الأمة، وأن حركته كلها هي الأمة، والأمة هي حركته؛ فإذا تكلم فهو يتكلم باسمها، وإذا دعا فإنما يدعوها هي؛ لأنه اعتبر حياته ووجوده وعيشه، وطاقاته ومواهبه ـ التي حباه الله بها ـ مسخرة جميعها، في سبيل غايتين شريفتين اثنتين وهما: الإسلام والجزائر. و«يؤثر العمل بين الجماهير الأمية الساذجة ويحدثهم بما يفهمون في المساجد والمجامع. وبينما يخاطب القراء المتعلمين بقلمه في الصحافة، ينشئ المدارس متطلعاً إلى جيل قادم، ومؤمن مستنير في المستقبل»[٢].

ويحرض إخوانه العلماء العاملين معه في خط حركته، ومؤسسة الجمعية، وكذا تلاميذه والطلبة العائدين من الحجاز والزيتونة؛ إما نهائياً أو مؤقتاً في العطل الصيفية، على النزول إلى شارع الأمة، ومخالطتها والالتصاق بها، والتعرف إليها وإلى أحوالها ومشاكلها وهمومها؛ حتى أنك تجد الشيخ الطيب العقبي في دروسه اليومية، «وسط حلقة أكثرها من عمال الميناء، ومن صغار صيادي السمك»[٣].

وكانت أكبر وسيلة وأهم طريقة للإمام في الدعوة الشعبية، والاتصال بالناس، والاحتكاك بهم ومخالطتهم، رحلاته وجولاته وخرجاته الدعوية؛ إذ «كان يخرج في الأعياد والمواسم؛ كخروجه مثلاً لتوديع حجاج بيت الله كل سنة، في آخر ميناء جزائري ـ عنابة ـ واستقبالهم به عند عودتهم، يعظهم

(١) د. فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس، ص: ٩٩.
(٢) د. فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس، ص: ٩٩.
(٣) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص: ٢٥٦.

ويرشدهم ويزودهم بنصائحه الغالية. كما يخرج في العطل الصيفية؛ للاتصال بالجماهير الشعبية، وبعض الطبقات الجماهرية، اتصالاً مباشراً في شتى نواحي البلاد»[١].

وكثيراً ما كان يصطحب معه في رحلاته بعضاً من إخوانه العلماء، أو أبنائه الطلبة؛ لإعانته في إلقاء دروس الوعظ والإرشاد، «وإلقاء الخطب والمحاضرات الدينية والسياسية والاجتماعية، في النوادي التي أنشأها الشعب لمثل هذه الأغراض، بتوجه منه ومن إخوانه. فإن لم توجد مساجد أو نواد حرة، ففي المحلات الخاصة والعامة، التي يملكها الشعب»[٢].

هذه الرحلات والجولات الاستطلاعية والعملية، كانت مكثفة وبنسبة كبيرة؛ حتى أنه ـ مع الخارجين معه ـ «خلال سنة واحدة، قاموا بزيارة أكثر من خمسين مدينة»[٣]. ونجد ابن باديس بذلك قد زار معظم المدن الجزائرية؛ شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً[٤]. ويحدثنا عن البرنامج الذي كان يقوم به ـ ويلتزمه ـ عند حلوله، وزيارته أي مدينة فيقول: «كنت أزور في الأكثر قبل كل شيء المسجد؛ لأن البداءة به هي السنة، ولألفت نظر الأمة إلى حرمة المسجد وفضله، وأنه هو الأحق بان يقصد عند الملمات... ثم أزور ممثل الحكومة في البلدة؛ من بريفي[٥] أو سوبريفي[٦] أو متصرف، ثم أزور ممثل الأمة الفرنسية والعربية؛ وهو المير إذا كان بالبلدة، ثم ألقي الدرس العام في المسجد»[٧].

وكان حديثه إلى الناس في مجالسه، التي تجمعه بهم «يدور على جمعية

---

(١) محمَّد الصالح رمضان: ابن باديس القائد الرائد، القبس، س ٤ن ع ٢، ص: ٣١.
(٢) محمَّد الصالح رمضان: المرجع نفسه، ص: ٣١.
(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٨٨.
(٤) انظر المدن التي زارها الإمام عند: د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٤، ص: ٢٩٧ ـ ٣١٧.
(٥) كلمة فرنسية يقصد بها الوالي العام.
(٦) كلمة فرنسية يقصد بها نائب الوالي العام.
(٧) الشهاب: ج ٨، م ٨، ص: ٤٠٢.

العلماء ومقاصدها، ومنافع الأمة منها. والتنويه بفضل الحكومة بالإذن بتأسيسها، مع ما يتخلل ذلك من تذكير بالله، وتنبيه على مصالح الدنيا والآخرة، والتحريض على التآخي والتآزر وحسن الجوار والمعاملة مع جميع الأجناس المتساكنة في هذا الوطن. وكنا نرى في جميع المجالس إقبالاً وقبولاً، مما لا شك معه في بقاء الأثر الطيب في القلوب[1].

وكان الإمام يلخص لهم في دروسه ومحاضراته وخطبه، الجمعية في ثلاث كلمات جامعة هي: تعلموا - تحابوا - تسامحوا، وأنها «ليست ضداً لأحد، لا للزوايا ولا لغيرها. وأن غرضها هو نشر العلم والفضيلة، بين الجميع»[2].

واستطاع ابن باديس - أيضاً - برحلاته وزياراته الميدانية، ومن خلال الاتصال والاحتكاك بالقاعدة الشعبية الجماهيرية العريضة ،أن يبطل ويفند فعلياً وعملياً وميدانياً وبشكل فعال، كل ما قيل وأشيع من تهم وأراجيف حول الجمعية، وما ألصق من تهم وشائعات باطلة - عمداً وإيعازاً وجهلاً - به وبإخوانه العلماء. فكان ينشر مضمون رحلاته على صفحات صحفه ومجلاته؛ لتعلم الحكومة وتكون على بينة من أمره. فيوضح الرؤيا، ويزيل عن الجمعية وعن نفسه وعمل حركته كل التباس، وكل غشاوة.

وعرَّفته رحلاته هذه وتنقلاته «على ما في قلوب عامة المسلمين الجزائريين، من تعظيم للعلم، وانقياد لأهله، إذا ذكَّروهم بحكمة وإخلاص»[3].

كما اعتمدت الجمعية في عملها الإصلاحي الجهادي، على فروعها التي فتحتها في مختلف جهات الوطن، والتي كانت مع مدارسها «قواعد شعبية قائمة للتوعية والنضال السياسي، كما هي قائمة أصلاً للدعوة، والإصلاح الديني الشامل»[4]، وإرسال وفودها - علماء وأساتذة وطلبة - «تجوب البلاد شرقاً

(١) الشهاب: ج ١١، م ٧، ص: ٦٦٣.
(٢) الشهاب: ج ٨، م ٨، ص: ٤٠٢.
(٣) الشهاب: ج ٧، م ٥، ص: ٣٧.
(٤) د. فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس، ص: ١٢٨.

وغرباً، تلتقي بمختلف طوائف الشعب، فتزور المساجد والمؤسسات التعليمية والفرق الكشفية. وتنشئ الشعب والفروع التي تمثل الجمعية في المدن والقرى. وتستجلب إلى دعوتها طوائف الشعب وأفراده، من الذين تتوسم فيهم القدرة على العمل، من أجل نصرة الدين ورفعة البلاد. إلى جانب ما تقوم به من وعظ وإرشاد، ودعوة إلى الخير وإصلاح ذات البين، وغير ذلك»[1].

٨ ـ وسائل أخرى مختلفة:

وأخيراً نشير إلى أن حركة الإمام ابن باديس الجهادية، اعتمدت وسائل أخرى لخدمة أهدافها، وتبليغ رسالتها وأداء وظائفها؛ من ذلك وسيلة الاحتجاجات الشعبية والرسمية، الفردية والجماعية، وبواسطة الوفود والرسائل والبرقيات الاحتجاجية، على كل القرارات التعسفية، التي أصدرتها الإدارة الاستعمارية في حق الجمعية ورجالها وطلبتها، ومؤسساتها الدعوية ونشاطاتها الإصلاحية؛ لمحاصرتها وخلق العوائق لها، لتضييق الخناق عليها، وللوصول إلى تعطيلها، أو شلها عن العمل كلياً أو جزئياً[2].

ومن وسائلها أيضاً التي سلكتها، في الدعوة «تكوين الجمعيات الخيرية، والفرق الكشفية، والرياضية والفنية»[3]، والجمعيات المهنية؛ كجمعية التجار المسلمين، التي أسستها الحركة بقسنطينة، والجمعية الاقتصادية؛ وذلك لتحقيق الاستقلال الاقتصادي للشعب الجزائري، وإنعاش مصادر رزقه وعيشه، حتى لا يبقى الاستعمار يتحكم ـ توجيهاً وتسييراً ـ فيها.

وكان ابن باديس يدعو ـ مشجعاً ومحرضاً ـ كل جماعة يريدون تأسيس جمعية، أو فتح مدرسة لتعليم الإسلام والعربية، أن يكاتبوه ويعرفوه؛ ليرشدهم إلى الوجوه القانونية، اللازمة لذلك[4].

---

(١) محمّد خير الدين: مذكرات، ص: ٢٧٠.

(٢) للتفصيل أكثر انظر عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ١٦٧ ـ١٨١.

(٣) الأصالة: س ٤، ع ٢٤، ص: ١٠٠.

(٤) البصائر: س ١، ع ١، ص: ١.

ولم ينحصر نشاط حركة الإمام ابن باديس الجهادية، داخل الوطن فحسب، بل امتد إلى فرنسا؛ لاستيعاب العمال المهاجرين؛ من خلال «تأسيس نوادي تربوية، ترمي إلى إنقاذ الإخوان، الذين هم بصدد الانغماس في الرذيلة وفي الشارع، ومدهم بتربية الفكر، حسب التعاليم الدينية»[١]. والتي تضاعف عددها مع الزمن حتى وصل إلى ثمانية نواد[٢]، اتسعت لآلاف الأشخاص وضمتهم إليها. علاوة على فتح المدارس لتعليم الصغار والكبار.

وتخصص حركة الإمام بعثات علمية مكونة من أساتذة لزيارة وتفقد أحوال العمال الجزائريين هناك، ودراسة مشاكلهم، والإشراف على استيعابهم تربية وتعليماً لهم ولأبنائهم، عبر مؤسسات الحركة التي أنشأتها وفتحتها. وكان على رأس الذين خصصوا لذلك الشيخان: الفضيل الورتلاني، وسعيد الصلاحي[٣].

هذا عن الوسائل المختلفة، التي اتخذها ابن باديس في جهاده ضد الاستعمار الفرنسي. أما عن الأساليب التي استعملها، والتي رأى أنه من ضرورة المراحل التي مر بها جهاده، ومن متطلبات طبيعة الصراع الذي كان يخوضه ضد إدارة الاحتلال أن يأخذ بها. فيمكننا الإشارة إلى جملة من الأساليب، نجدها واضحة وماثلة أمامنا، من خلال تتبع مسار جهاده. وعلى رأسها أسلوب المرونة السياسية وبه نبدأ:

ثانياً: الأساليب

١ ـ أسلوب المرونة السياسية:

إن أظهر أسلوب نجده ماثلاً بوضوح في حركة ابن باديس الجهادية ضد الاستعمار الفرنسي، هو عمله الواعي، بأسلوب المرونة السياسية أو المداراة السياسية ،على حد تعبير فقهاء السياسة الشرعية المسلمين المتقدمين[٤].

---

(١) شارل أندري جوليان: افريقيا الشمالية تسير، ص: ١٣٦.

(٢) محمّد الطاهر فصلاء: الإمام الرائد الإبراهيمي، ص: ١٤٩.

(٣) للتفصيل أكثر انظر عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ٣٣٧ ـ٣٤٤.

(٤) يذكر ابن الأزرق الأندلسي نقلاً عن العلماء تفريقهم بين المداراة والمداهنة قولهم: =

فلقد كان ابن باديس حريصاً جد الحرص على عدم إظهار العداء المباشر والعلني والسافر، في كتاباته وخطاباته ومواقفه السياسية للاستعمار الفرنسي وإدارته. واكتفى من ذلك بالتظاهر له بالليونة والمرونة فيها؛ فأبعد نفسه عن ممارسة كل عمل سياسي بالمعنى الحزبي المعروف، والذي من شأنه أن يضر ضرراً مباشراً وعنيفاً عمله الإصلاحي الجهادي، خصوصاً في مرحلته الأولى التكوينية الجنينية.

فابتعد ـ سواء في مرحلة الجهاد الفردي أو الجماعي ـ عن طبيعة وشكل العمل الحزبي السياسي، أو صَبْغ نشاطه وحركته بصبغة سياسية ظاهرة؛ لأن «العمل السياسي الواضح يجعل نشاط الجمعية، معرضاً لبطش الفرنسيين في المهد، قبل أن يشتد ساعد الحركة. فتموت قبل أن تثمر ثمارها»[1]. ويكون

= «المداراة سنة، والمداهنة معصية، قال ابن القيم الجوزية: والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه؛ حتى يستخرج منه الحق أو يرده إليه أو عن الباطل. والمداهن يتلطف به؛ ليقره على باطله ويتركه على هواه. قال: فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق». ويورد ابن الأزرق بعد ذلك شواهد دالة على جواز المداراة انظر: أبو عبد الله محمَّد بن الأزرق الأندلسي: بدائع السلك وطبائع الملك، ج ٢، ص: ٥٤٥ ـ٥٤٦.

كما يشير العلامة شهاب الدين أبو العباس الصنهاجي المشهور بالقرافي في الفرق الرابع والستين بعد المائتين إلى الفرق بين قاعدة المداهنة المحرمة، وبين قاعدة المداهنة التي لا تحرم، وقد تجب. فيقول: «اعلم أن معنى المداهنة معاملة الناس بما يحبون من القول. ومنه قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾؛ أي هم يودون لو أثنيت على أحوالهم وعباداتهم، ويقولون لك مثل ذلك، فهذه مداهنة حرام. وكذلك كل من يشكر ظالماً على ظلمه أو مبتدعاً على بدعته أو مبطلاً على إبطاله وباطله، فهذه مداهنة حرام؛ لأن ذلك وسيلة لتكثير ذلك الظلم والبطل لمن أهله وروي عن أبي موسى الأشعري أنه كان يقول: إنا لنُكشّر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم. يريد الظلمة والفسقة الذين يُتقى شرهم ويُتبسم في وجوههم ويُشكرون بالكلمات الحقة، فإن ما من أحد إلا وفيه صفة تشكر، ولو كان من أنجس الناس. فيقال له ذلك استكفاء لشره. فهذا قد يكون مباحاً، وقد يكون واجباً إن كان يتوصل به القائل لدفع ظلم محرم، أو محرمات لا تندفع إلا بذلك القول، ويكون الحال يقتضي ذلك. وقد يكون مندوباً، إن كان وسيلة لمندوب أو مندوبات. وقد يكون مكروهاً إن كان عن ضعف لا ضرورة تتقاضاه، بل خور في الطبع، أو يكون وسيلة للوقوع في مكروه. «انظر العلامة شهاب الدين أبا العباس الصنهاجي الشهير بالقرافي: الفروق، ج ٤، ص: ٢٣٦.

(١) محمَّد خير الدين: مذكرات، ص: ٣٠٠.

فرصة قوية وسانحة يتيحها ابن باديس ـ وهو في غنى عنها ـ لإدارة الاحتلال؛ لتجد ذريعة أمام الرأي العام الداخلي فتتذرع بذلك، وتتدخل بالتضييق عليه، أو منعه من ممارسة نشاطاته.

ونص ابن باديس ـ أكثر من مرة، وفي أكثر من خطاب ـ على براءة الجمعية من كل صبغة سياسية ظاهرية وعلنية، وعدم استعدادها للخوض في مسائل السياسة المعروفة. فيقول: «إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد صرحت في ظروف وفرص مختلفة ـ ولا زالت تصرح وتؤكد ـ أنها بريئة من كل صبغة سياسية، وأن خطتها وغاياتها وأغراضها التي لم تحد ـ ولن تحيد عنها قط ـ هي دينية علمية تهذيبية لا غير. كما تصرح وتؤكد لكم ـ يقصد جناب الوالي العام ـ من جديد، بأنها مستقلة عن كل الطوائف، وكل الأحزاب السياسية وغيرها؛ سواء في ذلك الداخلية منها والخارجية. وهي جمعية جزائرية إسلامية، تعمل للأمة الجزائرية الإسلامية، في دائرة الديانة الإسلامية، والقوانين الفرنسوية»[1].

وفي الضبط المحكم المدروس لنصوص مواد القانون الأساسي لجمعية العلماء، أكد ابن باديس، ومن أسسوا معه، الجمعية على أنه «لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال، أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية»[2].

وهذه التأكيدات، والتحفظات الظاهرية والشديدة من ابن باديس وإخوانه العلماء، من عدم الظهور بالمظهر السياسي العلني، أو الاصطباغ بالصبغة السياسية الحرفية ،لم تكن عن قصور وعجز عن اقتحام عالم السياسة، والضرب فيه بسهم نافذ، والفوز فيه بحظ وافر. وعلة ذلك ـ كما يوضحها ابن باديس أننا ـ «لو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهراً، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحيتنا، ولقُدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وأن نبلغ من نفوسنا إلى أقصى غايات التأثير عليها»[3]؛ لأن طبيعة العمل السياسي الحزبي المطالبة بالحقوق،

---

(١) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٤٣٢.

(٢) جمعية العلماء: القانون الأساسي ملحق سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص: ٥ ـ ٦.

(٣) د. عمار الطالبي: المرجع السابق، ص: ٢٩٥.

والنضال من أجل نيلها، وهو أسهل من طبيعة العمل الإصلاحي الجهادي، الذي يقوم أساساً على أداء الواجبات وتربية الأمة على القيام بها، للحصول على الحقوق، ابتداء بأبسط الواجبات اليومية، خصوصاً عندما تكون الأمة تعيش مرحلة الارتخاء العام؛ التي تجعلها تزهد في أبسط الواجبات الاجتماعية، والدينية والأخلاقية وتضييعها.

ويشرح ابن باديس هذا، فيقول: «فإنا مما نعلمه، ولا يخفى على غيرنا، أن القائد الذي يقول للأمة:«إنك مظلومة في حقوقك، وإني أريد إيصالك إليها»، يجد منها ما لا يجد من يقول لها:(إنك ضالة عن أصول دينك، وإنني أريد هدايتك). فذلك تلبيه كلها، وهذا يقاومه معظمها أو شطرها. وهذا كله نعلمه. ولكننا اخترنا ما اخترنا...»[1].

وكان الجهاد العلمي التربوي الإصلاحي، هو المعتمد في خطة ابن باديس الجهادية التغييرية، على حساب الجهاد السياسي الحزبي المعروف. وكان الاختيار ـ بحسب طبيعة المرحلة ومقتضياتها ـ أحسن وأنسب. «فإننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها، عن علم وبصيرة، وتمسكاً بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا، من النصح والإرشاد، وبث الخير والثبات على وجه واحد، والسير في خط مستقيم»[2].

ورغم هذا الامتناع الواعي والمباشر عن السياسة، فإننا نجد ابن باديس بحكم تكوينه العلمي العميق، وفذية تفكيره الشرعي والواقعي، «يوقن باعتباره عالماً بالإسلام، وداعية إلى الإصلاح، أنه يستطيع أن يدعو إلى القضايا السياسية الكبرى، وفي مقدمتها الحفاظ على الشخصية الجزائرية الإسلامية العربية، باسم الدين. فهدايته الإلهية شاملة، وسعت جوانب الحياة الإنسانية جميعاً. ويعرف أن لحرمة الدين ودعوته، ما ليس لحلبة السياسة وجولاتها»[3].

---

(١) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٢٩٥.
(٢) د. عمار الطالبي: المرجع نفسه، ص: ٢٩٥.
(٣) د. محمَّد فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة، ص: ١٣٠.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن ابن باديس، ومن خلال معرفته ودراسته الشاملة والدقيقة للمجتمع الجزائري، والمرحلة الخطيرة التي كان يمر بها آنذاك، ولاستيعابه الجيد لمسار الحركة الوطنية، وجهودها المختلفة ونتائجها، تيقن «أن المواجهة العسكرية للمستعمر، وأركان إدارته وعساكره وأساطيله وآلياته، ليست ممكنة يومئذ، بل كانت في حكم المستحيل. ومن خلال معرفته بروح العصر، وبما كانت تتبعه الإدارة الاستعمارية، من تغيير خصائص الشعب الجزائري المسلم، عن طريق التربية والتعليم الحديثين. لجأ إلى مخطط ذكي؛ لنشر التعليم العربي والإسلامي. . .فيشعرهم بهويتهم وخصائص أمتهم، ويضعهم على خط المواجهة التاريخية المسلمة ضد المستعمر الفرنسي»[١].

كما أن ابن باديس الفقيه الأصولي، رأى أن التدرج والمرحلية في طبيعة العمل، ومساره وأساليبه فريضة شرعية، وضرورة منهجية، توجبها معطيات الشعب الجزائري، وخصائصه النفسية والاجتماعية، والمرحلة التي هو يعيشها ويمر بها. وكذا طبيعة الاستعمار الفرنسي وخصائصه؛ التي تقوم أساساً على إذابة المستعمرات الفرنسية حضارياً، وإدماجها كلياً في حضارته. بالإضافة إلى معطيات محصلة جهاد الشعب الجزائري؛ على الأصعدة العسكرية والسياسية والثقافية، الفردية والجماعية البطولية، الذي قام به منذ أن وطئت جنود الاستعمار أرض الجزائر، إلى غاية مطلع عشرينيات القرن العشرين الميلادي.

فكانت كل هذه المعطيات والحقائق، والأوضاع والأحوال والظروف «تقتضي الرجوع في الإصلاح إلى السلف أدراجاً؛ إذ لم يكن القيام بأي عمل في النظام السياسي أو الاجتماعي، ممكناً قبل تحرير الضمائر. وكل مذهب الإصلاح الجزائري الذي تجده في ابن باديس، كان لا بد أن يصدر عن هذه الظروف، أو عن هذه المقتضيات الخاصة»[٢]. وعزف ابن باديس عن الحزبية السياسية، «ولم يشغل نفسه بالعمل السياسي بمعناه الساذج؛ الذي يستهلك الطاقات في سب

---

(١) د. محسن عبد الحميد: تجديد الفكر الإسلامي، ص: ٩٦.

(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره نقلاً عن مالك بن نبي، ج ١، ص: ١١.

وشتم، وخطابات حماسية، توهم أصحابها بالقيام بالواجب، وقرب انتصار القوم على أعدائهم. اتجه إلى البناء الداخلي، وشعاره الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

وحتى يتفرغ الإمام لهذا العمل الحضاري المنهجي الواعي، ويتقي ـ في الوقت نفسه ـ شرور الاحتلال الفرنسي، وإدارته وأجناده. كان في بعض خطاباته ومقالاته ـ خصوصاً إلى ما قبل ١٩٣٦م تاريخ انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري، يصرح بعبارات يفهم منها ـ ظاهرياً ـ أن ابن باديس كان يداهن فرنسا، ويظهر لها الود واللين؛ من ذلك قوله «إن الأمة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا»[2]، «وأن الأمة الجزائرية أمة ضعيفة ومتأخرة، فترى من ضرورتها الحيوية، أن تكون في كنف أمة قوية عادلة متمدنة؛ لترقيها في سلم المدنية والعمران. وترى هذا فرنسا التي ربطتها بها روابط المصلحة والوداد»[3]. «والشعب الجزائري المرتبط بفرنسا»[4]. و«أن سيكون للجزائر الفرنسية جمعيات وصحف»[5]. و «أبناء الجزائر الفرنسية»[6]. و «حافظ على مبادئك السياسية ـ يخاطب الشعب الجزائري ـ ولا سياسة لك إلا سياسية الارتباط بفرنسا، والقيام بالواجبات اللازمة لجميع أبنائها، والسعي لنيل جميع حقوقهم. فتمسك بفرنسا العدالة والأخوة والمساواة، فإن مستقبلك مرتبط بها»[7].

فهذه الأقوال ـ وغيرها مما لم نذكره ـ ومما هو على شاكلتها من حيث المضمون، والتي نجدها ـ خصوصاً ـ في جرائد المنتقد، الصراط السوي، الشريعة، السنة، والشهاب إلى ما قبل سنة ١٩٣٦م، أي في المرحلة الجنينية من عمر جهاد ابن باديس للاحتلال الفرنسي، صدرت عنه بأسلوب المرونة

---

(١) صلاح الدين الجورشي: تجربة في الإصلاح، ص: ٢٢.
(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٢٧٨.
(٣) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٢٧٩.
(٤) د. عمار الطالبي: المرجع نفسه، ص: ٢٨٥.
(٥) د. عمار الطالبي: المرجع نفسه، ص:٢٨٤.
(٦) د. عمار الطالبي: المرجع نفسه، ص:٢٨٤.
(٧) د. عمار الطالبي: المرجع نفسه، ص:١٧٩.

السياسية، وهو أسلوب «دبلوماسي بارع يتحلى بمرونة سياسية ممتازة، فهو لا يجابه الخصم بحدة وعنف؛ فيُفَوِّت بعمله هذا فرصة امتلاك السامع وجذب انتباهه، وهو في الوقت نفسه لا يضعف أمام جبروته استكانة وتخاذلاً. ولكنه كان يوازن بين عزة نفسه المسلمة، وبين ما يتطلبه منه موقفه الصحافي والسياسي، في ذكاء وسياسة»[1].

ومع أخذ ابن باديس الذكي والواعي بهذا الأسلوب، في مقالاته السياسية، نجده في هذا المقالات نفسها، «حريصاً كل الحرص، على إطلاع المسؤولين الفرنسيين، على تعلق الأمة بشخصيتها العربية والإسلامية، مع تشبثها لنيل حقوقها المدنية. بدون أن يصادم كبرياء فرنسا، فيتسبب في تصلبها»[2].

فيستعمل ابن باديس المصطلحات الدالة والمؤكدة على تميز الشعب الجزائري، وأصالة انتماءه الحضاري والديني والقومي واللغوي، من مثل: الأمة الجزائرية - الوطن الجزائري - الجنسية القومية - اللغة العربية - الانتماء العربي والإسلامي - الوحدة الوطنية - الإسلام ديننا... وعموم الشعب الجزائري كله، حتى أطفالنا في المدارس، بمجرد سماعهم لاسم الأب التاريخي والروحي - ابن باديس يتذكرون ويذكرون هذه الجمل الثلاث: الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا. إضافة إلى هذا، فإن ابن باديس «كان يستبدل بها - بالمرونة السياسية - أحياناً أسلوباً عنيفاً. وهو إنما يفعل ذلك؛ إذا كان أمام مؤامرة استعمارية، تستهدف القضاء على مصلحة من مصالح الأمة الجزائرية»[3]. وأمثلة ذلك كثيرة في مقالاته[4]، نشير إلى واحد منها - على سبيل الذكر والمثال والاستشهاد - ، وذلك عندما قابلت لجنة البحث في البرلمان الفرنسي، بقصر الجمعيات بالعاصمة، هيئة من جمعية العلماء، برئاسة رئيس الجمعية عبد الحميد

(١) د. محمّد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، ج ١، ص: ٣٢٣ ـ٣٢٤.

(٢) د. محمّد ناصر: المقالة الصحفية، ج ١، ص: ٣٢٤.

(٣) د. محمّد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، ج ١، ص: ٣٢٤.

(٤) انظر على سبيل المثال مقالة: ليس الخبز هو كل ما نريد، ومقال: قانون الثامن مارس المشؤوم، ومقال: الجنسية القومية والجنسية السياسية.

ابن باديس في ١٦ نيسان ١٩٣٧م، فذكر الإمام بأن الجمعية في ظاهرها ـ كان يقصد من خلال جرائدها ـ لم تدع إلى فصل الجزائر عن فرنسا. وفي رده عن وجهة نظر العلماء، في إصلاح حالة الشعب الجزائري، أجاب ابن باديس اللجنة «بأن كل محاولة لحمل الجزائريين، على ترك جنسيتهم أو لغتهم، أو دينهم أو تاريخهم، أو شيء من مقوماتهم، فهي محاولة فاشلة، مقضي عليها بالخيبة، والواقع دال على هذا. . .فالواجب إعطاء الأمة الجزائرية جميع الحقوق، مع محافظتها على جميع مقوماتها. . . وأن (بروجي فيوليت)[١] ما حاز القبول، إلا لما فيه من التصريح بالمحافظة على الحالة الشخصية. . .وأنكم إذا ألزمتم الأمة الجزائرية المسلمة، برفض شريعتها والتخلي عن ذاتيتها، فإنكم تكونون قد وضعتم أمراً يؤول بالجزائر، إلى اضطراب أعظم، لا تدري عاقبته».

وختم ابن باديس اللقاء بعبارات في منتهى القوة والوضوح المبدئيين، بقوله لأعضاء اللجنة البرلمانية الفرنسية: «أنا أقول لكم ـ كما أصرح دائماً ـ أننا عرب مائة في المائة، ومسلمون مائة في المائة، لا نتنازل عن شيء من ذلك، ونحن مع فرنسا أخ مع أخيه، لا كسيد مع عبده».

ولما قال ابن باديس: إننا مع فرنسا. قال الأستاذ العمودي ـ الذي كان ضمن أعضاء وفد الجمعية ـ: «ما لم تنفرنا هي». فاعتبره ابن باديس تقييداً في محله»[٢].

ولا ننسى أيضاً في هذا المقام مقال ابن باديس القوي والدامغ؛ الذي كتبه رداً على بعض النواب المحليين والأعيان وكبار الموظفين، وعلى رأسهم فرحات عبّاس؛ الذي قال بأنه فتش عن الجزائر في كل مكان، وفي الحاضر والماضي، وفي المقابر، فلم يجدها، وخلُص إلى أن فرنسا هي أنا و«أن الأمة الإسلامية الجزائرية مجمعة على اعتبار نفسها أمة فرنسية بحتة ،لا وطن لها إلا الوطن الفرنسي، ولا غاية لها إلا الاندماج الفعلي التام في فرنسا، ولا أمل لها في تحقيق هذه الرغبة، إلا بأن تمد فرنسا يدها بكل سرعة؛ فتلغي جميع ما يحول دون تحقيق هذا الاندماج التام».

---

(١) كلمة فرنسية يقصد بها مشروع الوالي الفرنسي العام بالجزائر موريس فيوليت.

(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٣٥٥ ـ ٣٥٨ بتصرف.

فرد عليهم ابن باديس رداً مفحماً يعتبر من أقوى كتابات ابن باديس السياسية، صارخاً في وجوههم «إننا نحن فتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة، كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا. ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها، بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمة في الدنيا. ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا، ولو أرادت. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج. ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري»[1].

يصدر هذا المقال ـ وغيره ـ عن ابن باديس في مثل هذا الوضوح، وفي مثل هذه الصرامة المبدئية؛ لأن قناعته التي لا تتحول ولا تتبدل؛ هي الرفض المطلق لمنطق احتلال أمة لأمة، والاستيلاء عليها عنوة وقوة، كما يؤكد ذلك بوضوح فيقول: «نحن كمسلمين أضداد للاستعمار بمعناه المعروف؛ وهو استيلاء أمة على أمة؛ لإذلالها واستغلالها، ومنعها من استثمار مواهبها الإنسانية، في مصلحتها ومصلحة البشرية جمعاء، حتى تبقى أبداً مورد الدهر، للأمة المستولية عليها».

وكل ما في أمر إظهار ابن باديس ـ من خلال مقالاته السياسية ـ للمرونة السياسية مع فرنسا، أنه كان يريد «أن تسلك فرنسا مع الجزائر، مسلك انكلترا مع استراليا وكندا واتحاد جنوب إفريقيا. وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالاً واسعاً، تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر. هذا هو الاستقلال الذي نتصوره»[2].

---

(١) الشهاب: ج ١، م ١٢، ص: ٤٦. المقال بعنوان: كلمة صريحة.

(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٣٢٠ ـ٣٢١. مقال نشره في حزيران ١٩٣٦م.

يختلف الاحتلال البريطاني عن الاستعمار الفرنسي؛ في أن بريطانيا تترك لمستعمراتها =

إضافة إلى هذا الأسلوب الأغلب والأظهر في حركة ابن باديس الجهادية؛ نجده أيضاً قد اتخذ أساليب أخرى نذكرها مختصرة فيما يلي:

٢ ـ الكتابة بأسماء مستعارة:

في جريدة النجاح، قبل أن يؤسس جريدة المنتقد سنة ١٩٢٥م؛ وذلك بحكم أنه كان متفرغاً للإصلاح والجهاد التربوي. أما ما يكتبه من مقالات سياسية، وينشره عبر أعمدة الجرائد والصحف، فينشره بغير اسمه الشخصي؛ حتى لا تبطش به إدارة الاستعمار، وهو في بداية الطريق. «فكان يتخفى يومئذ لمقالاته إمضاء مستعاراً هو (العبسي). مستمداً ذلك الاسم من شهامة وهمة وإقدام، عنترة ابن شداد العبسي»[1]. وإمضائين آخرين تحت اسمي: ابن الإسلام، والقسنطيني.

٣ ـ الانفراد بالشهاب عن الجمعية، وإصدارها باسمه الخاص:

وإعلانه أنها تصدر باسمه الشخصي، وأنه هو المشرف على إدارتها وذلك منذ تأسيسها في ١٢ نوفمبر ١٩٢٥م، وأبقاها على ذلك الحال في الصدور حتى بعد تأسيس جمعية العلماء.

فكان ابن باديس مستقلاً بها عن الجمعية؛ مما مكنه ذلك الإجراء الذكي من نشر جل مقالاته السياسية، ذات اللهجة العنيفة والقوية ضد الاحتلال الفرنسي، وأعوانه من بعض رجال السياسة أو الطرق والزوايا. أو نشر مقالات ذات المضمون الذي يخالف فيه بعض رجال الجمعية. هؤلاء الأخيرين، الذي ترك لهم البصائر، تصدر باسم الجمعية.

= نوعاً من حرية التصرف في شؤونها الداخلية «وتتجه نحو إعطاء المستعمرات استقلالها الذاتي الداخلي»مع شرط الارتباط بها في إطار كمنولث اقتصادي. انظر د. محمَّد حسنين: الاستعمار الفرنسي، ص: ٨.

بينما الاستعمار الفرنسي يتبع سياسة الإدماج؛ والتي مفادها «أن إقليم ما وراء البحر ليس إلاً امتدادا لدولة الأصل، فيجب إذن أن يوضع تحت نفس النظام هناك». «فالمدرسة الفرنسية تتجه نحو إدماج المستعمرة في دولة الأصل؛ حتى أنها تطلق على مستعمراتها اسم فرنسا فيما وراء البحار» وتصير تابعة لوزارة داخليتها. محمَّد حسنين: الاستعمار الفرنسي، ص: ٣٣ ـ ٨٠.

(١) محمَّد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: ١٣.

واتخذ ابن باديس ـ أيضاً ـ هذا الأسلوب خوفاً على الجمعية، من بطش إدارة الاستعمار بها، وحتى لا تصدر في حقها قوانين جائرة تحد من نشاطها، أو تعرقلها، أو تحلها. بحجة أن صحفها تنشر مقالات سياسية.

٤ ـ الاتصال بممثل الإدارة الفرنسية المحلية في رحلاته:

في تنقلات ابن باديس عبر مناطق التراب الوطني ومدنه، وبعد أن ينزل بالمدينة، ويزور مسجدها ويصلي فيه. يقوم ابن باديس بزيارة مجاملة لممثل الحكومة في البلدة؛ من بريفي أو سوبريفي، أو متصرف ثم يزور ممثل الأمة الفرنسية والعربية وهو المير إذا كان بالبلدة[١]. وفي هذا الأسلوب مبادأة من ابن باديس، بالهجوم على ممثل الإدارة الفرنسية بالمنطقة، التي نزل بها؛ حتى يتقي شره، ولا يترصده بعيونه، ويثير له مشاكل هو في غنى عنها. أو يقيد حركته بإجراءات تعسفية.

وضمنياً يحسس ممثل إدارة الاحتلال، بعدم الخوف من نشاط وحركة رجال الجمعية المقيمين بالمنطقة، أو الذين يفدون عليها زيارة. وبهذا الأسلوب في المعاملة يحفظ ابن باديس حركته الجهادية، من بطش ومكر وكبرياء الإدارة الفرنسية، ويوهمها بأن الأمور طبيعية. وأن حركته تتحرك في جو من الاحترام المتبادل، لا رِيبة فيه.

٥ ـ الحضور للمؤتمر الإسلامي الجزائري باسمه الخاص:

وذلك عشية انعقاده في حزيران من سنة ١٩٣٦م. بينما حضر كل من الإبراهيمي، والطيب العقبي، ومحمَّد خير الدين ممثلين لجمعية العلماء. وقدم ابن باديس في المؤتمر، قائمة مطالب[٢] باسمه الشخصي؛ نظراً لخطورتها ولطابعها السياسي، وحتى لا تصاب الجمعية بسوء، وتتهم من قبل إدارة الاحتلال، بأنها تحولت من جمعية دينية تربوية تهذيبية ـ وهذا هو ظاهرها الذي

---

(١) الشهاب: ج ٨، م ٨، ص: ٤٠٢.

(٢) انظر قائمة المطالب التي قدمها ابن باديس في المؤتمر باسمه الشخصي في الشهاب: ملحق الجزء الرابع، المجلد ١٢، ص: ٢١٠ ـ ٢١٢.

تظاهرت به له ـ إلى جمعية ذات طابع وصبغة سياسية، وذلك لما تتبنى المطالب السياسية، وتطالب بها.

وإذا حصل وأن تذمرت إدارة الاحتلال من هذه المطالب السياسية الجريئة، فإن أي سوء أو شر يصدر عنها، يصيب ابن باديس في شخصه فقط، ـ وهو مستعد لذلك ـ ولا يصيب جمعية العلماء ولا مؤسساتها ولا رجالها. فيبقوا بالتالي في حفظ ومأمن؛ لأن ابن باديس بأسلوبه الحكيم هذا سد أمام الإدارة باب الذريعة.

وهذا الأسلوب من ابن باديس، في فصل شخصه عن جمعية العلماء، في كثير من المواقف والقضايا، والخطابات والكتابات، تطلبته طبيعة المرحلة والصراع، وكذا فطانته السياسية. وإن كان «كثير من الناس، لم يفرقوا بين ابن باديس رئيس العلماء، وبين ابن باديس الرجل المواطن. فكل حركة أو رأي له، في نظر الناس، كانت تفسر على أنها تعكس الاتجاه الإصلاحي، ومن ثمة اتجاه جمعية العلماء. وقليل هم الذين يفرقون بين الجمعية، وشخص ابن باديس»(١).

٦ ـ توقيف إصدار الصحف:

وهذا الأسلوب لجأ إليه ابن باديس، عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية؛ ليجنب الجمعية موقف الحرج، الذي تريد الإدارة الفرنسية، أن توقع فيه جمعية العلماء، وعلى رأسها ابن باديس. وذلك عندما طلبت الإدارة من الجمعية «أن تعلن باسمها، وتكتب في صفحاتها؛ تصريحات ومقالات، ضد دول المحور ألمانيا وإيطاليا»(٢)، وتصرح فيها بتأييدها للحلفاء، الذين كانت فرنسا أحدهم.

فكان أن أشار ابن باديس على مكتب الجمعية، الأخذ بأسلوب توقيف الشهاب والبصائر عن الصدور. وفعلاً تم التوقيف، الذي كان أسلوباً حكيماً وصائباً؛ تجنبت به الجمعية نشر أباطيل تحسب عليها، وعلى رجالها ومواقفها المبدئية، وتنزع عنها مصداقيتها التي تتمتع بها داخلياً أمام الشعب الجزائري،

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية د ٣، ص: ١٥٩.

(٢) محمّد خير الدين: مذكرات، ج ١، ص: ٢٩٩.

وخارجياً. وحتى أمام إدارة الاحتلال نفسها، التي كانت تحرص عند دخولها إلى جانب الحلفاء، ضد دول المحور في الحرب العالمية الثانية، على كسب تأييد مستعمراتها، من خلال ممثليها، ومؤسساتها القائمة فيها.

الفَصْلُ الرَّابع

مَوْقِف الاستِعمَار الفرنسيّ مِن جِهَاد ابن بَاديس

لقد كان الاستعمار الفرنسي، الذي تعرضت له الجزائر على امتداد قرن وربع قرن، أفظع تدمير أصاب كيانها، في العصر الحديث؛ من حيث إنه عمل بكل قواه على تخريب كل من عالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وعالم الأفكار، هذه العوالم التي تشكل مجتمعة، ذاتية الأمة، ووجودها، ومعاقد بقائها.

فمنذ دخوله الجزائر ـ غازياً ـ بذل كل ما في وسعه، من أجل أن يستوطن عسكرياً واقتصادياً، وإدارياً وثقافياً وحضارياً. ولم يترك، أو يستثن مَعْلماً مقدساً، أو شخصاً محترماً، إلا وانتهك قداسته، واعتدى على حرمته؛ حاطاً بذلك منزلته وهيبته بين الأمة، وزارعاً بانتهاكاته العدوانية الرعب والخوف، في نفسية الشعب.

ولقد جاء في تقرير اللجنة الإفريقية، التي أرسلتها باريس للتحقيق في الجرائم، التي ارتكبها الجيش الفرنسي، منذ دخوله الجزائر إلى سنة ١٨٣٣م؛ أي بعد ثلاث سنوات فقط. تصويراً لها بقوله: «لقد حطمنا ممتلكات المؤسسات الدينية. وجردنا السكان الذين وعدناهم بالاحترام. وأخذنا الممتلكات الخاصة بدون أي تعويض. . .وذبحنا أناساً كانوا يحملون عهد الأمان. . .وحاكمنا رجالاً يتمتعون بسمعة القديسين في بلادهم. . .لأنهم كانوا شجعاناً، لدرجة أنهم صارحونا بحالة مواطنيهم المنكوبين»[١].

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله :الحركة الوطنية، ج١، ص: ١٨.

ولم يكن الاستعمار يمارس بطشه وتنكيله بالشعب ومؤسساته، وممتلكاته فحسب، بل آزره وقواه تخطيط الساسة، ومكر رجاله من المستشرقين المتخصصين، في عمليات ومؤامرات الصراع الفكري. وعلى هذا الأساس، من الخطأ أن نجسد إجرام الاستعمار في هيئة معينة، أو جهة محددة، أو شخص أو أشخاص معينين؛ لأن حقيقته وأفعاله وآثارها تقول «إنه وحش ذو رؤوس وأيدي متعددة. إنه في كل مكان يشع منه الإجرام. وهو في كل مكان يغتال بلا خوف، ودون تأنيب»[١].

ويحرص ـ زيادة على هذا ـ على إبقاء الأمة في وحل تخلفها الشامل، تغط في نوم عميق، لئلا تستفيق، فتدركه وتحارب ظلمه وظلامه، وتتجه نحو النور ونحو الحياة. ويبعد عنها كل ساع من أبنائها وأبطالها المجاهدين، ويخمد أنفاسهم؛ حتى لا يوقظوها من سباتها، ويبعثوها للحياة، بعد أن يبعثوا فيها الحياة. وهذا ما يقلق الاستعمار الذي لايكف عن «خلط الطاهر بالدنس، مدفوعاً بتلك الفكرة الدنسة، التي تملي عليه. أو يوقف سير الشعوب نحو النور؛ حفاظاً على مصالحه المادية»[٢].

وعلى هذا يمكن القول إن الاحتلال الأوربي الحديث، ومنه الفرنسي ـ خاصة، بحكم تميز طابع مدرسته ـ لم يكتف في غزوه واحتلاله للعالم الإسلامي، على المؤسسة العسكرية فحسب؛ لأنه تأكد من خلال دراسته الواعية للحروب الصليبية، واستفادته من تجربته فيها، أن عمل المؤسسة العسكرية وحده لا يستطيع إخضاع العالم الإسلامي لسلطانه، وهيمنته الاستكبارية. ولذلك دعمها بعمل المؤسسات السياسية والفكرية؛ التي عملت ـ وفق دراسات تخصصية ومناهج حديثة ـ على دراسة طبيعة الأمة الإسلامية، وخصائصها وأوضاعها؛ ليتمكن بذلك من التصرف في جميع جوانب، ومجالات حياتها. وفي هذا يقول الأستاذ مالك بن نبي: «إن الاستعمار لا يتصرف في طاقتنا الاجتماعية؛ إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، وأدرك منها مواطن الضعف، فسخرنا لما

---

(١) مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص: ٦٥.

(٢) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص: ١٠٢ ـ١٠٣.

يريد كصواريخ موجهة، يصيب بها من يشاء. فنحن لا نتصور إلى أي حد يحتال؛ لكي يجعل منا أبواقاً يتحدث فيها، وأقلاماً يكتب بها. إنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه. يسخرنا له بعلمه، وجهلنا»[١].

بينما وفي مقابل تخطيط ومنهجية الاستعمار، في عمله وممارساته، وخططه ومخططاته. «لم ندرس بعد الاستعمار دراسة علمية، كما درسنا هو، حتى أصبح يتصرف في بعض مواقفنا الوطنية، وحتى الدينية، من حيث نشعر أو لا نشعر»[٢].

واستراتيجية الاستعمار في ممارساته لعمليات الصراع الفكري، ضد كل حركة فردية أو جماعية؛ تسعى لمقاومته عسكرياً أو سياسياً، أو فكرياً وثقافياً، تقوم ـ في حالة التطبيق ـ على أساسين «أولاً: أن يضرب الاستعمار كل قوة مناهضة له، تحت أي راية تجمعت. وثانياً: أن يحول في كل الظروف، بينها وبين أن تتجمع تحت راية، أكثر فعالية»[٣]. وبذلك يصرف أنظار المجتمع عن تلك الأفكار وحامليها؛ حتى لا تثير اهتمامه بها، مستعملاً في ذلك أدهى وأعقد حيله وأساليبه الماكرة. حتى إنه استأجر عملاء من الأمة؛ لإدخالها في نسج خططه، وإحكام منهجيته في عمليات الصراع الفكري، «حتى لا يُعرف خطُه ولا صوته، عندما يخادع الجماهير الطيبة»[٤]، التي لا تمتلك لا القدرة ولا التجربة، ولا العلم ووسائله لإدراكها، والتنبه إليها، وتجنب الوقوع في شراكاتها، المودية بحياة الأفكار والأشخاص. وربما ـ أحياناً ـ «ندرك جيداً النشاط الاستعماري، عندما يكون مرئياً واضحاً، كأنه لعبة أطفال. ولكنا لا ندرك مجال هذا النشاط ولا وسائله، منذ اللحظة التي يصبح فيها دقيقاً.. .كلعبة الشيطان»[٥].

ويرجع سبب ذلك، كما يحلله مالك بن نبي إلى «أن لنا أوضاعاً عقلية،

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ١٥٥.
(٢) مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص: ١٥٥.
(٣) مالك بن نبي: الصراع الفكري، ص: ٦٤.
(٤) مالك بن نبي: في مهب المعركة: ص: ٧٩.
(٥) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص: ٧٧.

تحول بيننا وبين أن نتتبع اللعب، حين لا يكون مرئياً أو واضحاً، فلا يثير ضجيجاً كضجيج الدبابة والمدفع والطائرة، وحين تكون الوسائل المستخدمة، في قدر حبات الرمل»[1].

ولعمق تجربته وشدة مكره، «يستطيع أن يُحسِّن ـ ويعدل ـ وسائله، ويدقق خططه الاستعمارية، حسبما تقتضيه الظروف»[2] الطارئة، والمتغيرة، والمستجدة.

فنجده في سياسة صراعه ومحاربته لصفوة الأمة، ورموزها من الثوار والسياسيين والعلماء والمفكرين، يعمل بكل ما أمكن من أجل محاصرة، أو تمييع أو شل أو قتل أفكارهم، أو أشخاصهم. ويُقصي بذلك «صفوة الناس عن أماكن القيادة؛ لأنهم هم الذين يمثلون أسمى فضائل شعبهم. ثم يستخدم لتحقيق مآربه، طائفة من خلصائه، اصطفاهم ليمثلوا الشعب المستعمَر»[3].

ويفرض رقابة شديدة وحصاراً محكماً على القنوات والمصادر والمنابع، التي تعرف الشعب بإسلامه وعقيدته، ومقومات تميزه الفكري والثقافي والتاريخي والحضاري؛ حتى لا تمارس وظيفتها بصورة كلية أو جزئية، بالشكل المطلوب، إلا وهي مشلولة لإحياء الأمة، وتجديد شبابها، وبعثها إلى الحياة لتأخذ حظها ـ بكرامة واعتزاز ـ فيها، وتمارس وظائفها، وتؤدي واجباتها. «ولعلمه بأن الدين وحده هو الوسيلة النهائية، لتصحيح أخلاق الشعب، الذي فقد في غمار أزمة تاريخه، كل هم أخلاقي»[4].

وعلى هذا الأساس تعتبر الإدارة الاستعمارية الفرنسية، من أشد وأكبر وأقوى وألد خصوم حركة الإمام ابن باديس الجهادية، إضافة إلى الطرقية ورجالها، وكذا رجال المناصب الدينية الرسميون، والذين ناصبوه جميعاً العداء والحرب.

---

(١) مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص: ٧٨.
(٢) مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص: ٧٦.
(٣) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص: ١٠١.
(٤) مالك بن نبي: وجهة العلام الإسلامي، ص: ١٠٧.

«فكانت الإدارة الاستعمارية، ترى أن الحركة الإصلاحية خطراً على مصلحتها، وأنها بداية للثورة الفكرية، خصوصاً وقد بنت أسسها على مقومات الشخصية الجزائرية؛ من قومية ودين ولغة وتاريخ وأخلاق، وأعلنت التمسك بها، واعتمدت على التعليم والنهوض الشامل بالأمة، التي كانت من أغراض الإدارة الاستعمارية دمجها، وإذابة شخصيتها»[1].

وأدركت الإدارة ـ أيضاً ـ أن حركة ابن باديس، التي بدأت فردية بسيطة، وتطورت وعظمت مع الزمن، حتى تحولت إلى مؤسسة كبرى، متمثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي لمت ما تفرق من العلماء، ووحدت جهودهم وأعمالهم في إطار واحد، منظم مخطط مدروس، صارت تمثل «أكبر الخطر على الفكرة الفرنسية في الجزائر. فشُعَب مدارسهم عبارة عن خلايا سياسية، والإسلام الذي يمارسونه هو مدرسة حقيقية للوطنية. وأنهم يجدون تأثيرهم الأكثر عمقاً لدى الأثرياء والعائلات الكبيرة، وأصحاب المال. وأن أكثر من ٤٠٪ من السكان معهم»[2]. وأنها جاءت لتهدد وجودهم واستيطانهم، وتقوض صرح ما نشروه وما بنوه؛ من مشاريع ثقافية وفكرية وسياسية، واقتصادية وعسكرية.

حتى إن القائمين على مؤسسات صمام حفظ وجود وبقاء وأمن وأمان الاستعمار، ومصالحهم الاستعمارية؛ من مؤسسات سياسية وثقافية وإعلامية، عبروا بوضوح عن الخطر الأكيد، الذي سيداهمهم ـ مستقبلاً ـ من جراء تطور عمل ونشاط حركة الإمام ـ وإخوانه ـ واتساعها. فيقولون منبهين ومحذرين ولافتين للأنظار، قبل فوات الأوان «إن سياستهم الحاضرة تنحصر في الاعتصام بحصن الثقافة والدين... وهذا يتيح لهم أن يتدخلوا في كل شيء، منتظرين أن يتقدم ـ في المستقبل الموعود ـ رجال آخرون لاستعمال السلاح، الذي يصقلونه هم اليوم، ويشحذونه بأيديهم»[3] وحذر ملاحظون ومتتبعون أوربيون، الإدارة من

---

(١) د. أنيسة بركات درار: أدب النضال في الجزائر، ص: ٢٥.
(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ١٠١.
(٣) أساتذة: نوابغ العرب، عبد الحميد بن باديس، ص: ٦٧.

عواقب تسامحها، ولين مواقفها مع العلماء. وعلتهم في ذلك اعتبار «الدعوة الإصلاحية تشكل خطراً حقيقياً، على السياسة الفرنسية في الجزائر»[١].

ولذلك ناصبوها ـ جميعاً ـ العداء والحرب؛ لأنهم كانوا ينقمون عليها «بعثها النهضة العلمية والدينية في الأمة الجزائرية، بعد طول رقادها ويأس القانطين والمقنطين من يقظتها»[٢]. وهال أمرها على الخصوص طائفتين، كان لهما الحول والطول الواسعان في البلاد «طائفة المستغلين الذين يريدون بقاء الشعب في جهله وجموده؛ ليبنوا ثرواتهم على فقره، وسعادتهم على شقائه. وطائفة المتعصبين الذين لا يريدون أن يبقى اسم الإسلام في الجزائر، وإن بقي فليبقى صورة مشوهة مباينة لحقيقته، تهبط بمن تمسك بها من أبنائه إلى دركات الجهل والشقاء، وتنفر عنه من تثقف منه ثقافة أخرى، لا تمت للإسلام بصلة. وإذا تخالفت الطائفتان مفهوماً، فهما متحدتان في الغالب»[٣]، على مواجهتها وحربها وتدبير المكائد، وتلفيق التهم الباطلة لها. رغم أن الإمام ابن باديس كان يحرص من خلال حركته، على العمل في إطار الوضوح والعلانية، مع احترام القوانين السارية المفعول، ويقول: «نحن نطلب حرية التعليم العربي حقاً، ونقبل كل مراقبة. فأعمالنا العلمية والتهذيبية، تقع علناً في وضح النهار، وليس هناك ما نخشاه، ولا ما نكتمه»[٤].

كما كان منذ الخطوة الأولى التي خطاها في طريق عمله الإصلاحي الجهادي الطويل والشاق، عارفاً ومدركاً أن الأمر ليس هيناً ولا سهلاً، سواء مع أعداء الجبهة الداخلية، وما يمثلها من طرقية وعلماء ومفتين رسميين، أو أعداء الجبهة الخارجية، الممثلين في الإدارة الاستعمارية. فيقول: «لم نشك لحظة منذ وضعنا قدمنا في طريق الإصلاح الديني، ورفعنا الصوت بالدعوة إليه، في أن الله سيديل للحق من الباطل، وأنه يبتلي أولياءه بالأذى والمحنة؛ ليمحصهم ويَكِل

---

(١) Ali MERAD: le reformisme musulaman en algerie de 1925 - 1940, p: 147.
(٢) البصائر: س ١، ع ٤٣، ص: ١.
(٣) البصائر: ع ١٥٦، ص: ٣٣٦.
(٤) الشهاب: ج ١٢، م ١١، ص: ٦٦٨.

إعدادهم للعظائم. ولم نزل على يقين تتجدد شواهده. أن في المصائب التي تصيبنا في سبيل الإصلاح،

شحذاً لهممنا وإرهافاً لعزائمنا، وتثبيتاً لأقدامنا، وإلفاتاً للعاقلين عنا، إلى موقعنا من الأمة، وموقفنا من أعدائها. وقد ألفنا هذه المكائد التي تنصب لنا، حتى ما نبالي بها. وأصبح حظنا من الكشف، أن نعلم من أوائلها أواخرها. ومن مقدماتها نتائجها»[1]. وكان يقول لعائلته ـ كما يذكر أخوه عبد الحق بن باديس ـ : «ما دمت لم أوذ، ولم أضرب من أجل هذه الدعوة، فإنني لم أؤد واجبي»[2].

ويوجه تحذيراً شديد اللهجة للاستعمار؛ محذراً إياه من الوقوف في وجهه، لمنعه من العمل، وثني عزيمته عن مواصلة جهاده فيقول: «من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التي نؤمن بها، فقد حاول عبثاً قلب الحقائق، فنحن لا نتزحزح عن الفكرة قيد شعرة، مهما طمي سيل الكوارث على أمة، لها ما للشعب الجزائري من الصفات المرغوب فيها، الكامنة كمون النور في الكهرباء»[3].

وسائل وأساليب الاستعمار الفرنسي في محاربة حركة ابن باديس الجهادية

اتخذت الإدارة الاستعمارية وسائل متعددة ومختلفة، وأساليب متباينة؛ لمحاربة حركة الإمام ابن باديس؛ متابعة ومراقبة لتحركاته ونشاطاته، أو محاصرة وتضييقاً، لعرقلته وشله عن الاستمرارية في جهاده ومواصلته، خصوصاً بعد تأسيس جمعية العلماء.

وقد اختلفت هذه الوسائل والأساليب، في نوعها وحجمها ومكرها، من فترة حركة الإمام الفردية إلى حركته الجماعية:

١ ـ في مرحلة الجهاد الفردي:

والتي امتدت من سنة ١٩١٣م، إلى غاية سنة ١٩٣١م. نجد الإدارة

---

(١) الشهاب: س ١، ع ٣٤، ص: ٢.
(٢) الشعب: ع ٧٩٣٠، ص: ٩، ٣٠ ـ ٤ ـ ١٩٨٩م.
(٣) صلاح الدين الجورشي: تجربة في الإصلاح. ص: ٥٠.

الاستعمارية في هذه المرحلة من حركة الإمام الجهادية التعليمية المسجدية بمساجد قسنطينة، تمنع الإمام في بداية جهاده الإصلاحي، عندما خطا أول خطوة في ذلك. فمنعته من التدريس بالجامع الكبير، الذي انتصب أول ما انتصب فيه مدرساً ومعلماً، لينتقل بعده إلى الجامع الأخضر، وفي هذا يقول ابن باديس «أما بداية تعليمي فيه، فقد كانت في أوائل جمادى الأولى سنة ١٣٣٢هـ(١٩١٣م). وكان ذلك بسعي من سيدي أبي لدى الحكومة. فأذنت لي بالتعليم فيه، بعدما كانت منعتني من التعليم بالجامع الكبير؛ بسعي المفتي في ذلك العهد، الشيخ المولود بن الموهوب»[١]. إذ «كان ـ الإمام ـ كلما حضر إلى التدريس، منعوه من ذلك»[٢]. بعدها، انتقل إلى الجامع الأخضر ـ أساساً ـ وإلى مساجد أخرى في قسنطينة؛ منها: سيدي قموش، سيدي عبد المومن، سيدي بو معزة، سيدي فتح الله...

وهذا المنع من الإدارة الاستعمارية، سبقه تصرف مغرض، قام به خصوم الإصلاح والتجديد ضد الإمام؛ عندما أقدموا على «إقلاقه ومنعه، وأطفأوا عليه الضوء، وهو في الدرس»[٣]. في الجامع الكبير. مما حز في نفسه، ودفعه إلى الارتحال سفراً، نحو المشرق.

وواصل ابن باديس عمله مدرساً ومعلماً ومربياً في المساجد، التي سبق ذكرها، وكذا في مدرسة التربية والتعليم، وساعده في ذلك ـ إعانة وحفظاً ـ ثراء أسرته ومكانتها المحترمة ،لدى الإدارة الفرنسية. فلم يطلب الوظيفة منها «وسكتت عن الابن؛ احتراماً لشخصية الوالد»[٤] الذي كان لوجوده «درع وقاية ـ له ـ من بطش فرنسا، التي لا تصبر على أقل من هذه الحركات»[٥].

ورغم ذلك، فإن الإدارة وعيونها لم تغفل عن نشاطه وتحركاته وأسفاره،

---

(١) الشهاب: ج ٤، م ١٤، ص: ٣٠٤.
(٢) جريدة الفجر: ص: ٨، ٧ ـ١٢ ـ١٩٨٩.
(٣) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٨٠.
(٤) الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ٢٠.
(٥) الثقافة: المرجع نفسه، ص: ٢٠.

التي كان يقوم بها. فكانت تراقب كل ذلك عن قرب وكثب، بواسطة رجال مخابراتها المبثوثين في كل مكان، وفي كل ناحية وزاوية. «وأقلق الشرطة السرية الفرنسية لقاء الأستاذين، وتعقبت تحركات ابن باديس، وتنقلاته داخل مقاطعة قسنطينة وخارجها. واستعملت جميع ما لديها من وسائل؛ لالتقاط ما يجري بين ابن باديس والإبراهيمي. ومما قاله الإبراهيمي في هذه الفترة «إننا نعمل وهم يعملون»[١]. حتى إن الإبراهيمي ـ كأخيه ابن باديس ـ خضع للمتابعة والمراقبة المستمرة، حتى في الصلاة وخطبة الجمعة؛ مما دفعه الأمر ـ كما يقول ـ لأن يتغطى «لها بألوان من المخادعة. حتى إني تظاهرت لها عدة سنين بتعاطي التجارة، وغشيان الأسواق؛ لإطعام من أعولهم من أفراد أسرتي. ولكنها لم تنخدع ولم تطمئن إلى حركتي. فكان بوليسها يلاحقني بالتقارير، ويضيق الخناق على كل من يزورني من تونس، أو الحجاز. كل هذا وأنا لم أنقطع عن الدروس، لطلاب العلم بالليل»[٢].

ولم يكن سماح الإدارة الفرنسية ،وإذنها للإمام بالتدريس في مساجد قسنطينة بريئاً، من غير أن تكون لها من ورائه أهداف تريد تحقيقها، ومقاصد تسعى إليها في صالحها. حيث أرادت بذلك الإذن، التظاهر أمام الرأي العام الداخلي والخارجي؛ بأنها لا تعرقل التعليم في المساجد، ولا تمنعه. وتبث الشائعات المغرضة، من أن ابن باديس يتقاضى منها أجرة، تمنحها له.

ولكن ابن باديس تنبه إلى هذا المكر من الإدارة، ونبه الأمة إلى بطلانه؛ فاضحاً الاستعمار ونواياه. فكان مما قاله: «مضت عشرون سنة، والناس يشكرون الحكومة توظيفها مدرساً؛ يقضي سحابة نهاره، وشطراً من ليله، في خدمة العلم الديني واللساني، ونشره. ظناً منهم أنني أتقاضى مرتباً، كسائر الموظفين. ولما لم أرزق من الحكومة فلساً واحداً ـ والفضل لله ـ وما كنت إلا مدرساً متطوعاً، مكتفياً بالإذن لي في التعليم، ذاكراً ذلك للناس عن الحكومة في المناسبات، بالجميل»[٣].

---

(١) شوقي أبو خليل: الإسلام وحركات التحرر، ص: ٨٩ ـ٩٠.
(٢) الثقافة: س ١٥، ع ٨٧، ص: ٢١.
(٣) الصراط السوي: س ١، ع ٧، ص: ٦.

وكان من خطة الإدارة في ذلك أيضاً ـ إضافة إلى استثمار ذلك كما سبق ـ استغلالاً لتدريسه وجهده؛ أن تأتي بأفواج السُيَّاح الأجانب، إلى حيث يدرس «يشهدون حلقات العلم ووفرة الطلاب، فيعدون ذلك من عناية الحكومة بالمساجد، وتركها حرية التعليم للمسلمين»[1]. وهكذا «استغلت تضحيته بوقته من أجل التعليم؛ لتتخذ ذلك دعاية لنفسها، من أنها لا تحرم التعليم الديني»[2]، ولا تحرم رجاله من ممارسته.

ولكن ونظراً لعمل الإمام المنهجي، وحرصه على أن تسير حركته في صمت وهدوء، فلا يثير غباراً، ولا يحدث ضجيجاً يلفت الأنظار إليه؛ لتقرأ له الحسابات الكبرى، التي أهون ما ينجر وينجم عنها، منعه وتوقيفه من ممارسة عمله الإصلاحي الجهادي. وهذا ما ترك الإدارة الاستعمارية في عامة موقفها من حركته الفردية في هذه الفترة، أنها لم تكن «تعبأ به أول الأمر وكانت تظن أنه لا يتميز في شيء عن بقية الفقهاء، الذين يدرسون القرآن في المساجد. غير أنها فطنت إلى خطورة حركته، عندما فاجأها بتأسيس جمعية العلماء المسلمين، في سنة ١٩٣١م»[3].

ونجد ـ أيضاً ـ من الإجراءات التعسفية التي اتخذتها الإدارة الاستعمارية، في حق حركة الإمام في هذه الفترة، أنها أصدرت قرارات ضد جريدته الشهاب، «تمنع دخولها إلى المغرب الأقصى، في عام ١٩٢٧م»[4].

٢ ـ في مرحلة الجهاد الجماعي:

في سنة ١٩٣١م تحول الإمام بحركته الإصلاحية الجهادية من مرحلة الجهاد الفردي المنظم، إلى مرحلة الجهاد الجماعي الأكثر تنظيماً وتخطيطا ومنهجية، من خلال التأسيس الرسمي، لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا قبلت الإدارة الاستعمارية تأسيس

---

(١) الصراط السوي: س ١، ع ٧، ص: ٦.
(٢) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ٣٨.
(٣) محمود قاسم: المرجع السابق، ص: ٩.
(٤) الثقافة: س ٤، ع ٨١، ص: ٢٠٧.

ابن باديس ـ مع العلماء ـ للجمعية، وتوافق على قانونها الأساسي، وتمنحها رخصة العمل القانوني، بعد خمسة عشر يوماً فقط من تقديمه؟.

هذه نقطة مهمة يجب الانتباه إليها جيداً، خصوصاً وأنها كانت قد مارست ـ من قبل ـ ضغوطات كبيرة عليه، كان لوالده المحترم ـ لديها ـ دور كبير وهام، في تخفيف وطأتها الشديدة عليه.

يمكن القول إن الإدارة الاستعمارية، تعاملت مع تأسيس الجمعية تعاملاً بارداً وضعيفاً، لم تقرأ له حساباته المستقبلية المطلوبة، ونظرت إلى الجمعية نظرة تحكمها رؤيتها لما سبقها من جمعيات تأسست، وهي تعمل وتنشط من غير أن تقلقه أو تشكل عليه خطراً، أو تهدد مصالحه ووجوده، وثقافته وهيمنته. كما أن صياغة القانون الأساسي للجمعية، أدت دوراً هاماً في ذلك؛ من حيث إنه تم إحكامه إحكاماً جيداً، وضبطه ضبطاً دقيقاً، لم يُبق فيه ثغرات وفجوات لا مبدئية ولا قانونية؛ بحيث لا يثير أي شبهة ـ خصوصاً الشبهة السياسية الظاهرية منها ـ حول صبغتها، وطبيعة أهدافها، التي حصرت ـ ظاهرياً ـ في الهدف التهذيبي التربوي الأخلاقي، والذي حُدد في محاربة الآفات الاجتماعية؛ كالخمر والميسر والبطالة والجهل، وكل ما يحرمه صريح الشرع، وينكره العقل، وتحجره القوانين الجاري بها العمل. وأنها تتذرع للوصول إلى غايتها بكل ما تراه صالحاً نافعاً لها، غير مخالف للقوانين المعمول بها. مع التأكيد على التقيد بعدم ممارسة العمل السياسي؛ من حيث إنه «لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال، أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية»[1] كهيئة ومؤسسة. لكن كأفراد وأشخاص، فهذا ما لم يشر إليه القانون؛ ليترك الإمام لنفسه الباب مفتوحاً وواسعاً ـ من خلال مواقفه، ومجلة الشهاب الخاصة به؛ لأن يتبنى أخطر المواقف السياسية وأصعبها باسمه الخاص. فيصرح بها ويقفها متحملاً في ذلك أعباء جسيمة، وكل ما من شأنه أن يترتب عليها من مخاطر، ومكايد تمس شخصه أو جريدته، أو حتى تتعدى لأهله، ومؤسسة الجمعية نفسها، فيلحقهما السوء والضرر.

---

(١) القانون الأساسي للجمعية الملحق سجل المؤتمر، ص: ٥ ـ٦.

ومن هنا «يمكن أن نستخلص حقيقة تاريخية ـ هامة ـ وهي، أن الإدارة الاستعمارية، لم يكن في تصورها، عندما سمحت في أول الأمر لجمعية العلماء، بحركة التعليم العربي الحر، أنها ستخرج عن قانونها الأساسي؛ لأنها كانت كغيرها من الجمعيات الدينية الأخرى، في نظر الحكومة»[١].

بل ربما كانت ذاهبة في تخمينها إلى أبعد من ذلك؛ بحيث كان «الأمل يحدوها في أن هذه المؤسسة، ستكون عوناً للاستعمار في الجزائر، مثل غيرها من الجمعيات الدينية الأخرى»[٢]، وبالتالي تستوعبها وتدجنها، وتوظفها كبيدق مهم في لعبة حقيرة، هدفها تبييض سياستها الدنسة، في حق الأمة ورموزها من العلماء ومؤسساتها العلمية والتعليمية. وعلى هذا الأساس «لم تكن السلطة الاستعمارية وقتذاك، تتوقع أن ينجم عن ذلك الإذن اليسير، ما هب على كيانها من خطر كبير»[٣]. وهي التي تعودت وألفت «التعامل مع إسلام الطرقية والصوفية، التي لا تمتنع عن مراضاتها»[٤]. وكانت نظرتها العامة وتصورها للشعب الجزائري ـ خصوصاً ـ بعد إخماد الثورات الشعبية، وتوقفها بعد الحرب العالمية الأولى، أنه شعب خامل استسلم للنوم، وعاد إلى سباته الثقيل؛ الذي ألفه ليغط فيه، كما كان من قبل.

بينما في حقيقة الأمر «ومن الواجب أن نذكر، أن هذا الخمول الذي لم يكن إلا في الإدارة الاستعمارية الشائخة، هو السبب الأساسي للبلاء ـ بلائها هي ـ بينما البلاد قد شاعت فيها الحيوية، وامتلأت بالغليان والثورة»[٥]. ولم تنتبه إلا بعد فوات الوقت «إلى أن مصلحاً قطع الطريق عليها في رفق، ودون تظاهر بالبطولة. فحاصرها ببعث اللغة العربية، وتجديد العاطفة الدينية الصادقة»[٦] في الأمة، والتي أحيت فيها روحها وإحساسها بوجودها، وذاتيتها وقوميتها وتميزها.

---

(١) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ١٦٠.
(٢) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ٢١٨.
(٣) د. فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس، ص: ٣٨.
(٤) شارل أندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير، ص: ١٣٧.
(٥) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٢٤.
(٦) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ٦١.

وأحيت فيها إحساسها بالألم، وتطلعها إلى تحقيق الأمل، الذي طريقه ـ كما حددته حركة الإمام ـ الوحيد، هو أداء الواجبات الرسالية، والوطنية والتاريخية.

واتسم موقف الإدارة الاستعمارية، من بعد تأسيس مؤسسة الجمعية من طرف الإمام وإخوانه العلماء، بسمتين متناقضتين؛ الأولى اعتمدت الليونة والترغيب لكسب الإمام، وكسب حركته الجماعية من ورائه؛ في صمت ومن غير إحداث أي ضجيج منبه، وفاضح ومؤلم. وهو الأسلوب الذي طبقته ـ في معظم الأوقات ـ مع الجمعيات التي سبقت جمعية العلماء. حتى إذا لم ينجح هذا الأسلوب معه ومعها، عمدت إلى الترهيب والتنكيل والمضايقات، وإصدار الإجراءات القانونية التعسفية؛ من خلال سن القوانين الجائرة في حق ابن باديس، وفي حق مؤسسة الجمعية ورجالها، وأعمالها ونشاطاتها المختلفة، وفروعها.

فبعد تأسيس الجمعية رسمياً، ومباشرة استدعى (ميرانت)[1] ـ وكانت الجمعية قد دعته إلى حضور حفل التأسيس، ولكنه اعتذر ـ مدير الشؤون الأهلية بالولاية العامة الإمام ووالده إلى مكتبه، و «عرض على الشيخ أن يختار لنفسه أية وظيفة يرغب فيها (مفتي أكبر . . .أو قاضي قضاة مثلاً) . . . على شرط واحد هو أن يتخلى عن رئاسة جمعية العلماء. . . مع إضافة مساعدة مالية تمنحها الحكومة لوالده؛ قصد تحسين أوضاعه الفلاحية والاقتصادية. فخرج الإمام رافضاً، ورد عليه كتابياً على ما عرض عليه»[2].

ويفصل كل من الأستاذين أحمد توفيق المدني، ومحمّد الطاهر فضلاء القصة. فيشير إليها هذا الأخير بقوله: «عندما لبى المدعو هذه الدعوة ـ دعوة ميرانت ـ وحضر إلى المكتب المذكور ـ في الدعوة ـ وأذن له بالدخول، إذا به يفاجأ بوجود أبيه في المكتب، وبعد التحيات البديهيات، واستقرار كل واحد في مكانه، بدأ ميرانت ـ مبتدراً الإمام ـ كلامه قائلاً للإمام: «يا شيخ أترك عنك هذا العار، أخرج من هذه الحشومة، ودع هذه الجماعة المسكينة التي جمعها عدو

---

(١) ميرانت: الوالي العام بقسنطينة.

(٢) من شهادة علي مرحوم: الأصالة: س ٤، ع ٢٤، ص: ١٠٨.

فرنسا بالنادي، فليس هؤلاء الرجال رجالك، وليست هذه الحثالة من الطلبة ممن يفتخر العالم بالانتساب لهم، أو أن يكون رئيساً عليهم.

يقول الإمام: «واستمر على هذا المنوال، ودمي يفور، وشعوري الجريح يتأجج كأنه نار. وحاولت أن أرد الصاع صاعين، فإذا بوالدي ـ وهو كل شيء عندي بالنسبة للحياة الدنيا ـ يقف أمامي، ويبكي ويقول: يا عبد الحميد، يا ولدي! ربيتك صغيراً، وعلمتك يافعاً، وفتحت أمامك أبواب الحياة الهنيئة؛ حتى غدوت عالماً تشد إليك الرحال، فلا تفضحني اليوم يا عبد الحميد في شيبتي، لا تشمت بي الأعداء، لا تتركني للمذلة والهوان. فالسيد ميرانت لا يريد لنا إلا الخير، وقد مهد لي سبل الوصول إلى المركز الذي أنا فيه، وأن الإعراض عنه، هو إعراض عني أنا، والإساءة إليه هي إساءة لي، ورفض طلبه هو رفض طلبي. وقد أمر الله بإطاعة الوالدين. فأنا آمرك يا عبد الحميد بالتخلي عن هذه الرئاسة، وعن هذه الجمعية.

قال: ثم انحنى أمامي وأنا أذوب، وأكب على رجلي يقبلهما، ويبكي ويقول: لا تفضحني يا عبد الحميد.

قال: فاضطربت ثم تماسكت، وانتصبت واقفاً، وأنا أرتعد تأثراً لا رفقاً، وتوجهت لوالدي، وأنا آخذ يده أقبلها في تجلة واحترام، قائلاً: حشا أن أعصي لك أمراً، أو أخالف لك رأياً، وأنا ابنك المطيع. إلا أن هذا الذي تدعوني إليه ليس في استطاعتي إطلاقاً؛ لأنني إن أطعتك فيه خالفت أمر الله، وأمر الله فوق أمر الوالد بنص القرآن. ولقد وقف محمَّد عليه الصلاة والسلام مثل هذا الموقف أمام أكابر قومه، ووجوه عشيرته. فراودوه على أن يترك الدعوة لله، وله ما يشاء مقابل ذلك من مال ومتاع. فأجابهم الجواب القاطع الصارم: والله لو وضعتم الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، إلى أن ينصره الله، أو أقضي دونه. هذه هي كلمتي الأخيرة يا والدي، ويا مسيو ميرانت، وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء.

وعاد ميرانت إلى الكلام قائلاً: إن أسرة ابن باديس مقبلة على الإفلاس منذ اليوم، وأن الحكومة الفرنسية تعلن استعدادها لعملية الإنقاذ، وهي في هذه المرة

لا تطلب منك حل جمعية العلماء، وإنما هي تطلب فقط استقالتك منها، تكتبها وتوقعها لتبقى محفوظة عندنا، من غير أي إعلان عنها. ونحن نسلم لأبيك منذ الآن (صكاً مصرفياً)، يقضي كل ديون الأسرة، ويمنحها فرصة لاستعادة مكانتها الاقتصادية والاجتماعية.

يقول الإمام: ثم ألهمني الله، فطلبت منحي فرصة قصيرة للتفكير والاستخارة؛ حتى صباح اليوم الموالي...

وخرج عبد الحميد بن باديس من دار الولاية العامة، متأثراً منفعلاً باكياً، وقطع المسافة راجلاً بين الولاية العامة، ونادي الترقي. وفي هذا النادي استقبله إخوانه فبادرهم قائلاً: «اليوم فقط أدركت السر الإلهي في يتم الرسول صلى الله عليه وسلم، منذ صباه الأول. اليوم فقط عرفت السر، وعرفت معه كيف يكون الابتلاء بالنعمة وبالنقمة معاً، وبالخير والشر معاً، وصدق الله القائل ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

وفي اليوم الموالي، كتب الإمام ابن باديس جوابه إلى (ميرانت) قال له فيه: اقتل أسيرك يا ميرانت، أما أنا فمانع جاري! اقتل يا ميرانت مصطفى بن باديس، واقتل معه عبد الحميد بن باديس، واقض على كل أسرة ابن باديس، إن منحك الله هذه القدرة، ولكنك لن تصل أبداً إلى قتل جمعية العلماء بيدي؛ لأن جمعية العلماء ليست جمعية عبد الحميد بن باديس، وإنما هي جمعية الأمة الجزائرية المسلمة. وما أنا فيها إلا واحد. أتصرف باسم الأمة كلها. ومحال أن أتصرف تصرفاً، أو أقف موقفاً يكون فيه قتل الجمعية على يدي. أقول هذا، وحسبي الله ونعم الوكيل»[1].

ويوضح سبب وقوع أسرة الإمام في الضائقة المالية الشديدة، أخو ابن باديس السيد عبد الحق قائلاً: «قد اضطر والدي الذي كان يشتغل في الزراعة، وبيع المواشي إلى فرنسا، إلى بيع مزرعة هامة في وادي زناتي؛ حتى يستطيع

---

(١) محمد الطاهر فضلاء: دعائم النهضة الوطنية، ص: ١٠٢ ـ١٠٤. وكذا أحمد توفيق المدني من شهادة له: الأصالة: س ٦، ع ٤٤، ص: ٧١ ـ٧٢. مع تصرف.

تسديد الديون؛ لأن الحكومة الفرنسية ضغطت على البنوك؛ لكي لا تتعامل مع والدي بسبب جهاد الشيخ عبد الحميد»[1].

ولما لم ينجح أسلوب الترغيب،. وإظهار الود والليونة الشكليين مع الإمام، ولم يفل المدح والإطراء من عزيمة ابن باديس. تغيرت وتبدلت سياسة مدير الشؤون الأهلية السيد ميرانت، إلى أسلوب نقيض للأول؛ أسلوب الترهيب والحرب المعلنة السافرة، الماكرة على الإمام خاصة ،والجمعية ورجالها ونشاطها، وفروعها عامة.

أ ـ محاولة تفجير الجمعية من الداخل، واحتوائها:

استعملت الإدارة الاستعمارية في أسلوبها الترهيبي هذا، شتى ومختلف الطرق والأساليب. كانت أولها محاولة تفجير الجمعية من الداخل، واحتوائها وتحريفها عن مسارها ومنهجها الإصلاحي الجهادي، وخطها الحضاري التغييري الأصيل، «إذا هي حركت أعوانها من الطرق الصوفية، تلك الطرق التي مالت إليها منذ منتصف القرن الماضي، وأسهمت معها في القضاء على ثورة الأمير عبد القادر»[2]. وذلك عند إعادة انتخاب المجلس الإداري للجمعية، في سنتها الثانية، في ٢٣ أيار ١٩٣٣م.

هذه الطرق الصوفية، التي كانت من ضمن الأصناف الذين ضمتهم إليها الجمعية عند تأسيسها، ولكن «ما كان من تلك الجماعات، إلا أن سايرت الجمعية في الظاهر، وأسرت لها الكيد في الباطن»[3]. وداومت على حضور جلساتها ودوراتها «لا خدمة لغايتها، ولا إعانة لإدارتها، ولكن عيناً عليها فاجرة؛ تبلغ وتشي إلى إدارة الأمور الأهلية»[4]. وتحينت الفرصة المناسبة لها، عند إعادة تجديد انتخاب مكتب الجمعية «فكان رئيس لجنة العمل، قد سعى سعياً شديداً، في تكوين عدد كثير ممن يوافقونه على القائمة التي يقدمها للانتخاب،

---

(١) الشعب: ع ٧٩٣٠، ص: ٩.
(٢) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص: ٢٠.
(٣) سجل المؤتمر، ص: ٥٨.
(٤) مبارك بن محمّد الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ص: ٢٦٨.

وكانت مكاتبات لبعض الجهات في الحث على القدوم يوم الانتخاب[١]. وساعده في ذلك شيخ زاوية مستغانم، «وأصبحت الوصولات، توزع على كل من يقال فيه طالب؛ ليأتي للجمعية العمومية، وينتخب من كتبت أسماؤهم في ورقة سلمت لهم»[٢].

وتضمنت القائمة التي وزعت ثلاثين اسماً؛ منها أعضاء أقدمون في المكتب، مع شطب على أسماء بعضهم وزيادة عليهم، وقد ضُمَّ رئيس لجنة العمل إلى قائمة الثلاثين شخصاً. وكان ابن باديس على علم من ذلك، غير خائف على الجمعية «لأنني ـ كما يقول ـ كنت أعتقد أن الاجتماع العمومي سيضم جمعاً عظيماً من أهل العلم، وحسبي بعلمهم هادياً لهم إلى ما فيه خير وسداد، للجمعية والأمة»[٣]. ولذلك ـ كما يقول الإمام دائماً ـ «بينما كان السيدان يعملان عملهما، ويقويان حزبهما. كنا تاركين للمسألة حالها تسير بطبيعتها. ولو كنا على شيء من سوء النية أو القصد إلى الاستيلاء بالأغلبية؛ لكنا دعونا تلامذتنا دعوة عامة للحضور ـ وهم كُثر، وكلهم من أهل العلم فملأوا نادي الترقي، والشوارع المتصلة به ولا فخر. ولكن ما كنا ـ والحمد لله ـ لنقصد إلى التكثر ولا إلى العصبية والتحزب وإحداث الفرقة بين الناس»[٤].

وحسم ابن باديس الأمر بتذكير جمع الناس الذي حضر؛ بأن المنتخبين لا بد أن يكونوا من أهل العلم، كما تنص عليه المادة السابعة من القانون الأساسي للجمعية (الفصل الثامن منه)، والتي نصها «الأعضاء العاملون، هم وحدهم الذين يجب أن يتألف منهم المجلس الإداري. وهم الذين ينتخبون كل سنة. وهم الذين يصح أن يطلق عليهم لقب عالم بالقطر الجزائري، بدون تفريق بين الذين تعلموا، ونالوا الإجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية، وبين الذين تعلموا بالمعاهد العلمية الإسلامية الأخرى». «وذكَّر الجمع أن مجلس الإدارة، عين

(١) الشهاب: ج ٨، م ٨، ص: ٣٩٥.
(٢) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٣٩٥.
(٣) الشهاب: المرجع نفسه، ص: ٣٩٥.
(٤) الشهاب: ج ٨، م ٨، ص: ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

لجنة لتقييد أسماء من ينطبق عليهم هذا الوصف المذكور في المادة. وأنه تقبل من كانت له شهادة، أو كان باشر التعليم، أو كان يشار إليه بالعلم في قومه. وأنه بعد تقييد أسماء المنتخبين، يكون الانتخاب»[1]. ولكن المتربصين والكائدين من الطرقية، والأذناب المندسين رفضوا ذلك، «وقامت القيامة، واضطربت أركان القاعة بالضجيج. وأبى القوم إلا الانتخاب في الحين، دون اعتبار للمادة القانونية، ولا اعتبار لتقييد أسماء المنتخبين. واستمر ذلك الاضطراب من الصباح إلى قرب الزوال». وقفت فيه الجمعية على شفا حفرة من الهلاك. وتأكد جمع العلماء من «أن أهل العلم قد حشر فيهم من ليس منهم، وكان معهم من لم يتخلق بأخلاقهم، ولا تأدب بآدابهم»[2].

مما حتم الموقف وتطوراته على ابن باديس، أن يجمع أعضاء المكتب؛ ليبين لهم دافع وهدف المكيدة، التي يراد من وراءها قلب الجمعية، والاستحواذ عليها، قائلاً لهم ـ طالباً ـ : «أشيروا علي بما ترون. فقال الأستاذ مبارك الميلي: أرى أن تكون لجنة من العلماء؛ يكون أعضاؤها منا ومنهم، يجري امتحان على من لا تتوفر فيهم الشروط»[3].

واستدعى الإمام الشرطة؛ لترسل أعوانها لحفظ النظام. ووقع الإعلان عن الانتخاب، وفق الخطة يوم الثلاثاء صباحاً، وتم مساءها. «ولما سمع القوم هذا سقط في أيديهم... وخرجوا من النادي في غليان واضطراب، يتدافعون على الأبواب، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة»[4].

وتألف المجلس الإداري الجديد «من زعماء الإصلاح وصفوة أنصاره. ورأى الناس عجيب صنع الله، في نصر الحق على الباطل»[5]، الذي انشق، وانسحب دعاته «من الجمعية محاربين، ولأغراض أمور الأهلية منفذين»[6]؛

---

(١) الشهاب: ج ٨، م ٨، ص: ٣٩٦.
(٢) من شهادة الصالح بن عتيق: جريدة النصر، ص: ٢، ١٦ ـ ٤ ـ ١٩٨٩م.
(٣) من شهادة الصالح بن عتيق: جريدة النصر، ص: ٢، ١٦٣ ـ ٤ ـ ١٩٨٩م.
(٤) من شهادة الصالح بن عتيق: المرجع نفسه، ص: ٢.
(٥) سجل المؤتمر، ص: ٥٩.
(٦) مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ص: ٢٦٨.

وذلك لأن الإدارة الاستعمارية، هي التي حرضت الطرقيين، وأصحاب بعض الزوايا؛ من العلويين، والشاذليين، والقادريين، على سلوك هذا المسلك والقيام بهذا العمل؛ مُخوِّفة إياهم من الجمعية، التي ستقطع عنهم الزيارات وإرادتها المالية، التي تتوقف عليها رفاهيتهم، ويقوم على أساسها نفوذهم.

ولكن بعد فشل محاولتهم، وخروجهم يائسين مهزومين. دفعتهم الإدارة الفرنسية، وأعانتهم على تأسيس جمعية خاصة بهم؛ عرفت فيما بعد باسم: جمعية علماء السنة الجزائريين. والتي تأسست رسمياً في ١٥ أيلول ١٩٣٢م، وضمت إليها رؤساء الزوايا، والموظفين الدينيين المرسمين في الإدارة الحكومية. ولكنها في حقيقة أمرها وحالها، لم تكن سوى «نقابة تدافع عن مصالحهم وامتيازاتهم. وقد هيئت لهم كل ما يحتاجون إليه، ووضعت تحت تصرفهم رجالاً وأموالاً»[١]. وعين على رئاسة جمعية علماء السنة المولود بن الصديق الحافظي[٢]، والذي كانت الإدارة ـ من قبل ـ تهيئه وتعده؛ «ليخلف ابن باديس في رئاسة الجمعية»، إذا تحقق لهم تفجيرها، وتحريفها. مستغلين في ذلك حبه وتهالكه «على الشهرة والرئاسة»[٣].

ورخصت لهم الإدارة إصدار صحف وجرائد تمثل اتجاههم، وتنطق باسمهم، وتبلغ خطابهم. فتأسست كل من الإخلاص[٤]، والمعيار[٥]، والبلاغ

---

(١) من شهادة الصالح بن عتيق: جريدة النصر، ص: ٢، ١٦ ـ٤ ـ١٩٨٩م.

(٢) هو «المولود بن الصديق الحافظي (١٣١٣ ـ١٣٦٧هـ/ ١٨٩٥ ـ١٩٤٨م) كاتب صحفي، من الفقهاء، ولد بقرية بوقاعة قرب مدينة سطيف. وتعلم بها ثم بالأزهر. أسس جمعية علماء السنة، وتولى رئاسة تحرير جريدة الإخلاص. له مقالات كثيرة في العلم والاجتماع» عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص: ١١٨.

(٣) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ص: ٣٢٠.

(٤) صدرت في ١٤ ـ١٢ ـ١٩٣٢م. تحت إشراف المولود بن الصديق الحافظي. أصدرها تجمع الزوايا وتوقفت في ١٩٣٣م.

(٥) صدرت في ١٨ ـ١٢ ـ١٩٣٢م. مديرها هراس مصطفى هي امتداد للإخلاص، توقفت في أوائل حزيران ١٩٣٣م. انظر عن الإخلاص والمعيار، د. محمّد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، ص: ١٢٦ ـ١٣٠.

كانت من قبل. واتخذت هذه المنابر الإعلامية، وسائل وقنوات؛ لمهاجمة العلماء عامة، وابن باديس خاصة.

فتأسست الجحيم؛ للرد على بلاغ الطرقيين «ولكن الإدارة بادرت بإغلاقها بعد نحو شهر فقط عن بروزها. ونظراً لمحتواها ولغتها، فإنها لم تعلن عن مُصدِريها، ولا عن مطبعتها. وبحثت الداخلية عن طابعيها، حتى توصلت إلى اسم المطبعة، وقدمتها للمحاكمة وغرمتها»[1].

وكانت النتيجة ـ لذلك ـ أن اشتعلت حرب إعلامية كلامية؛ بين العلماء ورجال الطرق في جمعية علماء السنة. «وصلت إلى المهاترات السخيفة، والكلمات البذيئة»[2]؛ التي كانت تصدر عن الطرقيين، والتي وصفوا فيها ابن باديس ـ وإخوانه العلماء ـ بأنهم عبداويون؛ نسبة إلى محمَّد عبده، ووهابيون؛ نسبة إلى محمَّد بن عبد الوهاب. ولم يقف الأمر عند هذا فحسب، بل تجاوزه إلى استعمال أقذع السباب والشتم والقذف. وقالوا: «في المصلحين؛ إنهم ملحدون زنادقة، وإنهم كفرة مارقون... وقالوا:إنهم صنائع دول أجنبية مأجورون. وقالوا:إنهم شيوعيون، ونازيون، وفاشستيون، وإنكليز، وهلم جراً»[3].

ووصل بهم الأمر إلى تحريف اسم ابن باديس «إلى إبليس، بدلاً من باديس»[4].

وفسحت الإدارة الفرنسية، المجال واسعاً للجمعية؛ لممارسة نشاطها في الميدان، مع كل التسهيلات؛ لمنافسة جمعية العلماء ومحاصرة نشاطها. ففي السنة الثانية من تأسيسها «كان رئيسها يقوم بجولات لنشر دعوتها، ويزور العواصم لدعم نفوذها»[5]. ولكن الرأي العام الجزائري ـ إدراكاً منه بخلفيات،

---

(١) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ص: ٣٢١.
(٢) د. أحمد الخطيب: جمعية العماء، ص: ١٨١.
(٣) الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، ص: ١٤٢.
(٤) د. طه الجابري: جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر، ص: ١٣٩.
(٥) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ص: ٣٢٣.

وأبعاد ظهور هذه الجمعية على الساحة. لم يتجاوب معها، ولم يستجب لخطابها، بل على ـ العكس من ذلك ـ قابلها برفض ونفور. وحدث ـ مثلاً ـ أن رمي بالبيض والطماطم رئيسها في عنابة؛ عندما زارها، وأراد إلقاء درس في جامعها الكبير»[1].

ولذلك، ورغم سعيهم الحثيث في الميدان، وفي المساجد الرسمية، ورغم المساعدات التي كانت الإدارة تغدق بها عليهم، كان مآل هذه الجمعية الفشل الذريع، في محاربة ومواجهة العلماء «وابتداء من أيار ١٩٣٣م، حدثت القطيعة النهائية بين الإصلاحيين والطرقيين»[2]. وتوقفت جريدة الإخلاص عن الصدور في كانون الأول ١٩٣٣م.

ولم تعمد إدارة الاحتلال إلى دفع الطرقيين، إلى محاولة تفجير الجمعية والاستيلاء عليها فحسب، كما يؤكد ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله بقوله: «ولا شك أن السلطات الفرنسية هي التي أوحت إلى أتباعها، باتخاذ هذا الموقف من علماء الإصلاح»[3]، بتأسيسهم لجمعية علماء السنة السالفة الذكر، وكما يؤكد ذلك أيضاً الشيخ الصالح بن عتيق[4]. بل عمدت علاوة على ذلك «إلى إنشاء جمعيات دينية مختلفة؛ كالتي أنشأتها في تبسة، باسم الجمعية الدينية الإسلامية، ووضعت على رأسها معمراً يدير شؤونها، ويوجه أهدافها»[5] الخادمة لأغراضها، «ولبث الدعاية الكاذبة في عقول العامة من الناس. ومن جملة ما كانت تروجه؛ أن العلماء المصلحين ينكرون وجود الأولياء، وقد جاؤوا بدين جديد، ومنذ أن ظهرت الدعوة الإصلاحية، انقطعت البركة، وأمسك الله عنا المطر»[6].

---

(١) أحمد حماني: المرجع نفسه، ص: ٣٢٣. انظر القصة مفصلة فيه.

(٢) ALI MERAD: Le reformisme muslman en algerie,P: 174.

(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٤٣.

(٤) جريدة النصر، ص: ٢، العدد: ١٦ ـ ٤ ـ ١٩٨٩م.

(٥) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٦) عبد الكريم بوصفصاف: المرجع نفسه، ص: ١٥٨.

ب ـ إصدار القوانين والقرارات التعسفية، في حق رجال الجمعية ونشاطها:

وذلك ابتداء من سنة ١٩٣٢م؛ إذ أصدرت قوانين لمراقبة وتفتيش وغلق المدارس، التي شرعت الجمعية في افتتاحها، وعزل معلميها. وكل ذلك إذا تطلب الأمر الأمني ذلك[(١)]. فبعد فشل محاولة تفجير الجمعية، وتحريف مسارها الإصلاحي الجهادي، وخطها الدعوي التغييري. أصدرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية، قوانين وقرارات، مست الجمعية في نشاطها التعليمي؛ سواء المسجدي منه أو المدرسي. وكذا تعطيل وتوقيف الصحف التي تصدرها. وعرقلة ومحاصرة نشاط رجالها؛ متابعة وتغريماً وسجناً ونفياً. ويمكن أن نشير إجمالاً إلى بعض هذه القوانين والقرارات فيما يلي:

١ ـ **قرارات تعطيل الجرائد عن الصدور:** فبعد تعطيل المنتقد في سنتها الأولى عام ١٩٢٥م، عطلت كل من السنة النبوية، والشريعة المحمدية، والصراط السوي، جميعاً في سنة واحدة، سنة ١٩٣٣م. ووصل الأمر بالإدارة في سرعة تعطيل الجرائد إلى «أن الحاكم العام قد أصدر مرة أمراً استبدادياً؛ يقضي بتعطيل كل صحيفة، تصدرها جمعية العلماء مسبقاً، قبل ظهورها»[(٢)].

٢ ـ **قرارات فيرناند جيل ميشال لمراقبة حركة العلماء:** والتضييق عليهم ومنعهم من أداء مهامهم الإصلاحية الجهادية؛ خصوصاً في المدن الصغيرة والقرى، وكذا الأسواق العامة. هذه القرارات التي أصدرها مدير الشؤون الإسلامية في ١٦ شباط ١٩٣٣م؛ والتي فيها دعوة «كل من يعنيهم الأمر؛ إلى ملازمة اليقظة والانتباه؛ لمراقبة جميع الاجتماعات والمحاضرات، التي تنظمها جمعية العلماء، تحت زعامة ابن باديس والعقبي. والعمل على إبعاد المدارس القرآنية عن نشاط هذه الجمعية»[(٣)]. وتأمر في الوقت نفسه كل الهيئات بعدم «التردد في كتابة محضر، لكل اجتماع من هذا القبيل، ولا سيما ذلك الذي يأخذ

---

(١) انظر محمَّد الطاهر فضلاء: التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح، ص: ٤٣٥ ـ٤٣٧و ٤٤٠ ـ٤٤٢.

(٢) الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، ص: ١٤٦.

(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٢١.

طابعاً تخريبياً، مضاداً لفرنسا»[1]، وموافاة الوالي العام نفسه بذلك.

كما نصت قراراته على «منع العلماء من دروس الوعظ في المساجد الرسمية، وهي التي تشرف عليها مباشرة، ومنعهم أيضاً من فتح المدارس الحرة، وتعليم اللغة العربية، ومصادرة الصحافة العربية التابعة للجمعية»[2]. وقصر الإمامة والإفتاء، على من تعينه الإدارة. وحتى يشرف بنفسه على تنفيذ هذه الأوامر، عين فيرناند جيل ميشال نفسه، رئيساً لمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

وكان التعيين للإمامة والإفتاء لا يتم «طبقاً لمشيئة جماعة المسلمين، بل تبعاً لهوى المستعمرين... وبذلك تجمع ـ الإدارة ـ في يديها أنفذ وسائل الإفساد؛ فاختيار رجل يؤم بالناس في المسجد، لا يكون بناء على تميزه بضمير حي، أو علم بأصول العقيدة، بل يراعي في ذلك ما يقدم للإدارة من خدمات، حتى كأنه جاويش صلاة»[3].

كما تم في السنة نفسها ـ أي السنة ١٩٣٣م ـ إصدار قرار «يقضي بمنع أعضاء جمعية العلماء، من الدخول إلى الصحراء»[4]، والقيام بالدعوة الإصلاحية فيها. بينما وفي مقابل هذا المنع الصارم «تعطى الإعانات، وتمنح التسهيلات للبعثات غير الإسلامية؛ لتنصير أبناء وبنات المسلمين»[5].

كما قررت الإدارة ابتداء من سنة ١٩٣٣م «رسمياً اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر. وأن المساجد محرمة على العلماء الأحرار، بعد أن كان كل هذا منفذاً بالفعل، دون استناد إلى قانون. ومن يومئذ أصبح تعليم العربية في عداد الجرائم. يحاكم عليه قانونياً، ويقضي القاضي بتجريم مقترفيها»[6]. وقد نجم عن هذا القرار التعسفي مايلي:

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص: ٢١.
(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٢١.
(٣) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص: ١٠٧.
(٤) محمّد خير الدين: مذكرات، : ٢٧٣.
(٥) الشهاب: ج ٤، م ١٤، ص: ١٠٣.
(٦) محمّد خير الدين: المرجع السابق، ص: ٢٣٠.

- القيام بغلق مدارس الجمعية في تلمسان، وسيق، وسيدي بلعباس وغيرها وطرد معلميها.

- غلق المساجد في وجه العلماء، ومنعهم من التدريس فيها .

- تلفيق التهم للعلماء، وتشويه سمعتهم عند الرأي العام. ومثال ذلك الشيخ الطيب العقبي الذي اتهم بخلق الاضطرابات ضد الأمن العام، وبأنه داعية وهابي؛ لتمنعه بعد ذلك من التدريس في الجامع الجديد بالعاصمة. مما أثار غضب الأمة التي خرجت في مظاهرات صاخبة وعارمة، تصدت لها قوات الشرطة، ولم تهدأ إلا بعد أن وعدت السلطات بالسماح للعقبي، باستئناف دروسه»[١]. كما يقوم بحملة تشهيرية بهم «يندد - فيها - بهؤلاء الوهابيين الخارجين على الدين، ويطالب المؤمنين بعدم الاستماع إليهم، أو الصلاة خلفهم»[٢].

وترسل الولاية العامة كتاباً إلى الإمام ابن باديس؛ تسأله فيه هل لديه رخصة، تسمح له بالتعليم في الجامع الخضر وغيره، مما أثار تعجب الإمام وحيرته. فكتب مقالاً بعنوان «بعد عشرين سنة في التعليم، نسأل هل عندنا رخصة؟»[٣].

وابتداء من سنة ١٩٣٤م، أصدرت الإدارة الاستعمارية أيضاً قراراً؛ منعت بموجبه «المسلمين من الاجتماع في الجامع الكبير. وحالت دون لقاء الحجاج مع الشيخ ابن باديس، ورفاقه من رجال الإصلاح»[٤]. ولكن الأمة رفضت هذا الإجراء التعسفي، ولم تعره اهتمامها، واجتمعت مع الإمام في الجامع بالحجيج.

ولم يقف الأمر عند هذا فحسب، بل تعداه إلى منعها أعضاء الجمعية، والمنتمين إليها من أداء فريضة الحج. وكانت تسأل كل طالب لذلك: هل أنت

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٤٣. بتصرف.
(٢) صلاح العقاد: الجزائر المعاصرة، ص: ٣٠.
(٣) الصراط السوي: س ١، ع ٧، ص: ٦.
(٤) محمَّد خير الدين: مذكرات، ص: ٢٥٤.

مؤيد لجمعية العلماء؟. واحتج الإمام عن هذا المنع الجائر قائلاً: «إننا باسم الحق والعدالة، باسم الإسلام والإنسانية، نحتج ضد هذا الاضطهاد الديني الفظيع، وضد الوقوف في طريق أداء هذه الشعيرة الإسلامية الكبرى، وضد كل اضطهاد في الفكر والاعتقاد لأي كان»[1].

وبهذه القرارات التعسفية التي أصدرتها الإدارة الاستعمارية، ضد العلماء ومؤسسة الجمعية، وضد التعليم. وجد العلماء أنفسهم بين شرين ونارين «فإذا أقدموا على التعليم بلا رخصة، كان التغريم الثقيل والسجن الطويل جزاءهم. وإذا أحجموا واستسلموا، تم لأعداء الإسلام والعربية مرادهم. وقضوا على القرآن والإسلام، ولغة القرآن والإسلام قضاءهم»[2].

وأكدت هذه القرارات، سنة ١٩٣٥م؛ والتي عرفت باسم قرارات (رينييه)؛ والتي تقضي بتضييق الخناق على جمعية العلماء، وكل زعماء الحركة الوطنية، وكل الأشخاص الذين يظهرون تذمراً، ورفضاً لتطبيق القوانين والمراسيم، والتنظيمات وأوامر السلطة العامة، بتسليط عقوبات عليهم «تتراوح بين ثلاثة أشهر وعامين سجناً، وبين خمسمائة وخمسة آلاف فرنك غرامة»[3].

وكان من النتائج التي ترتبت عن هذه القرارات ـ التي أكدت ما صدر قبلها ـ أن لم تبق حرمة للإسلام ولغته، ومؤسساتهما ورموزهما؛ من العلماء والمشايخ والأساتذة، وحصلت انتهاكات صارخة وبشعة في حقهم جميعاً، وفي حق التعليم، وفي حق أبناء الشعب الجزائري، الذين يدرسون بمساجد ومدارس الجمعية، على مستوى التراب الوطني من حيث المكان، وعلى امتداد سنوات طويلة من حيث الزمان؛ مما يصعب علينا حصر وعد مخلفاتها وآثارها، على جميع المستويات. ويكفي أن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مايلي:

ـ ما حصل من اعتداء سافر على مسجد قنزات العتيق، قرب مدينة سطيف، من قبل قوات الأمن.

---

(١) البصائر: ع ١٥٠، ص: ٣٣٠.

(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٢٩٤.

(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٢٧.

ـ إهانة الشيخ عمر دردور، رئيس شعبة الجمعية بمدينة باتنة.

ـ ما حدث في ١٨ نيسان ١٩٣٨م من مأساة في مدينة الوادي؛ عندما تدخلت القوات الاستعمارية بقوة ضد سكان المدينة، واعتقلت الشيوخ: عبد العزيز الهاشمي، علي بن سعد، عبد القادر الياجوري، عبد الكامل بن الحاج بن عبد الله، وساقتهم جميعاً وبإهانات إلى سجن الكدية بقسنطينة دون محاكمة. ووضعوا مع المجرمين، حيث مكثوا فيه طويلاً. كما زجت بأعداد كبيرة منهم في سجن المدينة. ومما حدث أيضاً في هذه الأحداث الأليمة؛ أن حوالي ثلاثين امرأة أجهضت، وعطلت أسواق الوادي ومحلاته. ودامت عمليات العنف والاضطهاد ضد أهل الوادي؛ لالتفافهم حول الحركة الإصلاحية وعلماءها ثلاثة أسابيع كاملة، ذاقوا فيها أبشع صور القهر والتنكيل[١]. وكتب ابن باديس مقالاً ـ تذكيراً بقضيتهم ـ بعنوان (حول مساجين العلماء. هل في سجن الكدية ما يذكرنا بالباستيل). وذلك بعد مرور سنة وأربعة أشهر، على إيداعهم السجن ظلماً.

ـ غلق دار الحديث بتلمسان في ٥ كانون الثاني ١٩٣٨م، بأمر من الوالي العام في الجزائر.

ـ إصدار قرار محاصرة النوادي، وتضييق الخناق عليها في ١٣ كانون الثاني ١٩٣٨م، والذي يقضي منعها من بيع المشروبات، إلا بترخيص من الإدارة. هذه الأخيرة «التي كانت ترفض منح أي تسهيلات للنوادي العربية»[٢]. وسنت لها قوانين تعجيزية «حيث اشترطت هذه القوانين؛ أن يكون النادي مستكملاً لشروط صحية وغير صحية، قد لا تتوفر إلا في قصر الحاكم العام الفرنسي»[٣].

وكانت النتيجة ـ لهذا ـ أن أخليت من روادها ومعتاديها، وحرم ـ بالتالي ـ الكثير من الشباب والكبار من التهذيب فيها، بعدما حرموا منه في المساجد؛ لأنها قطعت عنها قنوات مواردها المالية، التي كانت تتمول منها.

---

(١) انظر تفاصيل الحادثة في البصائر: ع ١٢١، ص: ١ ـ٢ جويلية ١٩٣٨م.
(٢) عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء، ص: ١٦٥.
(٣) الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، ص: ١٤٥.

ـ قانون ٨ آذار ١٩٣٨م، والذي يعتبر أقسى وأفظع قانون أصدرته الإدارة الاستعمارية في حق التعليم الإسلامي والعربي، ومؤسساته والقائمين عليها. وكان ـ بحق ـ سهماً مسموماً أصاب الأمة في روحها، في صميم فؤادها، في مصدر حياتها وعزتها، وفي معقد البقاء منها. وكان ضربة قتالة للإسلام ولغته، ورجالهما في الجزائر.

صدر القانون عن حكومة شوطان؛ وهو عبارة عن مجموع قرارات تتضمن «إضافة عقوبات، ضد كل من يباشر التعليم العربي الديني بدون رخصة، في حين امتناع الحكومة عن إعطاء الرخص»[1]. وذلك بعد أن رأت الإدارة «تصميم الأمة على تعلم قراءتها، ودينها ولغة دينها، والقرآن، واستبسال كثير من المعلمين في سبيل القيام بواجبهم نحو الدين والقرآن، ولغة الدين والقرآن. واستمرارهم على التعليم، رغم التهديد والوعيد، ورغم الزجر والتغريم. لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم، وبذلوا جهودهم؛ حتى استصدروا هذا القانون، قانون العقاب الرهيب»[2]. الذي بالغ في تشديد شروط منح الرخص لفتح مدرسة، أو ممارسة التعليم والتدريس بها، أو بالمساجد. فكان الطالبون لها ـ وحسب القانون ـ يفاجأون «بالسؤال عن عقيدتهم، وما تنطوي عليه صدورهم، وعن آرائهم وأفكارهم، وهل هم من جمعية العلماء؟ وهل قرأوا على ابن باديس؟ وهل قرأوا على بعض تلاميذه؟ وهل عرفوه؟ وهل هم مشتركون في الشهاب؟ وهل هم مشتركون في البصائر؟ فإذا عرفوا منه شيئاً من هذا؛ تجمعوا له ورفضوا طلبه، وعرقلوا أعماله، وعاكسوه في مصالحه الخاصة، وكان عندهم من المبغوضين»[3]؛ لأنه لم تتحقق فيه الشروط والمواصفات التي يريدونها فيه، والتي ترضيهم وتنيله ـ لديهم ـ القبول الحسن.

وكان رد فعل ابن باديس السريع والقوي من هذا القانون، أن استصدر جريدة البصائر ليوم ٨ نيسان ١٩٣٨م على الصفحة الأولى منها مقال بعنوان كبير

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٣٢.
(٢) البصائر: س ٤، ع ١١٠، ص: ١.
(٣) البصائر: ع ١٥٠، ص: ٣٢٩، ٢٧ ـ١ ـ١٩٣٩.

جاء فيه (بالله :! للإسلام والعربية في الجزائر ! كل من يعلم بلا رخصة؛ يغرم ثم يغرم ويسجن!).

(قانون ٨ آذار. لكل من يطلب الرخصة لا يجاب. هذا عمل الإدارة الكثير المتكرر. مما جاء فيه «. . .وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية، عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي بحول الله في تعليم ديننا ولغتنا، رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء؛ فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا . وإننا على يقين من أن العاقبة ـ وإن طال البلاء ـ لنا، وأن النصر سيكون حليفنا»[1].

وكانت لمقاله هذا ردود أفعال قوية، شجبت صدور القانون «وارتفعت أصوات الاحتجاج والاستنكار، من جميع جهات القطر، وشاركت في ذلك جمعيات من قدماء المحاربين، وهيئات أخرى وبلديات عديدة، وتناولته النيابة العمالية بقسنطينة ووهران، ورفعت فيه النيابة المالية تقريراً بإجماع النواب»؛[2] وذلك لما شاهدوا نتائجه، وآثاره المأساوية، والتي ذكرها الإمام ابن باديس في خطاب له، أمام المجلس الإداري للجمعية، عندما قال لهم: «ذلكم القانون الذي شاهدتم آثاره في المدارس والمكاتب المغلقة، وأفواج الصبيان والصبيات المشردة، وفي وقفات المحاكم التي وفقتموها، والخطايا التي دفعتموها، والسجون التي دخلتموها. وما لقيتم وتلقون من جهد وعنت. أشهد أنه لم ترم الجزائر المسلمة بمثل هذا السهم، على كثرة الرمي وتفنن الرماة، لقد أدركت الأمة هذا والله، فلا أعرف مظلمة قوومت مثل هذه المظلمة، ولا جوراً ارتفعت له أصوات الأمة، مثل هذا الجور»[3].

وأغلقت دار الحديث بتلمسان، وتم نفي الشيخ البشير الإبراهيمي إلى آفلو بالجنوب الغربي، في ١٠ نيسان ١٩٤٠م، مع معاملته معاملة سيئة ،وبقي في المنفى ثلاث سنين تقريباً. ولم يطلق سراحه منه إلا في أول سنة ١٩٤٣م. ومثلها مدرسة القليعة وغيرهما كثير لا يمكن حصره.

(١) البصائر: ع ٨ نيسان ١٩٣٨م، ص: ١.
(٢) البصائر: ع ١٥٧، ص: ٣٤٠.
(٣) البصائر: س ٤، ع ١٦٣، ص: ١، ٢٨ ـ ٤ ـ ١٩٣٩م.

ورغم كل هذا لم يتوان ابن باديس في توجيه دعوة باسم الجمعية، من خلال البصائر، يدعو فيها «كل معلم مكتب قرآني، أو مدرسة، مُنِع من التعليم، وكل معلم نزعت منه رخصته، أو يكاتبنا بما وقع له من ذلك، ويعرفنا بتفصيله وجميع ما يتعلق به؛ لنسعى في نازلته، السعي المشروع»[1].

واعتبر يوم الثامن من آذار من كل سنة «يوم حزن وحداد، على تعليم الإسلام ولغة الإسلام»[2].

ولم ينج طلبة الإمام ابن باديس الذين يدرسون عنده، أو يزاولون دراساتهم بتونس أو المغرب من هذه الاجراءات؛ حيث شددت الإدارة متابعاتها لهم، وضايقتهم في تنقلاتهم وحركاتهم، وإلقاء القبض على بعضهم. «فكان طلاب معهد ابن باديس بقسنطينة، وطلاب جامعة القرويين بفاس، وطلبة جامعة الزيتونة بتونس، يستنطقون من قبل أعوان الاستعمار؛ حين كانوا يؤوبون إلى أهلهم بالقرى النائية، أثناء العطل الصيفية. وكانوا يتكالبون عليهم تكالباً، يجعل هؤلاء الطلاب المساكين، يقضون عطلهم في جحيم؛ بحيث لا يكادون يظهرون في الأماكن العامة، والأسواق علناً، إذ كانوا مطمئنين، إلى أن هؤلاء الأعوان كانوا يتربصون بهم الدوائر، ويرقبونهم في كل مكان»[3].

كل هذا يمارس في حق العلماء والتعليم؛ ليعود هذا الأخير إلى «الكيفية القديمة الخالية من كل تهذيب ذات العصا والفلقة والحصير، في العصر الذي تتقدم الأمم كل عام في أساليب التعليم، نرد نحن إلى الوراء. فاسمع ،وتعجب يا عصر المدنية والنور!»[4]. بينما يعامل اليهود الأقلية، بإجراءات مناقضة ومعاكسة لتلك، جملة وتفصيلاً «فكانت تسمح لليهود أن ينشئوا المدارس لأبنائهم. ولا تسمح للمسلمين بإنشاء مثلها لأطفالهم. في الوقت الذي تزعم فيه

(١) البصائر: ٨ ـ ٤ ـ ٣٨.

(٢) البصائر: ع ١٥٦، ص: ٣٣٥.

(٣) د. عبد المالك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر، ص: ٣٨.

(٤) الشهاب: ج ٤، م ١٤، ص: ١٠٣.

أن الدولة منفصلة عن كل صبغة دينية»[1]، وتتبنى النظام اللائكي (العلماني)؛ الذي يفصل بين الدين والسلطة السياسية.

وأصدرت الإدارة الفرنسية أيضاً في ٢٨ آب ١٩٣٩م، قانوناً يخص إصدار المطبوعات والمنشورات؛ أعطى للإدارة «الحق في مراقبة جميع المطبوعات، كما يمنحها حق وقف أو منع جميع المطبوعات. وأصبح كل من يخرج جريدة أو نحوها، لا بد أن يحصل على رخصة»[2].

ولا ننس أن ابن باديس شخصياً، توفي وهو تحت الإقامة الجبرية بقسنطينة؛ حيث منعته إدارة الاحتلال من مغادرة ترابها إطلاقاً[3].

ولم تستثن الإدارة الاستعمارية أي معامل؛ يمكن توظيفه في معادلة صراعها مع العلماء، وأي جهة يمكن الاستفادة منها واستغلالها في صفها ضدهم؛ خصوصاً وأنها قد وجدت بجنبها «حلفاء طبيعيين لها؛ من الذين هددت الحركة الإصلاحية تأثيرهم الديني التقليدي، أو مصالحهم الآنية»[4]، والذين عند اشتداد المواجهة السافرة بين العلماء والإدارة، وأمام «ضرورة اختيار الموقف السياسي الذي فرضته الظروف الداخلية، تسارعوا للانتظام علانية في جهة الإدارة، وإعلان ولائهم لها»[5]؛ خوفاً على مصالحهم ونفوذهم ومكانتهم. وأظهروا ـ أو تظاهروا ـ كراهية للعلماء، ورفضاً لهم، ومعارضة لنشاطهم.

كما استغلت الإدارة كل الجبهات؛ لإعلان حرب دعائية واسعة لتشويه العلماء، ورميهم بالتهم والشبهات، التي تقدح في سمعتهم لدى الرأي العام. «فأطلقت على الجمعية ألسنة أتباعها في المجالس المحلية، والجمعيات الطرقية،

(١) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٢٤٤.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية ج ٣، ص: ٣٣.

(٣) Ali MERAD: IBN BADIS commentateur du corant, P: 47.

وأسعد السحمراني: ابن نبي مفكراً إصلاحياً، ص: ٥٢.

(٤) Ali MERAD: Le reformisme muslman en ALGERIE, P: 159.

(٥) Ali MERAD: meme reference, P: 160.

والصحافة المضادة لهم، وحتى خريجي المدارس الفرنسية، ودعاة التجنيس بالجنسية الفرنسية»[1].

وأوعزت إلى بعض الأئمة المعينين في المساجد الرسمية من قبلها؛ لرفع دعاوى وشكاوى ضد العلماء، حتى تجد الإدارة في ذلك ذريعة لتدخلها، وتبريراً لمواقفها، التي تتخذها للتضييق، أو الحد من نشاطهم. وفعلاً وقع كبار ممثلي الأئمة الرسميين وثيقة؛ طالبوا فيها الإدارة التدخل لوقف نشاط العلماء بالمساجد، ومنعهم من التدريس والخطابة، ووضع حد لهم.

ويؤكد الإبراهيمي أن «كبرى المكائد التي دبرت للجمعية في تاريخ حياتها؛ المكيدة التي اغتالت الشيخ كحولا، واعتقلت الأستاذ العقبي»[2]. وذلك صبيحة يوم الأحد ٢ آب ١٩٣٦م؛ عندما عقد وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري بعد رجوعه من باريس، تجمعاً عاماً بالملعب البلدي؛ ٢٠ آب حالياً بالعاصمة، حضره حشد عظيم من الأمة والأئمة والعلماء، والذين شاركوا في المؤتمر الإسلامي العام، الذي انعقد في ٧ حزيران من السنة نفسها.

حادثة الاغتيال هذه، التي ذهب ضحيتها مفتي الجزائر، وإمام جامعها الكبير، ابن دالي محمود المدعو كحولا[3]، والتي من خلال تتبع ملابسات وقوعها، واستقراء تفاصيلها، يتبين أنها ليست حدثاً اعتيادياً؛ لأن «موضع الغرابة أن يكون المقتول فلاناً وأن يكون قتله في ذلك اليوم، وفي تلك اللحظة، التي هي منتصف العاشرة، والاجتماع لم ينفض بعد»[4].

والسؤال الذي يطرح إذن: من كان وراء اغتيال كحولا؛ ولماذا تم اغتياله، وفي ذلك اليوم بالذات؟ ولماذا اتُّهم الطيب العقبي باغتياله؟. لمعرفة إجابة وتفسيرات لهذه الأسئلة الكبرى والهامة، يجب علينا الرجوع إلى ما قبل حادثة

---

(١) د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، د ٣، ص: ٢٣.
(٢) محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج ١، ص: ٢٠٧.
(٣) كان يشغل منصب مفتي الجزائر العاصمة، وإمام الجامع الكبير بها.
(٤) محمَّد البشير الإبراهيمي: الآثار، ص: ٢٠٧.

الاغتيال هذه؛ لمعرفة الملابسات التي أحاطت بعملية الاغتيال ،وتركتها تأخذ أبعاداً تضفي عليها غرابة وتساؤلات.

فابن دالي محمود المدعو كحولا، كانت بينه وبين العلماء عامة، والطيب العقبي خاصة ـ بحكم وجوده بالعاصمة ـ اختلافات في الآراء؛ التي تخص ميدان الإصلاح، وبعض المسائل الفقهية. وهو كما يقول عنه الإبراهيمي: «نحن معه كشأننا مع بقية الناس؛ نرى رأياً في الدين، ويرى هو خلافه، والحكم بيننا هو الدليل. فإذا لم يقنع فأمره إلى الله. والرجل كما عهدناه، ذكي نزاع بطبيعته إلى الاستقلال الفكري. فلو تركته الظروف، لكان في عداد المصلحين»[1].

وحتى هذا الاختلاف بينه وبين العلماء؛ الذي دفعه لمعارضتهم معارضة شديدة، وأحياناً عنيفة. كانت هذه المعارضة منه، مصطنعة ومتكلفة؛ بحكم أنه «يجمع إلى وظيفه الديني وظيفاً آخر إدارياً. وكلتا الوظيفتين بطبيعتهما، لا تخلو من ملابسات واحتكاكات، تغرس لصاحبها البغضاء في نفوس أقوام، والمحبة في نفوس آخرين»[2].

ويبدو أيضاً، أن الإدارة الفرنسية كانت وراء اصطناع هذه المعارضة، واستغلال كحول في صفها؛ لخدمة هدفها في تقويض ومحاصرة نشاط العلماء، وإثارة الشبهات حولهما؛ بحكم أن الوظيفين الديني والإداري، اللذين كان يشغلهما تم بإرادة إدارة الاحتلال، وليس هذا فحسب، بل «دفعت فرنسا هذا الشيخ، لإرسال برقية إلى الحكومة الفرنسية؛ تتضمن عبارات قاسية ضد الوفد والمؤتمر، الذي عقده العلماء، ويتبرأ منهم، ويؤكد إخلاص المسلمين لفرنسا وموالاتهم لها»[3]. كما يندد فيها «بالعلماء الجزائريين؛ الذين ليس لهم لا مستندات ولا شهادات. . .ولا يمثلون سوى شرذمة من المشوشين، الذين يحاولون بث الفوضى في البلاد»[4].

---

(١) محمّد البشير الإبراهيمي: المرجع نفسه، ص: ٢٠٢.

(٢) محمّد البشير الإبراهيمي: المرجع نفسه، ص: ٢٠٢.

(٣) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس، ص: ١٣٨، وأحمد توفيق المدني: حياة كفاح ص: ٢٥٤.

(٤) شارل أندري جوليان: افريقيا الشمالية تسير، ص: ١٣٨.

ويظهر أيضاً أن هذه الاتهامات العنيفة منه للعلماء، وإرساله للبرقية[١] إلى الإدارة الفرنسية «لم تكن صادرة عن المفتي الضيق، بل كانت صادرة عن إدارة الأمور الأهلية»[٢]. كما يؤكد ذلك أحمد توفيق المدني، وهو يتكلم بلسان العلماء أنه «ما كان أحد منا يعتقد أن كحول هو كاتب البرقية، بل كنا جميعاً نعتقد أن الإدارة التي يعمل فيها، هي الكاتبة وهي المرسلة. وأن الشيخ كحول لم يكن له من الأمر إلا الإمضاء»[٣]. ويزيد الإبراهيمي هذا الأمر تأكيداً، ويصرح أن التلغراف الذي أرسله المفتي «كتب باسمه لا بيده»[٤].

ومن هنا استغلت الإدارة الفرنسية، الاختلافات المصطنعة بين إمام المسجد الكبير بالعاصمة، وبين الطيب العقبي خاصة، ووفد العلماء في المؤتمر الإسلامي عامة، كما استغلت ظروف انعقاد التجمع الشعبي بالملعب البلدي، وتضرب «عصفورين بحجر واحد. فأعدت قاتلاً محترفاً وجهته لقتل الشيخ كحول، واتهمت في الوقت ذاته جمعية العلماء، بتدبير جريمة القتل. وتم اعتقال الطيب العقبي، وألقي به في السجن»[٥]. ليمكث فيه ستة أيام بلياليها في التحقيق.

ولم يقف أمر الإدارة الفرنسية عند الاغتيال، واتهام الجمعية في شخص العقبي واعتقاله فحسب، بل تعدى أمرها ذلك، إلى القيام بإجراءات أخرى كان منها:

أولاً: تطويق نادي الترقي بالجند والشرطة، والدرك وتفتيشه.

ثانياً: طرد العلماء منه، وغلقه.

ثالثاً: إخراج العقبي منه مسلسلاً مهاناً أمام الناس، بكلمات سفيهة من قبل رئيس البوليس، وبعض أعوانه.

---

(١) نص الوثيقة عند: Ali MERAD: Le reformisme muslman en ALGERIE, P: 102. في الهامش، نقلاً عن عدالة سانت أوجان الجزائر رقم٤٥ ل ١ آب ١٩٣٦، ص: ١.

(٢) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ص: ٣٣٨.

(٣) أحمد حماني: المرجع نفسه، ص: ٣٣٨.

(٤) محمّد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج ١، ص: ٢٠٣.

(٥) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس، ص: ١٣٨ ـ١٣٩.

رابعاً: تفتيش إدارات جريدة البصائر، وجمعية العلماء، والجمعية الخيرية التي كان يرأسها العقبي، ثم غلقها. وكذا غلق إدارة البصائر، التي كان يرأس تحريرها.

خامساً: حجز دفاتر وأوراق الإدارات المذكورة.

سادساً: شن حملة إعلامية مشوهة، من طرف الجرائد الفرنسية «بعناوين ضخمة، وصور مثيرة؛ تصف الاغتيال بأنه مؤامرة واسعة النطاق، يديرها الوهابيون، وتصف العلماء بالإجرام والقتل»(1).

وقيام الإدارة الفرنسية بهذه الأعمال، وأمام مرأى ومسمع الحشود، التي كانت متجمعة أمام نادي الترقي، وإدارة البصائر ومكتب الجمعية الخيرية. أكد للعلماء خاصة، وللرأي العام عامة، أن المكيدة كبيرة وخيوطها جد معقدة. وأن الإدارة أيضاً تريد ضرب العلماء ومؤسسة الجمعية، وقيادة المؤتمر بقوة، فيقول الإبراهيمي كاشفاً ومقرراً: «شممنا رائحة الكيد من تلك اللحظة. . .ولم نندهش للتفتيش لعلمنا بنتائجه؛ وتيقنا وأنه شيء اقتضته الاجراءات العدلية. وإنما أخذناه دليلاً مجسماً على أن الحادثة رواية محبوكة الأطراف. وبعد التفتيش والختم، وقع اعتقال الأستاذ العقبي، فتجلت المكيدة، وتم تمثيل دورها الثاني في جو يدعو إلى الاستفزاز؛ الجمهور محتشد تتخلله قوات البوليس السري والعلني، ومن ورائه الحرس المدني، وقوات السنيغال بمعداتها»(2).

وأثارت حادثة الاغتيال، والاعتقال للعقبي، ردود أفعال داخلية وخارجية واسعة، استنكرت العملية، واتفقت على براءة العقبي، والعلماء فيها. ووصلت مئات البرقيات والرسائل الخاصة إلى العقبي بعد الإفراج عنه، وإلى الجمعية، مؤكدة امتعاضها، وتأسفها الشديدين على ما حدث.

واعتقد الرأي العام، أنه من المستحيل أن يثبت اتهام الجاني عكاشة

---

(1) محمّد خير الدين: مذكرات، ص: ٣٣٩. ومحمّد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج ١، ص: ١٨٩ ـ١٩٩ بتصرف.

(2) محمّد البشير الإبراهيمي، المرجع السابق، ص: ١٩٤.

للعقبي؛ بأنه محرضه ودافعه لارتكاب جريمة الاغتيال، واستند في ذلك إلى «أن الأستاذ العقبي، لو لم يمنعه دينه وتقواه مما وصمه به عكاشة، لمنعه شرفه وهمته ومروءته. ولو لم تمنعه هذه الثلاثة، لمنعه عقله وذكاؤه. فهل يعقل أن تهمة سخيفة كهذه، من مجرم كعكاشة، تعلق بمتحصن بهذه الحصون المنيعة كالعقبي، ويكون لها من القيمة، ما يُصيِّره متهماً بالإجرام. ومن الأثر ما يدخله سجن بربروس. ومن النتيجة أن يقال له بعد ستة أيام قضاها في السجن، أنت حر، ولكن تحت الطلب»[1].

والذي زاد تأكيد براءة العقبي، ومن ورائه العلماء والجمعية عامة من الجريمة، وأنها كانت محبوكة من طرف الإدارة الفرنسية، تراجع عكاشة الجاني عن تصريحه الأول، عند بدء التحقيق؛ والذي اتهم فيه العقبي، بأنه هو الذي أوعز إليه ارتكاب الجريمة، وأنه أعطاه الموسى التي قتل بها، وأنه وعده بثلاثين فرنك أجرة على القتل. وكان هذا التراجع في اليوم السادس من اعتقال العقبي؛ بعد أن حصلت مقابلة بينه وبين الجاني، بحضور قاضي التحقيق ومحاميي الأستاذ. «فلما مثل الجاني أمام القاضي، وألقى عليه الأسئلة في الموضوع، رجع عن تلك الوصمة التي رمى بها الأستاذ، واعترف اعترافاً صريحاً بأنه مبطل فيها، ومفتر على الأستاذ. وأنه يرجو منه في هذا المجلس، أن يسامحه ويعفو عنه. وأعلن أنه رجع عن الباطل إلى الحق»[2]. وبعدها تم الإفراج عن العقبي؛ لعدم وجود أدلة ضده وتبرئة الجاني له. هذا الأخير الذي لم يكن في حقيقة الأمر «هو القاتل، بل هو رجل وقع عليه الاختيار؛ ليقوم بتمثيل الدور القذر الذي كُلِّف به. ولم يقابل العقبي أصلاً، ومن البديهي أنه لم يتسلم منه خنجراً، ولا سكيناً»[3].

وكان مصير قضية الاغتيال وملفها بعد ذلك في المحكمة الفرنسية، أن وضع في أدراج العدلية؛ ليؤجل بث الحكم فيها إلى غاية حزيران ١٩٣٩م،

---

(١) محمَّد البشير الإبراهيمي: الآثار، ص: ١٩٦ ـ١٩٧.
(٢) محمَّد البشير الإبراهيمي: المرجع نفسه، ص: ١٩٥.
(٣) أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ص: ٢٥٥.

حيث حكمت المحكمة على الجاني عكاشة بالأشغال الشاقة المؤبدة. وبقي في السجن «ولم يطلق سراحه، في أواخر الخمسينيات»[١].

إذن! لماذا دبرت إدارة الإحتلال عملية الاغتيال، واتهمت العقبي - البريء منها - بها؟

عند النظر التقييمي للمؤتمر الإسلامي الجزائري، وأهميته التاريخية، والذي دعا ابن باديس إلى انعقاده بعد خمس سنوات من نشاط واسع وعميق لحركته الإصلاحية الجهادية، وللعلماء من خلال مؤسسة جمعية العلماء؛ ليكون هذا المؤتمر بمثابة «جهاز سياسي فوق الأحزاب، يجعل الإدارة الاستعمارية وجهاً لوجه مع الشعب الجزائري ذاته، لا مع القادة السياسيين»[٢]، وليقف في وجه دعاة الإدماج، خصوصاً بعد فوز الجبهة الشعبية في الانتخابات البرلمانية، واغترارهم بمشروعها الاندماجي.

هذا المؤتمر العام، الذي انعقد بحضور معظم الفعاليات السياسية والإدارية والاجتماعية والعلمية وحشد جماهيري اكتظت به أرضية ومدرجات الملعب البلدي أظهر حركة العلماء بمثابة «قوة معنوية، ومعامل سياسي»[٣] هام في الساحة الوطنية. ومن خلال خطبهم التي ألقوها في المؤتمر، ومشاركتهم الفعالة في لجنته التنفيذية، ووفده الذي سافر إلى باريس، اعتبروا «الممثل الأكثر أهلية للأمة الجزائرية المسلمة»[٤].

كما أظهر المؤتمر الفكرة الإصلاحية قوية متمكنة، متغلغلة في أعماق الشعب الجزائري، ملتفاً حولها. و «أعطى لفترة قليلة للحركة الإصلاحية تحكماً في الرأي العام الإسلامي الجزائري. ورفع رئيسه ابن باديس إلى القمة»[٥].

عند ذلك أدركت الإدارة الفرنسية، مدى نجاح العلماء وعلى رأسهم ابن

---

(١) الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية، ص: ١٦١.

(٢) مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص: ٦٥.

(٣) Ali MERAD: Le reformisme muslman en ALGERIE, P: 191.

(٤) Ali MERAD: meme reference, P:185.

(٥) مالك بن نبي: المرجع السابق، ص: ٦٥.

باديس، في عملهم الإصلاحي الجهادي، وأن هذا النجاح بلغ أوجه وانتصاره يوم افتتاح المؤتمر؛ الذي أعطى بعداً جديداً، وتحولاً نوعياً في مسار حركة العلماء، نحو العمل السياسي، الذي تريد باقتحامه ـ ولو بشخص ابن باديس فقط، دون الجمعية كمؤسسة، تأهيل نفسها؛ لأن تكون الممثل الشرعي والشعبي والمؤسساتي الوحيدة التي تتكلم باسم الأمة الجزائرية، وتمثل جميع مطالبها الدينية والسياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية. هذا النجاح، وهذه القوة وهذا الانتصار العظيمين للعلماء، بقيادة ابن باديس في المؤتمر، دفع الإدارة الفرنسية؛ للتدخل بقوة لوقف هذا الانتصار، والحيلولة دون مواصلة العلماء لسيرهم نحو أهدافهم البعيدة، التي يرمون تحقيقها. ولتشتيت هذه القوة الكبرى، التي جسّدت عمق اتحاد وتلاحم الشعب الجزائري مع قيادته الشرعية. هذه الأهداف التي تهدد المصالح الفرنسية، ووجودها وبقاءها مستقبلاً آمنة في الجزائر. فتدخلت واغتالت ـ بالواسطة ـ مفتي الجزائر كحولا، وأشاعت بذلك اضطراباً في الجمهور، وانقساماً في القيادة، وتشويهاً للعلماء «وأصبح هباء خلال شهر واحد، ما كافح من أجله الشعب الجزائري ربع قرن»[1].

وبعد هذا الحادث بأيام، وبالضبط في ١٠ آب، تتناقل الأنباء خبر محاولة اغتيال إمام آخر ـ بعد أن تبين أن الاغتيال الأول بحاجة إلى حادث تال له؛ حتى يبقى مفعوله سار ـ وهو الأستاذ الحبيباتني بقسنطينة مساء، وسط جموع الناس، مع نجاة الجاني عليه من أعين وأيدي الناس. هذا الحادث والذي تم قبله، دفعا ابن باديس للتصريح بأن التزامن والتسلسل للأحداث، التي وقعت بعد عودة وفد المؤتمر، تدفع ـ حتماً ـ نحو الاعتقاد بوجود مؤامرة خطيرة وواسعة، وغامضة الأبعاد، ضد العلماء خصوصاً، ووفد المؤتمر الممثل للأمة عموماً. فيقول: «إننا نعد بلهاء، إذا صدقنا بأن الحادث بسيط إلى هذا الحد، فنكتفي بسلامة الأستاذ الحبيباتني، وبسلامة الجاني عليه على السواء، وندعي أننا حصلنا على نتيجة حاسمة. إن الحوادث التي وقعت حول المؤتمر الإسلامي الجزائري، قد أثارت المخاوف، وقوت الشعور في سائر طبقات الأمة الجزائرية، بأن هناك سلسلة من

---

(١) مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص: ٦٥.

المؤامرات السرية، دبرت لإحباط مساعي المؤتمر، وقتل آمال الأمة في مهدها»[1].

وفعلاً حدث ما أرادت الإدارة الفرنسية حدوثه من الأحداث، التي افتعلتها وحركت خيوطها خفية، إذ «ما كان ينشر خبر الحادث ـ اغتيال كحول ـ حتى نكص الدكتور ابن جلول على عقبيه، وتنكر لأصحابه وشيعته، وقال: إنه لا يشترك في حركة تعمد إلى القتل، وإخماد الخناجر في قلوب المعارضين»[2]. وأدان بصفة مباشرة «جمعية العلماء بقتل كحول»[3].

وهكذا نجحت الإدارة الفرنسية بقيادة مدير شؤون الأهلية بالجزائر السيد ميو، من كيد كبرى المكائد للعلماء؛ بعد نجاحهم الكبير في جمع قوى الشعب وممثليه ـ على مختلف توجهاتهم ـ في أكبر وأضخم تجمع شعبي، شهدته الجزائر منذ دخول الاستعمار الفرنسي. هذا التجمع الذي كشف بوضوح قوة الجمعية والعلماء الشعبية والسياسية، وأنهم بدعوتهم رَبَّوا الشعب، وأعدوه إعداداً قوياً لمواجهتهم آنياً، أو مستقبلياً. واستطاع هذا المدير، الذي أتي به خصيصاً من التدريس بالجامعة في فرنسا، إلى تولي منصب إدارة الشؤون الأهلية بالجزائر؛ لمواجهة العلماء بحنكة سياسية وذكاء ودهاء. استطاع «أن يضرب جمعية العلماء في الصميم، وأن يشتت شملها شذر ومذر، بضرب أكبر رجالها في العاصمة؛ وهو الشيخ الطيب العقبي، ضربة لا قيامة بعدها»[4]؛ لأن اتهام الإدارة له بتدبير الاغتيال، واعتقاله فيما بعد، وإبقاءه في السجن قيد التحقيق القضائي «قضاء على شخصه وسمعته، وبالتالي على نشاطه، ومن وراء ذلك تشويه سمعة الجمعية، والإساءة إلى الحركة الإصلاحية. وزعزعة حركة المؤتمر الإسلامي»[5].

---

(١) محمَّد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية، ص: ١٦٦ ـ١٦٧.
(٢) أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ص: ٢٥٥، وبسام العسلي: عبد الحميد بن باديس، ص: ١٣٩.
(٣) محمَّد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة، ص: ١٥٤.
(٤) أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص: ٢٥٥.
(٥) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج ٣، ص: ٥٣.

ولم تشوه الإدارة سمعة الجمعية، وتلطخ بياض ثياب علمائها فحسب، بل نجحت في التأثير في نفسية العقبي؛ التي اهتزت لتلك الصدمة العنيفة، التي مست شخصه، واعتبرها إهانة له وحطاً من قيمته، ومنزلته أمام عزة نفسه، وأمام إخوانه العلماء، وأمام الشعب الجزائري عامة. والأكثر من ذلك «استطاعت فصله عن الجمعية، آملة أن الفصل يضعف الجمعية، إن لم يحطمها نهائياً»[1]. هذا الفصل الذي جاء بعد بداية فتور علاقته بالعلماء منذ سنة ١٩٣٧م، وظهرت بداية علاماته متجسدة، في موقفه المفاجئ والمحير عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية؛ عندما وقف ليبادر إخوانه العلماء، عند اجتماع مكتب الجمعية بقوله: «أرى أنه يجب علينا إرسال برقية إلى رئيس حكومة فرنسا، نظهر له فيها صدق عواطف الشعب الجزائري، ووقوفه مع فرنسا ضد كل عدوان»[2].

ولكن مكتب الجمعية برئاسة ابن باديس، عارضه في ذلك معارضَة مبدئية شديدة، ورد عليه ابن باديس قائلاً: «كيف نكون مع فرنسا، وهي التي لم تُقِم لنا وزناً، ولم تعترف لنا بحق، وأمعنت في إهانتنا واحتقارنا. فكيف تجدنا ساعة الخطر أعواناً وأنصاراً؟ ! يجب علينا أن نسكت عنها إطلاقاً، ولا نقول لها كلمة»[3].

وكان الموقف النهائي الذي قرره وخرج به مكتب الجمعية من اجتماعه، هو إيقاف جريدة البصائر عن الصدور؛ حتى لا ترغم وتحمل قسراً على التصريح بما يخدم إدارة الاحتلال، من قريب أو من بعيد؛ لأن «التعطيل خير من نشر الأباطيل»[4] على حد تعبير الإبراهيمي.

وهكذا تم اغتيال المؤتمر، باغتيال كحول «وألقته قتيلاً في مهده، بعد شهر فقط من ولادته، وتبخرت في لحظة تلك الوحدة المقدسة، التي ضمت في

---

(١) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس، ص: ١٤١.

(٢) بسام العسلي، عبد الحميد بن باديس، ص: ١٤١.

(٣) بسام العسلي: المرجع نفسه، ص: ١٤١.

(٤) د. محمَّد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، ص: ١٩٨.

صف واحد، كل القوى الشعبية بعد ربع قرن من سير حثيث موفق نحوها»[1]. وبدأ العلماء يخطون الخطوات الأولى نحو الانحراف بجهودهم وجهادهم، ويتحولون وتتحول معهم جموع الأمة، من مبدأ أداء الواجبات، إلى مواقف المتسولين المادين أيديهم مطالبين بحقوقهم «وبدلاً من أن تكون البلاد ورشة للعمل المثمر، والقيام بالواجبات الباعثة إلى الحياة، فإنها أصبحت منذ سنة ١٩٣٦م سوقاً للانتخابات. وصارت كل منضدة في المقاهي منبراً تلقى منه الخطب الانتخابية»[2] وصار من يقف خطيباً، أو ينطق متكلماً وسط جمع، إلا ويردد «إننا نريد حقوقنا، ولو مع جهلنا وعرينا ووسخنا»[3].

وتمزقت قيادة المؤتمر، فخرج منها فرحات عباس، وأسس حزب الاتحاد الشعبي. وانفصل ابن جلول عنها، وكوّن حزباً باسم المجتمع الفرنسي الإسلامي. ووقعت أزمة حادة بين النواب والعلماء.

---

(١) مالك بن نبي: مذكرات، ص: ٣٦٨.
(٢) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٣٤ ـ٣٥.
(٣) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٣٦.

الخاتمة

بعد هذا الاستقراء لمسار حركة ابن باديس الإصلاحية الجهادية، ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وبعد الدراسة والتحليل لمعطيات وملامح وخصائص هذا الجهاد المنهجي، الذي خاضه ابن باديس على مدار سبع وعشرين سنة كاملة. تفرض علينا ضوابط منهج البحث العلمي عامة، وخصوصيات البحث التاريخي والحضاري خاصة، أننا إذا أردنا تقييماً موضوعياً، وعلمياً لجهاد ابن باديس؛ فإنه يجب علينا الرجوع إلى الزمان والمكان، ومعطياتهما اللذين وجد فيهما، وفيهما تحرك وجاهد.

وأخو ابن باديس في الجهاد، محمد البشير الإبراهيمي نفسه، يؤكد لنا هذا الضابط المنهجي في الدراسة فيقول: «إن أقصر الناس نظراً، من يسقط في حكمه على الأشياء، اعتبار الزمان والمكان، والفاعل والقابل، والأوضاع الخصوصية. ولو ذكر هؤلاء الأمة الجزائرية في طورها الحاضر، ووضعها الحاضر، وذكروا كيف تساس؟، والقوانين التي بها تساس، وذكروا الجمعية وأنها تكونت في ليل من السياسة غاسق، وجو من مكائدها قاتم، وقاسوا يومهم بأمسهم، ونظروا من الأعمال إلى آثارها، ومن الآثار إلى اتساعها، ومن الاتساع إلى الحدود والآفاق، لكانوا في حكمهم أقرب إلى النصفة والمعدلة»[١].

لقد كان الاحتلال الفرنسي للجزائر احتلالاً شاملاً؛ ضرب الطول والعرض الجغرافيين لوطن الشعب الجزائري، وضرب عمقه أيضاً؛ بحيث لم يستثن مجالاً من مجالات حياته المختلفة، إلا وأخضعه ـ بقوة الحديد والنار ـ لسلطانه الجبار العنيد.

---

(١) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: البصائر، س ١، ع ٣٧، ص: ٦.

وكانت نتيجة سياسته الاستعمارية الاستيطانية، أنه كاد أن يمحو شعباً اسمه الشعب الجزائري، بكل مقوماته الذاتية. ووطناً اسمه الوطن الجزائري. «وكان يمكن أن تختفي الجزائر من الوجود، لولا أن قيض الله لها جمعية العلماء الجزائريين»[1]. وهذه الحقيقة التاريخية المرة، شهد بها ابن باديس نفسه؛ الذي يعتبر شاهداً على وضع وحال الشعب الجزائري، في أواخر القرن التاسع عشر، وإلى غاية ثلاثينات القرن العشرين الميلادي. فيقول عن نفسه؛ قبل أقل من سنة من وفاته، في تموز ١٩٣٩م: «لقد كان هذا العبد يشاهد قبل عقد من السنين، هذا القطر قريباً من الفناء؛ ليست له مدارس تعلمه، وليس له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه، بل كان في اضطراب دائم مستمر»[2].

هذا الوضع العام، الذي كان عليه الشعب الجزائري، لم يتغير بين عشية وضحاها طفرة. ولم يكن باستطاعة مؤسسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الثلاثينات ـ خصوصاً ـ إحداث نقلات نوعية ومنهجية فيه، لأنها هي نفسها لم تنشأ ولم تظهر هكذا مرة واحدة إلى الوجود، بل سبقها عمل تأسيسي قاعدي مدروس، قام به ابن باديس منذ رجوعه من الحجاز سنة ١٩١٣م، واستقراره بقسنطينة.

وعلى مدار ـ حوالي ـ عقدين من السنين، استطاع ابن باديس بجهاده المنهجي المتواصل، إعداد الأسس الضرورية والشروط الموضوعية، لقيام عمل مؤسساتي مخطط الأهداف، منظم المراحل، مدروس الوسائل.

وحتى جمعية العلماء في الثلاثينات، فإننا نعتبرها ابن باديس نفسه. فهو كفرد يساويها ـ من حيث الأهمية والفعالية ـ مؤسسة «فإذا تكلمنا عن جمعية العلماء خلال الثلاثينات، فالكلام في الواقع عن ابن باديس. ومن الممكن أن يزعم المرء، أنه لولا ابن باديس، لما تأسست جمعية العلماء»[3].

هذا ابن باديس، الذي اعتبره كثير ممن درس شخصيته الفذة، وتعمق في

---

(١) الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، ص: ١٣٦.
(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص: ٢٦٦.
(٣) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج ٣، ص: ٨٣.

جوانبها المختلفة، وتتبع مسار جهاده الطويل والشاق، ضد الاستعمار الفرنسي وأجناده. بأنه «واحد من كبار رجال الجزائر»[(١)]، وأنه «قمة من قمم الفكر الإسلامي الحديث»[(٢)]. كان بالنسبة للشعب الجزائري «القائد والموجه»[(٣)]. ونودي به «أستاذ السلفية، وطبيب الجماعة، والمصلح بلا منازع، وقائد النهضة الجزائرية، وموجه الحركة السلفية»[(٤)].

والدكتور عمار الطالبي، بعد دراسته المستفيضة لشخص ابن باديس وجهوده وآثاره، خلص إلى أن «ابن باديس أمة وحده، استطاع بمفرده أولاً، وبمساعدة إخوانه من العلماء ثانياً؛ أن يقوم بتربية جيل، وتكوين أمة، وتبصيرها بشخصيتها ومقوماتها. وهو الذي استطاع أن يضع أصول نهضتنا الفكرية والاجتماعية، والأخلاقية والسياسية»[(٥)].

وهذا البحث، وبعد الاستقراء والدراسة لجهاد ابن باديس للاستعمار الفرنسي في الجزائر، ومواقفه منه، توصلنا إلى جملة من النتائج هي:

أولاً: إن جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، لم يبدأ بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ٥ أيار ١٩٣١م، بل كان سابقاً لهذا التاريخ بكثير؛ فجهاده الفردي الذي بدأه بعد الرجوع من الحجاز، والاستقرار النهائي بقسنطينة سنة ١٩١٣م. وبالاتصال الدائم، والتعاون المستمر مع أخيه في الجهاد محمَّد البشير الإبراهيمي، كان بمثابة النواة الصلبة، التي تبلورت مع مرور الوقت، وأخذ هذا الجهاد طابعاً جديداً، وشكلاً متميزاً عن الأول؛ بتحوله النوعي من جهاد فردي بطولي، إلى جهاد جماعي مؤسساتي؛ بتأسيس الجمعية، بعد أن هيأ ابن باديس ـ خصوصاً ـ والإبراهيمي معه، وكذا باقي الرواد، الشروط الضرورية والأساسية لتحقيق هذا التحول النوعي في عمله

---

(١) ALI MERAD: IBN BADIS COMMENTATEUR DU CORAN p: 15

(٢) ALI MERAD: Le reformisme muslman em Algerie, P: 90

(٣) ALI MERAD: reference precedente, P: 15

(٤) Mahfoude kaddache: Histoir du nationalisme Algerien, P: 226

(٥) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ١٢٠.

الجهادي. ولولا هذه المرحلة الأولى، التي امتدت على فترة ثماني عشرة سنة، وما أفرزته من إفرازات على مستوى عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، لكان في عداد المستحيل، تأسيس جمعية العلماء.

ثانياً: هذا البحث، أوضح أن ابن باديس، في منطلق ومسار جهاده ضد الاستعمار الفرنسي، كان يمتلك رؤية استراتيجية بعيدة المدى، متعددة المراحل والأطوار، لطبيعة الصراع الحضاري الدائرة رحاه بين الشعب الجزائري، والإدارة الاستعمارية؛ بحيث لم يكن يرى في التربية والتعليم للناشئة خاصة، ولعموم الشعب الجزائري عامة، في المساجد والمدارس، وبنائها وفتحها، إلا هدفاً مرحلياً أولياً، تعقبه مراحل أخرى، يصل فيها ابن باديس، إلى توظيف فعال لكل وسيلة مشروعة، في سبيل التغيير النفسي، والاجتماعي الجذري المنشود على مستوى الفرد والمجتمع؛ من فتح النوادي، وتأسيس جمعيات فكرية وعلمية وثقافية، وإنشاء جمعيات تجارية، وتعاونيات اقتصادية ،تحقق معاً الاستقلال الاقتصادي ـ إضافة إلى الاستقلال الثقافي والفكري، لجميع شرائح الشعب الجزائري، إلى الاهتمام بمشاكل وشؤون المُهجَّرين والمهاجرين الجزائريين في فرنسا، إلى التفكير في بناء كلية، أو جامعة إسلامية تخرج للشعب الجزائري نخبة من العلماء الأكفاء، في العلوم النقلية والعقلية واللغوية؛ يكونون بمثابة المرجعية الفكرية لها في كل شؤون الحياة، ومجالاتها المختلفة. إلى التمكن من التمثيل الكلي للشعب الجزائري، للوصول في الأخير إلى استجماع الشروط النفسية والاجتماعية والمادية؛ لخوض الجهاد المسلح الشامل، وإعلان الثورة على فرنسا؛ لانتزاع الحقوق المسلوبة منها، واسترجاع السيادة الوطنية، كاملة غير منقوصة، في جانب من جوانبها.

ثالثاً: تركز جهاد ابن باديس أولاً، على الاعتصام بخندق الثقافة والفكر؛ بحكم أنهما العاصم الأول والأخير للشعب الجزائري، من الذوبان في حضارة وثقافة وفكر دولة الاستعمار.

فاهتم بالتربية والتعليم للناشئة ـ خصوصاً ـ بحكم أن خمائر التوجه الإسلامي، تصنع وتصقل في خلايا وكتاتيب القرآن الكريم والسنة النبوية،

ومدارس اللغة العربية. وهكذا تصنع الأجيال، وتعد لتحمل مسؤوليات المستقبل ـ القريب والبعيد ـ في رد العدوان وطرد الاستعمار وأجناده؛ لأن الثورة ـ في رؤية ابن باديس ـ بناء منهجي متكامل المراحل، لا عمل فوضوي مرتجل.

رابعاً: عمل ابن باديس على تأصيل عمق انتماء الشعب الجزائري، وتأكيد اعتصامه بمقومات شخصيته الذاتية ،وأصول هويته الحضارية والثقافية، المحددة لانتمائه، والمميزة لهويته. والتأكيد على الوحدة الدينية واللغوية، والوطنية للشعب الجزائري. فوقف ابن باديس بقوة في وجه إدارة الاحتلال؛ التي حاولت تشويه أو طمس هذه المعالم. كما وقف بنفس القوة ضد بعض الجزائريين، الذين انزلقوا في متاهة إنكار وجود الأمة الجزائرية، وعراقة انتمائها الحضاري، وتميزه.

خامساً: لم يواجه ابن باديس ـ ابتداء ـ إدارة الاحتلال الفرنسي، بل توجه ووجه جهاده أولاً، نحو جهاد بعض الطرق الصوفية والزوايا؛ الذين أعطوا ولاءهم للمستعمر، بعد أن صيَّرهم آلة طَيِّعة في يده؛ يأتمرون بأوامره، وينوبون عنه في القيام ببعض وظائفه؛ عندما أدرك دورهم الديني، وتأثيرهم الثقافي، وأثرهم التاريخي وثقلهم الاجتماعي.

هذا الجهاد، مكن ابن باديس من تحقيق نتيجتين هامتين؛ أولاهما: قطع الحبل السري بين إدارة الاحتلال وهذه الطرق؛ حتى تفشل الأولى وتوهن الثانية. وثانيهما: تحرير ضمير الشعب الجزائري من سلطان هذه الطرق، وإخراجه من براثن الشرك، التي آل إليها في عصور الضعف والتخلف، وشدَّته إليها هذه الطرق.

وهكذا نجح ابن باديس ـ إلى حد بعيد ـ بمفرده أولاً، وبمساعدة إخوانه العلماء ثانياً، في «تصحيح عقائد الأمة الجزائرية، وتطهيرها من شوائب الشرك القولي والعملي التي شابتها. فصحت العقائد، وصحت لصحتها الإرادات والعزائم»[1]. حتى «أصبح المنتسبون إلى الإصلاح، ولو من العامة، يخلصون

---

(١) محمّد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج ١، ص: ٢١٦.

لله في عباداتهم وأيمانهم ونذورهم وأدعيتهم. ونبذوا كل ما كانوا عليه من عقيدة فاسدة، أو قول مفترى، أو عمل مبتدع، في هذه الأبواب كلها. وأصبحوا يفرقون بين السنة والبدعة، والمشروع وغير المشروع. ويعتقدون أن الإنسان مجزي بعمله، رهين بكسبه»[1]. ووجد الشعار الذي رفعته جمعية العلماء ـ فيما بعد ـ كمَعْلَم هاد وضابط لمسارها التغييري الجذري؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ نتائجه الاجتماعية، وظهرت آثاره في كل خطوة «حتى أُشرِب الشعب في قلبه نزعة التغيير؛ فأصبحت أحاديثه، تتخذ شرعة ومنهاجاً. فهذا يقول: لا بد من تبليغ الإسلام إلى المسلمين. وذاك يعظ: فلنترك البدع الشنيعة البالية، التي لطخت الدين، ولنترك هذه الأوثان. وذاك يلح: يجب أن نعمل، يجب أن نتعلم، يجب أن نجدد صلتنا بالسلف الصالح، ونحيي شعائر المجتمع الإسلامي الأول»[2].

وكانت هذه الملامح، بمثابة بواكير جوهر التغيير الاجتماعي، داخل المجتمع الجزائري. ومن الواجب علينا الإقرار والاعتراف، بأن لجهاد ابن باديس الفضل الكبير، في «عملية تصفية ذلك القسط من راسبنا الثقافي السّلبي؛ المتمثل في النزعة المرابطية»[3].

سادساً: رغم عمل الاحتلال الفرنسي الحثيث؛ على توهين سلطان القرآن الكريم في نفسية الشعب الجزائري، بمحاربة تعليمه وحفظه ونشر علومه، إلا أن ابن باديس، ومن معه من العلماء، حملوا أعباء إعادة إحياء تعليمه، وتوسيع دائرته التأثيرية والاجتماعية، وتقوية وازعه في النفوس. رغم الإجراءات التعسفية لإدارة الاحتلال، وتضييقاتها ومنعها. ونجحوا «في إلفات الأمة إلى القرآن، وفي جمعها عليه، وحملها على التدبر في معانيه؛ لتأخذ منه كل نفس على قدر استعدادها، وتستنير من عبره وزواجره ما يسوقها إلى الخير، ويزعها عن الشر؛ حتى يكون المؤمن مسوقاً بالقرآن، مدَّبَراً به»[4].

---

(١) محمّد البشير الإبراهيمي: الآثار، ص: ٢١٦.
(٢) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٢٥.
(٣) مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص: ١٠٩.
(٤) محمّد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج ١، ص: ٢١٧.

واعتصام ابن باديس ـ في مقاومته ضد الاستعمار ـ بالقرآن، وجمع الأمة عليه، فيه عصم لها، وإرجاع لها إلى أصل قوتها ومنعتها، ومعقد بقائها؛ حتى أنها «إلى القرآن، تجدد نفسها، وتستأنف في الحياة تاريخها»[1].

ولم يستثن جهد وجهاد ابن باديس والعلماء، إحياء السنة النبوية ـ شقيقة القرآن الكريم ـ ونشرها، بل عملوا على «تبيين السنة النبوية المحمدية معنى ومفهوماً، وحمل الأمة على الرجوع إليها علماً وعملاً، والتمسك بالصحيح الثابت منها فعلاً وتركاً، والاهتداء بهدي السلف، الذين هم نقلتها وتراجمتها، والمؤتمنون على فهمها»[2].

سابعاً: كانت محاصرة إدارة الاحتلال الفرنسي للغة العربية وعلومها ـ تعليماً ونشراً ـ جدَّ قوي، فأضعفتها، وضيقت ـ إلى حد بعيد ـ تدريسها، وقمعت ـ بقوانينها وإجراءاتها التعسفية ـ كل من يسعى لإبقائها حية حيوية في المجتمع الجزائري، حتى اعتبرتها لغة أجنبية؛ لأن اللغة التي فرضتها بالقوة، هي لغتها.

«وأشرفت هذه اللغة الشريفة على الاضمحلال بهذه الديار، لولا أن تداركتها جمعية العلماء، وأخذت بيدها، وانتشلتها من الحضيض، الذي وصلته. فاستعادت على يدها شبابها، ووصلت بسبب الدين الحنيف أسبابها، وأصبحت الجزائر في مدة قليلة تفاخر أمصار العربية الكبرى ومنابتها الأصلية، بأدبائها وكتابها وشعرائها وخطبائها»[3]. وأحيت لغة الشعب في ضمير الشعب، وعلى ألسنة وأقلام أيدي أبنائه استعادت شبابها؛ حتى إنه «ليمكن أن يقال ـ بصدق ـ أن كل من يعرف اللغة العربية اليوم في الجزائر، مدين للعمل الضخم، الذي قام به هذا الداعية الدؤوب»[4]، ابن باديس.

---

(١) محمَّد البشير الإبراهيمي: الآثار، ص: ٢١٧.

(٢) محمَّد البشير الإبراهيمي: المرجع نفسه، ص: ٢١٧.

(٣) محمَّد البشير الإبراهيمي: المرجع نفسه، ص: ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٤) أنور الجندي: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص: ٢٩٠.

ثامناً: كان من الأهداف الثقافية، التي أرادت فرنسا تحقيقها في الجزائر، طمس وتشويه تاريخ الشعب الجزائري وجغرافية وطنه؛ حتى لا يبقى يعرف من تاريخه إلا ما كان قبل الفتح الإسلامي، وأن أجداده الأوائل هم الغاليون، وأن الجزائر أرض فرنسية، كانت في يوم من الأيام جزءاً لا يتجزأ من الأرض الأم فرنسا.

ولكن ابن باديس تنبه إلى أهمية تدريس تاريخ الجزائر، وخطورة عمل مثل هذا على المشروع الثقافي الفرنسي، فعمل على تدريس التاريخ الوطني الجزائري، خفية عن أعين جواسيس فرنسا؛ التي كانت تترصد حركاته وسكناته.

واستطاعت حركة ابن باديس الجهادية، أن تحفظ للأمة مقومات شخصيتها وذاتيتها من كل مسخ ومسح، وتشويه وتغريب؛ حتى أن الشيخ أحمد المزهود يؤكد حقيقة تاريخية ناصعة في حركة ابن باديس الجهادية، التي كانت درعا واقياً لشخصية الأمة، من كل ضربات وسهام الاستعمار فيقول: «رحم الله ابن باديس؛ فقد علمنا تاريخ هذه الأمة في الدهليز، ولقد كان شديد الحرص على أن يتعلم الطلبة تاريخ بلادهم وأجدادهم. وأذكر جيداً أن ابن باديس كان يغلق أبواب المسجد أثناء تدريس هذه المادة لكي لا تعلم فرنسا والأعداء بذلك»[1].

وليس هذا فحسب، بل شجع كتابة وتأليف ونشر المقالات والكتب التاريخية؛ مثلما فعل عندما أرسل إلى المؤرخ مبارك بن محمَّد الميلي رسالة شكر وتقدير، عندما وقف على إصدار الجزء الأول من كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، وتمنى أن لو سماه (حياة الجزائر)؛ لأنه بتأليفه، قد أحيا شعباً وأمة. وذلك سنة ١٩٢٨م.

ويمكننا القول ـ جازمين ـ أن «من المساهمات الهامة، التي قام بها العلماء خلال العشرينات، خلق وبعث التاريخ الوطني؛ فبفضلهم نشر الماضي الجزائري، وعرفه الطلاب»[2]. وحفظ للشعب الجزائري أحد أهم ركائز شخصيته الوطنية، الجزائرية المسلمة العريقة.

---

(١) من شهادة الشيخ أحمد المزهود، جريدة الفجر، ٧ ـ١٢ ـ٨٩، ص: ٨.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج ٢، ص: ٤٢٥.

تاسعاً: إن الاستعمار الحضاري، والغزو الثقافي الذي تعرضت له الجزائر من قبل فرنسا، مس جميع جوانب حياتها، ولم يستثن التأثير السلبي في أخلاق أبنائها الأصيلة. فعمل على تخريب كل من الأخلاق الفردية وشبكة العلاقات الاجتماعية، وزرع مشين لأقواله وأفعاله، في أوساط الشباب خاصة، وعموم الشعب عامة.

فكان أن أولت حركة ابن باديس الجهادية هذا الجانب الجوهري، في بناء الشخصية الفردية والمجتمعية اهتمامها. وكانت نتيجة الجهود الدعوية والتعليمية والتثقيفية لها، أن «انبعثت حركات، الهدف منها إزالة كل منكر لا سبله العقيدة، ولا يقره الذوق العام؛ ومن ذلك حركة محاربة الخمور وبيعها. حتى لم يجد باعة تلك السموم، حيلة يفرون بها من هجوم الحركة الإصلاحية، إلا أن يلجأوا إلى الحكومة حوالي عام ١٩٢٧م، محتجين بأن إيرادهم تناقص، وأن تجارتهم بارت. وبدأت فعلاً المساجد تمتلئ برواد الخمارات، كما أن الحلقات الدرسية الليلية قد عمرت، بأولئك الذين انصرفوا، عن حلقات الدراويش»[١].

وصار الشباب ـ خاصة ـ بعد أن انتشرت الحركة الدعوية، واستوعبت أعداداً هائلة منهم، «يتنافسون، ويفاخر كل واحد أخاه في قيامه بشعيرة من الشعائر الإسلامية حق قيام؛ مثل الصلاة والصوم وما إليها. وإننا كم من أولئك الشبان المتمردين رأيناهم ـ يؤكد ابن باديس ـ منذ انبثاق فجر الإصلاح، وعُرِفَ ما هو الإسلام، يؤدون الصلاة في أوقاتها، ويقومون بشعائر الدين الإسلامي، ويتبارون فيها»[٢].

وأصبح العلماء المرجعية الشرعية للأمة في كل شؤونها، تستفتيهم «في كل صغيرة وكبيرة، وحتى الأمور الخطيرة؛ من مثل أخذ الأجرة من عند القائد. وحكم الشرع في دفن أبناء المتجنسين بالجنسية الفرنسوية، في مقابر المسلمين»[٣].

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٣٤.

(٢) وزارة الشؤون الدينية: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج ٣، ص: ٢٥٥.

(٣) د. عمار الطالبي: عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، ج ٤، ص: ٤١١.

عاشراً: كشف هذا البحث مدى مقاومة ابن باديس لقانون التجنس بالجنسية الفرنسوية، وما تضمن من إغراءات جذابة؛ لتحويل أعداد من أفراد الشعب الجزائري عن دينه، وفتح باب الانسلاخ عن عقيدته.

ورغم أن التجنس لم يلق قبولاً حتى من قبل ابن باديس، إلا أنه لم يتساهل في أمر كهذا. وأصدر فتواه الشهيرة فيه، والتي كانت بمثابة الخط الأحمر، الذي يردع ويزجر كل جزائري، تسول له نفسه تجاوزه.

وبذلك ضرب ابن باديس بقوة الشرع وقيوميته، وهيبة العالم، هذا القانون وشل مفعوله - في وقته ومن بعد - في الواقع الاجتماعي والسياسي الجزائريين.

حادي عشر: لم يتوان ابن باديس في إظهار مقاومة باسلة، بكل ما أوتي من وسائل وأساليب، لقوانين فرنسا الجائرة، التي كانت تصدرها إدارتها ضد تعلم وتعليم الدين والعربية وعلومهما، مثلما فعل مع قانون الثامن من آذار المشؤوم من سنة ١٩٣٨م.

كما قاوم وفضح الإجراءات الظالمة، والحملات القمعية التعسفية، التي كانت تشنها الإدارة الفرنسية ضد الجمعية، وعلمائها ومعلميها، أو حتى معلمي القرآن والعربية في مناطق الوطن البعيدة النائية، من المتطوعين غير الأعضاء في الجمعية. هذه الإجراءات التي طالتهم؛ إما بالتغريم، أو التوقيف منعاً من التعليم، أو السجن، أو النفي والإبعاد، وغلق المدارس، أو الكتاتيب القرآنية، أو الأقسام الدراسية، وتشريد صبيانها وصبياتها، في الأزقة والشوارع.

ثاني عشر وأخيراً: إن ابن باديس كان يرى نفسه من خلال جهاده للاستعمار الفرنسي في الجزائر، ومن خلال الوسائل والأساليب التي اتخذها في هذا الجهاد، والمراحل التي قطعها على مدار سبع وعشرين سنة، أنه بصدد إعداد بناء، يستغرق إنجازه وقتاً ومراحل، تكون آخرها الوصول إلى انتزاع الاستقلال الوطني، واسترجاع السيادة الوطنية. وهذا ما أوضحه بقوة، عندما قال لجمهرة من الشباب الجزائري المتحمس للقتال، ذات يوم من عام ١٩٣٣م «إن من أراد أن يبني داره، فعليه أن يبني الأسس والجدران أولاً، ثم يشيد السقف

على تلك الجدران. ومن أراد أن يبني شعباً ويقيم أمة، فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف»[١].

وفي معرض رد ابن باديس على مصالي الحاج، الذي كان يطالب بالاستقلال ـ ارتجالاً واستعجالاً ـ بين له أن الهدف الاستراتيجي لحركته الجهادية، هو تحقيق الاستقلال الكامل والشامل. فقال له: «وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل، أن يتركه بدون سقف. وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال»[٢].

وعلى هذا الأساس، وبناء على ما تم تفصيله في البحث، فإنه يمكننا القول جازمين بقوة، إن حركة ابن باديس الجهادية المنهجية، «كانت الواضعة للإسفين الأول في نعش الاستعمار»[٣].

واتجاه ابن باديس ـ ابتداء ـ إلى التربية والتعليم، وتكوين جيل النصر المنشود، في الكتاتيب القرآنية والمساجد والمدارس والنوادي، ومن خلال الصحف والمجلات؛ لأنه كان يعلم «أن هذا الميدان هو الذي يكون الثورة»[٤]؛ بحكم أنه كان يقول بصريح العبارة: «أنا أحارب الاستعمار لأني أُعلِّم وأُهذِّب. ومتى انتشر التعليم والتهذيب في أرض أجدبت على الاستعمار، وشعر في النهاية بسوء المصير»[٥].

كما يمكننا القول: إن ما قام به ابن باديس، وقدمه من جهد وجهاد، كان بمثابة إعداد فعال لوسيلة تفجير الثورة؛ لتكون مهيئة للفترة المناسبة والجيل المؤهل؛ لتوظيفها كما يجب. والحقيقة ـ كما يؤكد الشيخ أحمد سحنون ـ «أنه لولا جمعية العلماء، لما كانت الثورة. فهي التي كانت تشكل المرحلة الإعدادية للثورة. حزب الشعب مثلاً كان يبحث عن الغاية فقط، دون السؤال عن

---

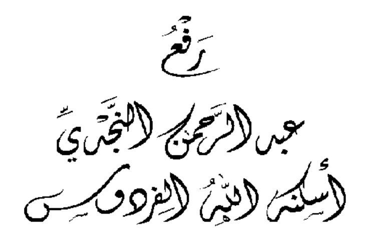
(١) محمّد خير الدين: مذكرات، ج ١، ص: ٣٨٤.
(٢) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج ١، ص: ٨٩.
(٣) الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، ص: ١٤٦.
(٤) أحمد حماني: حوار، جريدة الحقيقة، ع ٢، ص: ٩.
(٥) صلاح الدين الجورشي، تجربة في الإصلاح، ص: ٣٣.

الوسيلة. في حين أن الجمعية كانت تتخذ من الوسيلة، مطية للوصول إلى الهدف»[1].

فثورة الفاتح من تشرين الثاني التحريرية من عام ١٩٥٤م، جاءت وقد وجدت الجيل المؤهل للقيام بها، وخوض غمارها، معداً كامل الإعداد «ولم يكن ثوار الجزائر، إلا أبناء هذا الجيل، الذي ربته مدارس جمعية العلماء ونواديها، في الجزائر وفي فرنسا، ولم تكن الثورة التحريرية نفسها، إلا جزءاً من الخطة العامة الواسعة، التي رسمت خطوطها تلك العقول الكبيرة، التي أسست هذه الجمعية. وليس أعظم ثوار الجزائر بطولة، إلا تلاميذ بررة لجمعية العلماء، ومنفذين مخلصين لخطتها الحكيمة»[2].

وفي الأخير نقول: إن ابن باديس يعتبر بحق محيي شعب، وباعث حضارة إلى الوجود. ومعلم أجيال، وحامي حمى الدين واللغة والوطن، في أرض الجزائر. كما «يعد القائد الحقيقي، والأب الروحي لتلك الثورة»[3] المجيدة، ثورة تشرين الثاني ١٩٥٤ الخالدة.

والحمد لله رب العالمين...



---

(١) أحمد سحنون: حوار، جريدة الحقيقة، ع ٣، ص: ٤.

(٢) محمّد الطاهر فضلاء: أعلام الجزائر الإمام الرائد الإبراهيمي، ص: ١٥٠، ويذكر د. محمّد فتحي عثمان في كتابه عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الاسلامية في الجزائر المعاصرة، عدداً لا بأس به من أسماء كبار الرجال الذين تخرجوا في مدارس جمعية العلماء وكانوا ضباطاً في جيش التحرير، وشغلوا مناصب حساسة وهامة في الإدارة الجزائرية بعد الاستقلال، انظر كتابه، ص: ٨٩ ـ٩٠.

(٣) د. محسن عبد الحميد: تجديد الفكر الإسلامي، ص: ٩٥.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

ملحق

تعريف موجز بالدوريات الواردة في البحث

الإخلاص: الجزائر: ١٩٣٢، ١٩٣٣م، صدرت في ١٤ كانون الأول سنة ١٩٣٢م، تحت إشراف الأستاذ المولود ابن الصديق الحافظي الأزهري، وإدارة السيد عمر إسماعيل. أصدرها تجمع رجال الزوايا، بعد الانشقاق الذي وقع بينهم وبين جمعية العلماء. ولم تستمر في الصدور سوى قرابة السنة أو أقل». د. محمَّد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، ص: ١٢٤، ١٢٦.

الإسلام: الجزائر: جريدة أسبوعية ظهرت بعنابة في تشرين الأول ١٩١٠م، ثم تحولت إلى العاصمة في كانون الثاني ١٩١٢م. صدرت عن شباب جزائري، وعلى رأسهم الصادق دندان. توقفت نشرتها العربية عن الصدور سنة ١٩١٣م، بينما استمرت نشرتها الفرنسية حتى تشرين الثاني ١٩١٤م». د. محمَّد ناصر: المرجع السابق، ص: ٣٥، ٣٦.

الإصلاح: بسكرة ثم الجزائر: ١٩٢٧، ١٩٤٨م. أصدرها الشيخ الطيب العقبي؛ للعمل على تحطيم الخرافات، وهدم الأوهام، وتهذيب الرأي العام. كان من كتابها مبارك الميلي، محمَّد الأمين العامودي، محمَّد السعيد الزاهري. كانت تصدر مرتين في الشهر، وعلى فترات متقطعة. وتوقفت عن الصدور في ٣، ٣، ١٩٤٨م، بعد أن صدر منها ما يقرب ٧٣عدداً ». د. محمَّد ناصر: المرجع السابق، ص: ٨٥، ٩١.

الإقدام: الجزائر ١٩٢٠، ١٩٢٣م. صدرت في شباط ١٩١٩م باللغة الفرنسية؛ بغية توحيد القوى الوطنية في سبيل الدفاع عن الحقوق السياسية والاقتصادية لمسلمي شمال افريقيا. أصدرها الصادق دندان والحاج عمار،

والأمير خالد. توقفت عن الصدور نهائياً في آذار ١٩٢٣م، بعد أن صدر منها حوالي ١٢٠ عدداً». د. محمَّد ناصر: المرجع السابق، ص: ٤٦، ٥٠.

الأمة: الجزائر: ١٩٣٣، ١٩٣٨م. أصدرها أبو اليقظان امتداداً للنبراس المصادرة أسلوباً ومضموناً. وتوقف إصدارها بتاريخ ٢٤ أيار ١٩٣٨م. د. محمَّد ناصر: المرجع السابق، ص: ١٦٣، ١٧٩.

البلاغ الجزائري: مستغانم ثم الجزائر: ١٩٢٦، ١٩٤٣م. صحيفة علمية إرشادية دفاعية. أسسها أحمد بن عليوة شيخ الطريقة العليوية؛ لتكون لسان حال هذه الطريقة التي أخذت الصحافة الإصلاحية تهاجمها منذ سنة ١٩٢٥م. د. محمَّد ناصر: المرجع السابق، ص: ٨٠، ٨٣.

الجحيم: قسنطينة: ١٩٣٣م. أصدرتها جماعة من الشباب الإصلاحي؛ لترد على جريدة المعيار بأسلوب مثل أسلوبها، وبطريقة مثل طريقتها. وكانت تطبع بطريقة سرية بمدينة قسنطينة. عطلت فرنسا صدورها، بعد صدور العدد السابع منها، بقرار من وزارة الداخلية. د. محمَّد ناصر: المرجع السابق، ص: ١٣٣، ١٣٤.

الجزائر: الجزائر: ١٩٠٨م صاحبها هو عمر راسم. وتعد من الصحف الإصلاحية. صدر منها عددان اثنان فقط. د. محمَّد ناصر: المرجع السابق، ص: ٣٢.

ذو الفقار: الجزائر: ١٩١٣، ١٩١٤م. أصدرها عمر راسم تحت اسم مستعار، هو ابن المنصور الصنهاجي. وهي جريدة اجتماعية دينية حارة اللهجة. توقفت عن الصدور بعد العدد الرابع منها.

د. محمَّد ناصر: المرجع السابق: ص: ٣٨، ٤٢.

صدى الصحراء: بسكرة، ١٩٢٥ ـ١٩٢٦ ثم ١٩٣٤. وهي جريدة أسبوعية تعتبر أول جريدة إصلاحية أصدرتها مدينة بسكرة كان أحمد بن العابد العقبي مديرها ورئيس تحريرها.

د. محمَّد ناصر: المرجع السابق: ٦٢، ٦٥.

المعيار: بسكرة: ١٩٢٥، ١٩٣٣م ظهر العدد الأول منها بالعاصمة، في ١٨ كانون الأول ١٩٣٢ بعد أربعة أيام فقط من ظهور جريدة الإخلاص. صدرت لغاية انتقالية؛ دفاعاً وهجوماً ضد جمعية العلماء. وتوقفت عن الصدور في أوائل حزيران ١٩٣٣م.د. محمَّد ناصر: المرجع السابق، ص: ١٢٦، ١٣٠.

المنار: جريدة أسبوعية. أنشأها محمَّد رشيد رضا في ١٨٩٧م ، وحولها في عامها الثاني إلى مجلة شهرية. صدر منها ٢٥ مجلداً. وعرفت باتجاهها الديني. واشترك في تحريرها الأمير شكيب أرسلان، ومصطفى صادق الرافعي. محمَّد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، ص: ١٧٤٦.

النجاح: قسنطينة: ١٩١٩، ١٩٥٦م. ظهرت أسبوعية في أول أمرها، ثم ٣ مرات في الأسبوع. وفي سنة ١٩٣٠م تحولت إلى جريدة يومية. وتعد الجريدة العربية اليومية التي ظهرت في القطر الجزائري قبل الاستقلال. كانت متنوعة المقالات، وغير واضحة المبدأ والاتجاه. د.محمَّد ناصر: المرجع السابق، ص: ٤٣، ٤٥.

وادي ميزاب: الجزائر: ١٩٢٦، ١٩٢٩م. وهي جريدة إصلاحية أصدرها أبو اليقضان في ١ تشرين الأول ١٩٢٦م. أوقفتها الإدارة الفرنسية عن الصدور؛ نظراً لصراحتها ونزاهتها، وصدعها بالحق في أيار ١٩٢٩م.د. محمَّد ناصر: المرجع السابق، ص: ٦٥، ٧٩.

فهرس الدوريات

قائمة مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر

١ ـ عبد الحميد بن باديس: جريدة المنتقد ١٩٢٥م ـ ١٩٢٧م.

٢ ـ عبد الحميد بن باديس: جريدة الشهاب ١٩٢٥م ـ ١٩٢٥م.

٣ ـ عبد الحميد بن باديس: مجلة الشهاب ١٩٢٩م ـ ١٩٣٩م.

٤ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: جريدة البصائر ١٩٣٥م ـ ١٩٣٩م.

٥ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: جريدة السنة النبوية ١٩٣٣م.

٦ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: جريدة الشريعة المطهرة ١٩٣٣م.

٧ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: جريدة الصراط السوي ١٩٣٣م ـ ١٩٣٤م.

٨ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: سجل مؤتمر جمعية العلماء دار الكتب، الجزائر ١٩٨٢م.

٩ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: القانون الأساسي، ملحق عربي فرنسي سجل مؤتمر الجمعية.

١٠ ـ مجموعة جريدة البصائر، السنة الأولى، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨٤م.

ثانياً: محادثة شخصية

١ ـ محمَّد العربي بوزيد: محادثة شخصية، قسنطينة ١٢ كانون الثاني ١٩٨٩م.

ثالثاً: المراجع العربية

١ ـ د. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٦م.

٢ ـ د. أبو القاسم سعد الله: دارسات في الأدب الجزائري الحديث، الطبعة الثانية، دار الآداب ١٩٧٧م.

٣ ـ د. أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، دار نافع للطباعة ١٩٧٦م.

٤ ـ د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني ١٩٠٠ ـ ١٩٣٠م. الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٣م.

٥ ـ د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثالث ١٩٣٠م ـ ١٩٤٥م، الطبعة الثالثة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٦م.

٦ ـ أبو القاسم محمَّد الحفناوي بن إبراهيم الغول: تعريف الخلف برجال السلف، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة والمكتبة العتيقة ١٩٨٢م.
٧ ـ أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨٤م.
٨ ـ أحمد الخطيب: الثورة الجزائرية، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٨م.
٩ ـ أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها الإصلاحي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٥م.
١٠ ـ أساتذة: نوابغ العرب، الشيخ عبد الحميد بن باديس، العدد ١٤، دار العودة، بيروت ١٩٧٦م.
١١ ـ أسعد السحمراني: ابن بني مفكراً إصلاحياً، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت ١٩٨٤م.
١٢ ـ أنور الجندي: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري ١٩٧٩م.
١٣ ـ د. أنيسة بركات درار: أدب النضال في الجزائر من سنة ١٩٤٥ حتى الاستقلال، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤م.
١٤ ـ بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، الطبعة الأولى، دار النفائس ١٩٨٢م.
١٥ ـ حسن عبد الرحمان سلوادي: عبد الحميد بن باديس مفسراً، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤م.
١٦ ـ د. حسنين محمَّد محمَّد: الاستعمار الفرنسي، الطبعة الرابعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٦م.
١٧ ـ د. رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الطبعة الرابعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤م.
١٨ ـ سليمان الصيد: صالح بن مهنا القسنطيني حياته وتراثه، الطبعة الأولى، دار البعث، قسنطينة الجزائر ١٩٨٣م.
١٩ ـ شهاب الدين أبو العباس الصنهاجي المشهور بالقرافي: الفروق، الجزء الرابع، دار المعرفة، بيروت.
٢٠ ـ شوقي أبو خليل: الإسلام وحركات التحرر العربية، الطبعة الرابعة، دار الفكر، بيروت ١٩٨٥م.
٢١ ـ د. صالح خرفي: صفحات من الجزائر دراسات ومقالات من ١٩٦٢م إلى ١٩٧٢م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
٢٢ ـ صلاح الدين الجورشي: تجربة في الإصلاح (ابن باديس)، دار الراية للنشر، تونس ١٩٧٨م.

٢٣ ـ صلاح العقاد: الجزائر المعاصرة، مطبعة الرسالة.
٢٤ ـ د. طه الحاجري: جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر، معهد البحوث والدارسات العربية، القاهرة ١٩٦٨م.
٢٥ ـ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، الطبعة الثانية، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت ١٩٨٠م.
٢٦ ـ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، الطبعة الثالثة، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت ١٩٨٣م.
٢٧ ـ د. عبد الحليم عويس: العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري (متابعة نقدية)، الطبعة الأولى، مكتبة الفلاح ١٩٨١م.
٢٨ ـ د. عبد الحميد محسن: تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة للنشر.
٢٩ ـ عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر الفترة الأولى ١٩٢٠م ـ ١٩٣٦م، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤م.
٣٠ ـ عبد الرحمان بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء السابع، المجلد الرابع، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٦م.
٣١ ـ عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، الطبعة السادسة، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣م.
٣٢ ـ عبد العزيز السيد سالم: تاريخ المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، الجزء الثاني، دار النهضة العربية ١٩٨١م.
٣٣ ـ عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٣١م ـ ١٩٤٥م، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨١م.
٣٤ ـ د. عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، الطبعة الأولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨١م.
٣٥ ـ د. عبد الله شريط ومحمَّد مبارك الميلي: مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
٣٦ ـ د. عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر ١٩٢٥م ـ ١٩٥٤م، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٣م.
٣٧ ـ د. عثمان محمَّد فتحي: عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة، الطبعة الأولى، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٨٧م.
٣٨ ـ العربي التبسي: مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع وتعليق د. شرفي أحمد الرفاعي، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨١م.
٣٩ ـ علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية.

٤٠ ـ علال الفاسي: محاضرات في تاريخ المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى، مطبعة النهضة، مصر ١٩٥٥م.
٤١ ـ د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣م.
٤٢ ـ د. عمر بن قينة: شخصيات جزائرية، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨٣م.
٤٣ ـ الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، دار الهدى للطباعة والنشر عين مليلة، الجزائر ١٩٩٢م.
٤٤ ـ د. فهمي جدعان: أسس التقدم الاجتماعي عند مفكري الإسلام، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١م.
٤٥ ـ مالك بن نبي: آفاق جزائرية، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر.
٤٦ ـ مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق ١٩٧٨م.
٤٧ ـ مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، بيروت.
٤٨ ـ مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، بيروت.
٤٩ ـ مالك بن نبي: في مهب المعركة، دار الفكر، بيروت ١٩٨٥م.
٥٠ ـ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت ١٩٨٤م.
٥١ ـ مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، دار الفكر، بيروت ١٩٧٤م.
٥٢ ـ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، بيروت ١٩٨١م.
٥٣ ـ مبارك بن محمَّد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمَّد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٦م.
٥٤ ـ مبارك بن محمَّد الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، الطبعة الثالثة، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨٢م.
٥٥ ـ المدني، أحمد توفيق: حياة كفاح مذكرات، القسم الثاني في الجزائر ١٩٢٥م ـ ١٩٥٤م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
٥٦ ـ المدني، أحمد توفيق: كتاب الجزائر، الطبعة الثانية، دار الكتاب الجزائري ١٩٦٣م.
٥٧ ـ محمَّد البشير الإبراهيمي: الآثار، الجزءان الأول والثاني، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٧٨م.
٥٨ ـ محمَّد بن الأزرق أبو عبد الله الأندلسي: بدائع السلك وطبائع الملك، دراسة وتحقيق د. محمَّد بن عبد الكريم الجزء الثالث، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس.
٥٩ ـ محمَّد خير الدين: مذكرات الشيخ محمَّد خير الدين، الجزء الأول، مطبعة دحلب، الجزائر ١٩٨٥م.
٦٠ ـ محمَّد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسّرة، دار إحياء التراث العربي.
٦١ ـ محمَّد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ١٩٠٠م ـ ١٩٦٢م، الدار العربية للكتاب ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٣م.

٦٢ ـ محمّد الصالح الصديق: الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس من آرائه ومواقفه، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨٣م.
٦٣ ـ محمّد الطاهر فضلاء: أعلام الجزائر، الإمام الرائد الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٦٧م.
٦٤ ـ محمّد الطاهر فضلاء: التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨٢م.
٦٥ ـ محمّد الطاهر فضلاء: دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨٤م.
٦٦ ـ محمّد الطاهر فضلاء: قال الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٦٨م.
٦٧ ـ محمّد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية من عام ١٨٣٠ م حتى ثورة نوفمبر ١٩٥٤م، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨٥م.
٦٨ ـ محمّد عبد السلام الجفائري: مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس ١٩٨٤م.
٦٩ ـ محمّد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزء الأول الطبعة الأولى، المطبعة التعاونية ١٩٦٥م.
٧٠ ـ محمّد العيد آل خليفة: الديوان، مطبعة البعث قسنطينة والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٦٧م.
٧١ ـ محمّد الميلي: ابن باديس وغروبة الجزائر، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٠م.
٧٢ ـ د. محمّد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧م إلى ١٩٣٩م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٨م.
٧٣ ـ محمّد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها، أعلامها من ١٩٠٣ ـ ١٩٣١. المجلد الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٨م.
٧٤ ـ محمّود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، الطبعة الثانية، دار المعارف.
٧٥ ـ وزارة الشؤون الدينية: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر ١٩٨٤م.
٧٦ ـ وزارة الشؤون الدينية: البصائر، المجموعة الأولى، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر.
٧٧ ـ د. يحيى بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠م ـ ١٩٥٤م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٥م.
٧٨ ـ د. يحيى جلال: تاريخ المغرب الكبير، الجزءان الثالث والرابع، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١م.

رابعاً: المراجع المترجمة

٧٩ ـ جوان جيليسبي: الجزائر الثائرة، تعريب خيري حماد، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت ١٩٦١م.

٨٠ ـ روجيه جارودي: حوار الحضارات، ترجمة د. عادل العوّا، الطبعة الثانية، عويدات، بيروت ١٩٨٢م.

٨١ ـ شارل أندري جوليان: افريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، ترجمة المنجي سالم، الطيب المهيري وغيرهما، الدار التونسية للنشر تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٦م.

٨٢ ـ شارل روبير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٢م.

٨٣ ـ فرحات عبّاس: حرب الجزائر وثورتها، ليل الاستعمار، ترجمة أبّو بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية المغرب.

٨٤ ـ لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليق الأمير شكيب أرسلان، المجلد الأول، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت ١٩٧١م.

خامساً: المراجع الفرنسية

١ ـ ALI MERAD: IBN BADIS commentateur du corran, librairie orientaliste paul genthner, PARIS 1971.

٢ ـ ALI MERAD: le refromisme musulman en ALGERIE de 1925 a 1940, PARIS 1967.

٣ ـ Charles ROBERT AGERON: les algeriens et la FRANCE 1871 - 1919, tome second, presses universitaire de FRANCE 1968.

٤ ـ colette et Francis JEANSAN: L'ALGERIE hors la loi, edition du seuil, PARIS 1956.

٥ ـ Mahfoud KADDACHE: histoire du nationalisme algerien question national et politique algerien 1919 - 1951, tome I, S N E D ALGER 1981.

سادساً: الدوريات

١ ـ وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية: مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد ٢٤، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، آذار ـ نيسان ١٩٧٥م.

٢ ـ وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية: مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد ٤٤، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، نيسان ١٩٧٥م.

٣ ـ وزارة الإعلام والثقافة: مجلة الثقافة، السنة الأولى، العدد ٦، مطبعة بولعيد، الجزائر كانون الثاني ١٩٧٢م.
٤ ـ وزارة الإعلام والثقافة: مجلة الثقافة، السنة الرابعة، العدد ٢١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، حزيران ـ تموز ١٩٧٤م.
٥ ـ وزارة الإعلام والثقافة: مجلة الثقافة، السنة الرابعة عشر، العدد ٨١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، أيار ـ حزيران ١٩٨٤م.
٦ ـ وزارة الإعلام والثقافة: مجلة الثقافة، السنة الخامسة عَشر، العدد ٨٧، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، أيار ـ حزيران ١٩٨٥م.
٧ ـ وزارة الأوقاف: مجلة القبس، السنة الرابعة، العدد الثاني.

سابعاً: الجرائد

١ ـ جريدة الحقيقة: حوار مع الشيخ أحمد حماني، السنة الأولى، العدد ٢، من ٢٣ إلى ٣٠ ـ ١٢ ـ ١٩٩٣م.
٢ ـ جريدة الحقيقة: حوار مع الشيخ أحمد سحنون، السنة الأولى، العدد ٣ من ٢٩ ـ ١٢ إلى ٥ ـ ١ ـ ١٩٩٤م.
٣ ـ جريدة الشعب: العدد ٢٢٨٠، ١٦ ـ ٤ ـ ١٩٧٠م.
٤ ـ جريدة الشعب: العدد ٧٩٣٠، ٣ ـ ٤ ـ ١٩٨٩م.
٥ ـ جريدة الشعب: العدد ٨٢٨٠، ١٦ ـ ٤ ـ ١٩٩٠م.
٦ ـ جريدة الفجر: ٧ ـ ١٢ ـ ١٩٨٩م.
٧ ـ جريدة النصر: ١٦ ـ ٤ ـ ١٩٨٩م.

فهرس المباحث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

